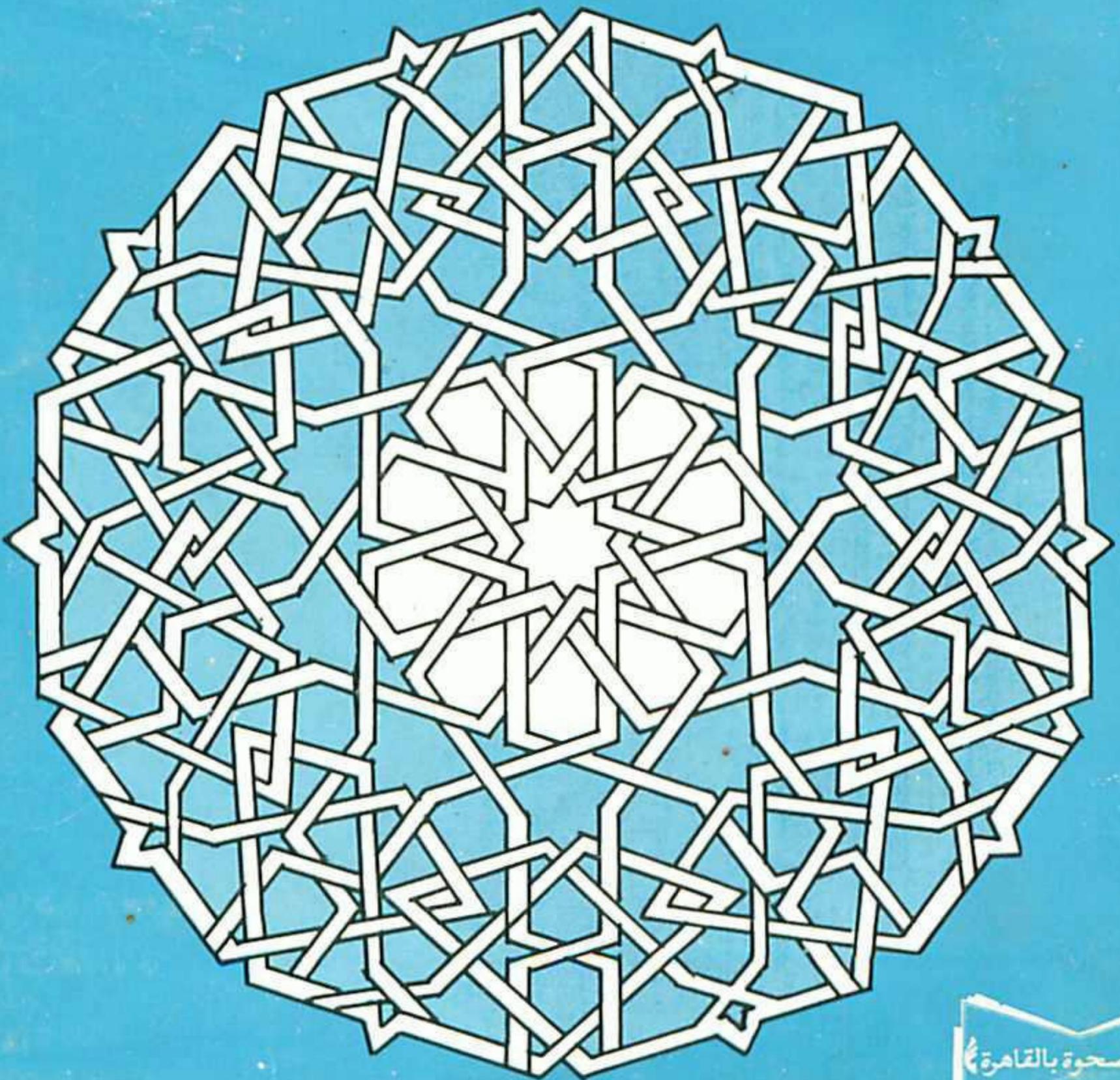


140
وحييد الدين خان

واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام

ترجمة د. سهير عبد الحميد إبراهيم



دار الصحوة بالقاهرة

وحيد الدين خان

واقفنا ومستقبلنا
في ضوء الإسلام

حقوق الطبع محفوظة
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م

الطبعة الأولى

واقعنا ومستقبلنا

في ضوء الإسلام

وحيد الدين خان

ترجمة: د. سمير عبد الحكيم إبراهيم مراجعة: د. عبد الحكيم عويس

الناشر

دار الصبوة

للنشر والتوزيع بالقاهرة

شارع جمال عبد الناصر بجوار عمارات المهندسين - حدائق حلوان



فهرس

٩	مقدمة المؤلف
١٢	حقيقة الدين
٣٠	شهادة الحق
٣٩	الأركان الأربعة
٧٦	الصراط المستقيم
٨١	الصراط المستقيم في السلوك الفردي
٨٦	الصراط المستقيم الإجتماعي
٩٥	أسس النصر وقواعده
١٠١	منهج الدعوة إلى الإسلام
١٠٩	الدين الكامل كيف يتحقق
١١٣	الإسلام في كشمير
١١٧	الميرة النبوية النموذج الأعلى للحركة الإسلامية
١٤٤	الإخراج من القبيلة
١٥٨	إنقصار الإسلام
١٦٨	الحركات الإسلامية في العصر الحديث
١٨٩	بناء الأمة
٢٠٥	الدعوة إلى الله
٢٤٠	الإمكانات الجديدة
٢٦٤	خاتمة

في قصة نرواها جنوب أفريقيا المعروف (اولفير شراينر)
(١٨٥٥ - ١٩٢٠ م) . بعنوان (حكاية مزرعة افريقية) ترد حكاية
صيد يرويها مسافر اجنبي لصبي فلاح ، وقد تمثل ذلك « الصيد » في
البحث عن « طائر الصدق » الأبيض الجميل الذي كان قد رآه للحظة
خاطفة على شاطئ بحيرة . فأراد أن يوقعه داخل شرك الاعتقاد
الطيب - في قفص تصوراته ، الا أنه عرف أن الصدق يمكن نيله
بالصدق فقط . فترك وادي الأوهام . وبدأ الصعود فوق جبل الصدق
وظل يصعد ويصعد حتى وقف أمام صخرة عالية تعترض طريقه .
فبدأ يحفر في الصخرة ... يصنع سلالم وأدراجاً . ويظل يصنع
تلك السلالم والأدراج سنة بعد سنة حتى أصابته الشيخوخة وهذه
الهرم .. وحينئذ وصل الى قمته ؛ الا أنه أدرك بعد ذلك أن أمامه
صخرة أخرى تفوق الأولى في علوها وارتفاعها بينما عمره الآن قد
وصل الى نهايته ، ففارق الحياة عند هذا الحد .

وفي سكرات موته سقطت عليه ريشة بيضاء من جناح الطائر .
فتأكد حينئذ أن الطائر الذي يقصده يقف هناك عند الصخرة التالية ؛
ومع أنه لم يستطع الوصول الى طائر (الصدق) بنفسه الا أنه أسلم
الروح مطمئناً لأن الجيل الذي يليه لن يضطر الى بناء السلالم
والأدراج السابقة . وسوف يتمكن هذا الجيل من أن يمسك جناح
الطائر بيده . ومات الشيخ وهو يقول :

« ... حيث أرقد ، وقد هدنى الضعف وحطمتنى الشيخوخة .
سيقف رجال آخرون ؛ شباب قوى ، تملؤهم النضرة والحيوية .
سوف يصعدون الدرجات التي صنعت ، لن يعرفوا اسم الرجل الذي

صنع هذه الدرجات ، ولكنهم سوف يصعدون ، وعلى سلمى سيصعدون
... وسوف يجدون الصدق . ومن خلالى سيجدونه » .
(أوليفر شراينر : قصة مزرعة أفريقية)

لم أجد ما هو أفضل من السطور السابقة لأعبر بها عن قيمة
هذا الكتاب الذى أقدمه للقراء الكرام .

لقد ولدت - على وجه التقريب - فى الأول من يناير ١٩٢٥ م .
وقد انتقل والدى فريد الدين خان رحمه الله إلى الرفيق الأعلى فى
٣٠ ديسمبر ١٩٢٩ م حين كنت فى الخامسة من عمرى فقط . بعدها
تلقيت تعليماً وتربياً خاصة فى بيئة مدينة (أعظم كره) تميزت
بما فيها من تقاليد دينية ، واضطرتنى ظروفى إلى أن انظر إلى كل
شئ، نظرة فاحصة ودقيقة ، وحين وصلت إلى مرحلة الإدراك . عرفت
أن الدين الذى حكم والأفكار الإنسانية وسيطر عليها لألف سنة فى
« العصر القديم » . قد أصبح مستضعفاً من كل ناحية فى « العصر
الجديد » فظهرت بداخلى عاطفة تدفعنى لأبحث فى هذه القضية .
فبدأت القراءة والمطالعة بانتظام .

ويظن معظم الناس أننى من خريجي الجامعة ، إلا أن الحقيقة
هى أننى قضيت جميع مراحل تعليمى داخل المدرسة العربية فقط .
وبعد أن انتهيت من الدراسة بالمدرسة العربية ، تعلمت بنفسى اللغة
الانجليزية . ونتيجة لقراءتى لهذه اللغة وكتبتها قراءة مستمرة ، ساد
الأسلوب الجديد طريقتى فى الكتابة فبدأ الناس يعتقدون أننى لم
أدرس بالمدرسة العربية وأننى تلقيت تعليمى على النهج الغربى ،
والحقيقة اننى بالمعنى الاصطلاحى للتعليم فى الهند (مولوى)
(أى شيخ فقيه) .

وقد شكل تعليمي أو بمعنى أدق شكلت الخلفية الفكرية التي واكبتني طوال سني تعليمي مدرسة تعليمية تقليدية - على الأقل - إلا أنه من الواضح أن هذا الأمر لم يكن كافياً لفهم الإسلام فيما يتعلق بالعصر الجديد ، ومن هنا وفي سنة ١٩٤٨ م اتخذت قراراً جديداً ، فحاولت من ناحية أن أتعرف على الأفكار الجديدة من مصادرها المباشرة . ومن ناحية أخرى بدأت قراءة القرآن وتحديث العلوم المتعلقة بها لفهم الإسلام من البداية . وإذا كانت السنوات الخمس والعشرون الأولى في حياته قد انقضت في الدراسة والتعليم فإن الخمس والعشرون سنة التالية قد انقضت في البحث والمطالعة . وحين تنتقضي الخمسون سنة الآن ، فيسرنى أن أقدم هذا الكتاب الذي يعد نتاج بحث طويل !!

وإذا كنت بهذا قد صنعت أدراج أو سلالم الصخور النظرية فإن أمامي جيلاً آخر ، وقد وجب الآن أن تتحرك مهمة الإسلام بصورة عملية في ضوء الحقائق المكتشفة .

لكنني أشعر أن طاقتي قد ضعفت ، فقد عجل بشيخوختي جهاد الماضي الشديد قبل الأوان ، إذ قضيت عمري كله في صنع « السلالم النظرية » فكيف لي أن اصنع « السلالم العملية » ويكفيني أن أشعر بالاطمئنان ، لأنني قد اكتشفت (الصدق) على الأقل بطريقة فكرية . فلعلني أموت وأنا أقول إن من بعدى جيلاً لن يضطر إلى صنع السلالم السابقة ... » !!

وحيد الدين

(١٣٩٥ هـ) (١٩٧٥ م)

حقيقة الدين

العبادة :

ما يريد الله من عباده يتمثل أصلا في العبادة :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

(الذاريات - ٥٦)

هذه الآية وآيات أخرى متشابهات توجد بكثرة في القرآن الكريم . وهي الآيات التي جاء فيها أن الرسل إنما بعثوا ليطلعوا الإنسان على مسؤوليته هذه (النحل ٣٦) (١) . وهذا الأمر على درجة من الأهمية حتى أن الإنسان إذا لم يجد الفرصة لعبادة الله في وطنه : وجب عليه أن يترك هذا الوطن وينتقل إلى وطن آخر (النساء ٩٧) (٢) والمفهوم اللغوي للعبادة هو أن تخضع وأن تذلل (أصل العبودية الخضوع والتذلل - لسان العرب) والمفهوم اللغوي للعبادة هو نفسه المدلول الشرعي لها أيضا . وقد كتب أبو حيان الأندلسي يقول :

« العبادة التذلل ، قاله الجمهور » .

(البحر المحيط - المجلد الأول ص ٢٣)

ولهذا استعمل لفظ « الاستكبار » للسلوك المقابل للعبادة -

قال تعالى :

(١) يقصد المؤلف قوله تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله » .

(المراجع) .

(٢) يقصد المؤلف قوله تعالى : « أن الذين توفعهم الملائكة طالم انفسهم قالوا

فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا لم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها .

(المراجع) .

« إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »

(المؤمنون - ٦٠)

ومع أن أصل مفهوم العبادة هو الخضوع والتذلل إلا أن هذا اللفظ حين يقال لله فهو يشمل أيضا مفهوم المحبة . يكتب ابن كثير :

« العبادة في اللغة من الذلة . يقال طريق معبد وبعير معبد أى

مذل . وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف » .

(تفسير القرآن - المجلد الأول ص ٢٥)

وهذه الفاظ الامام ابن تيمية :

« لفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب » .

(رسالة العبودية ص ٢٨)

وكتب الحافظ ابن القيم :

« العبادة تجمع أصليين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع » .

(تفسير ابن القيم ص ٦٥)

فماهدف الاساسى من العبادة هو الخضوع لله والتذلل له . وذلك

ما عبر عنه القرآن الكريم بالكلمات التالية : « خشيية . تقصرع .

إخبات . انابة . خشوع . خضوع . قنوت » وغيرها من الكلمات .

فعبادة الله تعنى أن تسلم نفسك وتخضع لله إلى أقصى درجة . ثم أن

هذا العمل الذى يمثل العبادة لا يتم أمام ظالم وجبار بل أمام رحمن

رحيم . له علينا حسنات وفضائل لا نهاية لها . ومن هنا يجب اظهار

عظمة الحب داخل هذا الخضوع والتذلل بصورة ضرورية . فالعلاقة

بين العبد والرب هى علاقة خضوع وتقصرع بحب شديد يفوق كل

حب . وفي الوقت نفسه حين يرتعد العبد من شدة الخوف . تنسكب

الدموع من عينيه حين يتصور الله أمامه ، وفي الوقت نفسه يكون في حالة تجعله يهب لربه أحسن وأطيب عواطفه . فهو يتطلع إلى الله باشتياق يفوق كل اشتياق . ويضع نفسه داخل كيفية سامية عليّة من الحب الملىء بالألم ، فالتضرع والتذلل لله هو بلا شك إنما يكون من الخوف منه خوفاً لا يدانيه خوف . إلا أنه ليس خوفاً من النوع الذي يشعر به الإنسان حين يرى شيئاً مخيفاً بل هو في الأصل عاطفة لا يمكن التعبير عنها — بطريقة صحيحة تماماً — بأي لفظ آخر . فهذه حالة تنتج من امتزاج محبة الله بخشيته الله وفيها لا يمكن للإنسان أن يرجح إحداهما على الأخرى . فهذا مقام للمحبة والخوف يلجا فيه الإنسان إلى من يخشى ويخاف . فهو يشعر بخاطر هناك في مصفاة الماء إلا أنه يضع أمله في الحصول على الماء في هذه المصفاة ، فهذا نوع من الاضطراب كله اطمئنان ، ونوع من الاطمئنان كله اضطراب .

ومن المعروف أن العبادة من حيث حقيقتها الأصلية هي أمر حسي وليست مظهراً خارجياً . والإنسان في النهاية هو وجود حسي . ومن هنا تصبح العبادة للإنسان في شكلها الأخير أمراً حسياً وليست مظهراً خارجياً ، وقد سرح الحديث الشريف أن (التقوى) هي اسم لحالة في القلب (التقوى ها هنا — البخاري)

ويقرر القرآن الكريم أن التقوى إنما تنتج من العبادة :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »

(البقرة — ٢١)

والعبادة من ناحية مظهرها الخارجي هي اسم للخضوع لرب . ومن ناحية حقيقتها الداخلية هي اسم لهذا الإدراك العميق ، حين يذوب العبد في ربه حتى تطرأ عليه حالة يشعر فيها أنه أمام الله .

« تعبد الله كأنك تراه » (البخارى من المشكاة كتاب الايمان)
وطبقا لحديث الرسول ﷺ ، فان أسمى العبادات هى أن يذوب
العبد فى ذكر الله وفى تصور له حتى يشعر أنه قريب منه . ومن هنا
تطراً على العبد حالة من الاستحضار وكأنه يرى الله . وحالة القرب
هذه هى أسمى مقامات العبادة قاطبة . فجميع الأعمال التى يطلق عليها
اسم مناسك العبادة أو مراسم العبادة هى كلها طرق للوصول الى
هذه العبادة ومظاهر ضرورية لها . فربها رب العباد . فاذا قام شخص
ما وأدعى أنه يعبد الله بدون هذه المظاهر أو يعبد الله خارج حدودها
فهو كاذب فى دعواه : لأنه بدونها لا يمكن — حقيقة — أن تثبت شجرة
العبادة داخل الإنسان . فاذا كان الإنسان فى الواقع إسماً لهذه الروح
الخاصة التى لا يمكن أن نشاهدها . فإن هذه الحقيقة قائمة أيضاً وهى
أنه لا يمكن أن نتصور الوجود الإنسانى فى هذه الدنيا بدون الجسم
الإنسانى .

ومع أن كلمة العبادة تضم من هذه الناحية الشريعة بأكملها . لأن
ما يقوم به العبد لإرضاء معبوده ولأداء أوامره وأحكامه ترجع دوافعها
الى عاطفة العبودية . إلا أن العبادة هى أساساً وأصلاً اسم لهذا
العمل الخاص الذى يتم بين العبد والرب . والعمل الذى يتم بين العبد
والعبد هو من مستلزمات العبادة . بينما العمل الذى يتم بين الرب
والعبد هو بذاته عبادة ، فالعبد حين يقيم الصلاة يكون مشغولاً بعبادة
الله مباشرة . فهو حين يسجد لله لا يوجد هناك وجود ثالث يحول بينه
وبين الله . وعلى العكس من هذا فحين يقوم العبد بتنفيذ الأحكام
الإلهية فيما يتعلق بالأخلاق والمعاملات فهو يطبق مستلزمات أمور
العبادة على الآخرين . ومن ناحية التطبيق فالأمر يستلزم أيضاً وضع
الفرق بين النوعيات فى الأذهان كما هو فى أعمال العبادات وإلا فلا يمكن

أن ينشأ في ذهن الإنسان التصور الصحيح للدين . لأن المستلزمات تكون مطلوبة دائماً لشيء آخر بينما الحقيقة أمر مطلوب مطلقاً .

وعلى سبيل المثال إذا ما قيل إن من مستلزمات المسلم أن يقسم أموال الميراث طبقاً لقانون الله ، فهذا لا يعنى أن يقوم كل رجل بالضرورة بمحاولة القيام بهذا . وأن تكون لديه بعض الممتلكات ليقسمها بالتساوى بين أصحاب الحق فيها . وذلك حتى يتمكن من تنفيذ حكم الميراث . والافلن يكتمل دينه . بل أن الهدف هنا فقط انما يعنى أنه إذا نال مسلم ممتلكات في تركة ما أو في مال ما حينئذ يفرض عليه ايمانه واسلامه أن يتصرف فيها طبقاً لأحكام الميراث الإسلامية . فهذه الفريضة التي تتعلق بتقسيم ما يحصل عليه المسلم من ميراث ليست مثل عبادة الله التي تجب على كل شخص على الاطلاق .

ويفهم من هذا الشرح الخاص بالعبادة ان ما يتعلق بمحبة الله والخوف منه ليست مجرد « محرك » للحياة العملية بل هو أمر مطلوب في حد ذاته وهو الهدف الأسمى الذي من أجله خلقنا في هذه الدنيا . فجميع الأعمال والأفعال هي وسيلة للحصول على الإدراك الحسى الذى يعبر عنه بالتعلق بالله والوصول إلى الله . وبالفاظ أخرى إن ما بيننا وبين الله ليس فقط علاقة فرض ذهنى من نوع خارجى (أى نقوم بعمل ما أكثر من مرة فيرضى عنا الله في السماء) بل أكثر من هذا أن تقوم بيننا وبينه علاقة مباشرة وسنوك العبودية في شكله الظاهرى هو تطبيق للحكم ولكن من ناحية الحقيقة هو في الأصل ينتقل العبد إلى مقام يستطيع فيه إن يلتقى مع ربه . يفتاحى ربه ويشعر باحساس يشعر من خلاله أنه يقف دائماً على باب ربه الذى وسعت رحمته كل شيء .

وهكذا يحسن المسلم بوجوده لله في الحياة الدنيا هذه هي الحقيقة
العليا للدين .

وهدف الأحكام والآداب كلها هي الوصول بالإنسان إلى هذا
المقام . وهكذا من أدرك وجود ربه في الدنيا فسوف يجده أيضا في
الآخرة . ومن حرم من ادراكه في الدنيا فلا يجوز له أن يأهل في إن
ينال نعمة لقاء الرب في الآخرة أيضا .

ما هي كيفية الوصول إلى (ثروة) الدين هذه ؟ أن معرفة هذه
الثروة والوصول إليها يتحقق إذا ما بدأ الناس في الوصول إلى « رزق
الله » (طه - ١٣١) (١) ومن الواضح أن ما تقوم به من عمل في
سبيل تنفيذ أحكام الله داخل في محض اختيارك ، فإن شئت فعلته وإن
شئت لم تفعله . ولكن ما يطرأ عليك من أحوال ومشاعر داخلية أثناء
التطبيق لا يدخل في نطاق اختيارك فأنت نفسك لا يمكن أن تتشبه هذه
المشاعر ...

إذن من أين تأتي هذه الأحوال والمشاعر . أنها أساساً تأتي من
الله . وهي رزق المؤمن الذي بدونها لا يمكن أن تظل شخصيته الإيمانية
حية باقية . هذا هو « رزق » العلم والعمل الذي وجد داخل ذات مريم
عليها السلام فسألها نبي ذلك الزمان : « أنى لك هذا ؟ » فأجابت :
« هو من عند الله » (آل عمران ٣٧) . ان محاولتك هي عملك . وهذه
المشاعر والأحوال هي الثمرة التي تنالها من الله جزاء حسن العمل .
فالله لا يعطى نعمته قرضاً بل يعطيها نقداً ، والعبد المؤمن يجد هذه

(١) المفسود قوله تعالى : « ورزق ربك خير وأبقى » (المراجع) .

النعمة في الوقت الذي يستحقها فيه . فحين يقبل الله منا عملاً ما نظراً علينا وارادات ملكوتية بطريقة محيرة . ومع أن الجنة التي وعد الله تعالى بها المؤمنين الصالحين جاءت في شكل روائح الجنان يجدها أهل الإيمان في الدنيا . ومع أن الكيفيات التي تطراً على المؤمن تأتي في شكل شوق شديد وقلق إلا أنها ألدّ من كل الاذات . ولا يمكن أن تقاس عليها أية لذة دنيوية معروفة . وهذه حقيقة ثابتة بالحس^١ الوجداني . عى أن هذه المشاعر والأحوال وانوارادات هي صورة لأعظم النعم الالهية التي يعبر عنها بالجنة كما علمنا القرآن الكريم أن المؤمنين سينالون الجنة في الآخرة ، وهي بالنسبة لهم رزق معلوم (الصافات - ٤١) (١) ، وهي بالنسبة لهم ليست شيئاً غريباً عنهم بل هي شيء حتى معروف لديهم تعرفوا عليه في الدنيا :

« ويدخلهم الجنة عرفها لهم » (محمد - ٦)

يروى عن أبي سعيد الخدرى أن النبي ﷺ قال :

« والذي نفسى بيده إن أحدهم بمنزلة في الجنة أهدى منه بمنزلة الذي كان في الدنيا » . (أخرجه البخارى في صحيحه)

وحين يوفق الإنسان في التصديق على روح قوله تعالى :

« الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة » (المؤمنون - ٦١)

وحين يوفق الإنسان في الحصول على نصيب من هذه التلاوة التي تصور قوله تعالى : « ترى أعينهم تفيض من الدمع (المائدة - ٨٦) ، وحين يقضى ليله في اشتياق إلى ربه ، تلك الليالى التي جاء ذكرها في القرآن بقوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » (السجدة ١٦) ، وحين تمر عليه لحظات من الحرقرة المؤلمة التي يدرك فيها حقيقة

(١) المتصود قوله تعالى : « الا عباد الله المخلصين اولئك لهم رزق معلوم » .

قوله تعالى : « **والذين آمنوا أشد حبا لله** » (البقرة - ١٧٥) وحين ترد عليه أرق احساسات الإيمان ، وحين لا يكون بينه وبين الحقائق أى ستار . وحين ينجى ربه بقلب لا قرار له ، وشفاه مرتعدة تنطق بألفاظ ملهمة لم يفكر فيها من قبل ، هذا هو فى الأصل « رزق الله » الذى يمنحه للمؤمن ، فهو يتذوق حلاوة الثمار التى حفظها الله له فى الدنيا واسمها (المشاعر والأحوال والواردات الإيمانية) ، وحفظها له فى الآخرة فى شكل نعيم الجنة ..

وفى ذلك الوقت سيثسر أهل الإيمان أن هذا النعيم هو الذى ذاقوا حلاوته فى الحياة الدنيا : « **كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها** » .

(البقرة - ٢٥)

وما يناله أهل الجنة فى الآخرة هو عطاء متشابه ، وهو شىء معروف ومعلوم للمؤمن .. فأى جهل هذا الذى يصيب شخصا يعتقد أنه سيتذوق فى الآخرة شيئا ظك يجهله فى الحياة الدنيا ، فاذا لم ترد عليك فى الدنيا مثل هذه اللحظات واللحاحات التى تشعر فيها أنك بنفسك اقرب الى الله من أى شىء آخر ، فكيف تنال هذا القرب فى الآخرة ، وبلا شك فإن المصلين سينعمون فى الآخرة نتيجة لثواب الصلاة وأجرها إلا أن هذه النعمة هى جزء مما تعرف عليه المصلون فى الدنيا وهو ما أشار اليه رسول الله ﷺ : (جعلت قررة عينى فى الصلاة) (النسائي)

مستلزمات العبادة :

ان ما يطلبه الله تبارك وتعالى من الإنسان أولا وأخيراً هو أن يخضع له هذا الانسان ويطيعه ويسلم له نفسه ، وهذا ما يطلق عليه

العبادة : إلا أن الإنسان لم يخلق في فراغ بل خلق في دنيا مليئة بالأحداث . ولهذا فمن الضروري أن يعلن عن عبوديته من خلال جميع هذه الجوانب التي يتعامل معها في هذه الحياة الدنيا . . .

١ - الجانب الأول : هو الجانب الذى يتعلق بذاته . فإذا ما صادفته بعض مشكلات الحياة في إطار مشاغل الحياة العديدة كان بوسعك أن يسلك طريقين اثنين : الطريق الأول طريق الله . والطريق الثانى طريق النفس وعبادة الباطل . ولكن المسلم سوف تجبره عاطفة العبودية على أن يترك الطريق الثانى وأن يختار لنفسه الطريق الذى أرشده إليه الله . فكما يسجد لله سجوداً حسيماً عليه أن يسجد له أيضاً في وجوده ومسلكه العملى . هذا هو مظهر العبادة الذى يتجلى بالنسبة لذاته هو . والاسم الثانى الذى يطلق على هذا السلوك هو « الطاعة » وأماكن هذه الطاعة في البيت . وفي السوق . ومجلس الشورى . وجميع الأماكن . حيث يواجه المؤمن الصورة السابقة . وتواجهه مسألة الاختيار بين الطريق الربانى والطريق غير الربانى .

٢ - الجانب الثانى : هو الجانب الذى يتعلق بالعامم الخارجى أو بالفاظ أخرى تتعلق بغير المسلم . فعلى وجه هذه البسيطة يوجد أناس يعيشون عليها لا تربطهم بربهم أية علاقة حتى الآن وعليه فهم يتجهون ناحية نهاية أخروية خطيرة . وهذا الموقف الصعب يفرض على العبد المؤمن أن يحاول جذبهم إلى طريق العبادة الذى اختاره لنفسه . وهذا هو أحد مظاهر العبادة الذى يتضح للناس عامة . والاسم الثانى الذى يطلق على هذا العمل هو : الشهادة أو التبليغ . فما هو مطلوب من أهل الإيمان أنفسهم هو الطاعة (تنفيذ الأحكام) والمسئولية التى تقع على عاتقهم تجاه غير المسلمين هي : التبليغ .

وانأخذ الآن المظهر الأول من العبادة وهو « الطاعة » وينقسم هذا المظهر إلى قسمين أساسيين : انفرادى واجتماعى ، والمقصود بالطاعة الانفرادية ، طاعة الله فى تلك الأمور التى تتعلق بحياة أهل الإيمان الذاتية ، وتندرج هنا جميع الأحكام التى قدمت فيما يتعلق بالأخلاق والمعاملات ، وعلى سبيل المثال : قول الصدق ، الوفاء بالوعد ، أداء الأمانة ، العدل والانصاف ، التواضع ، الوزن بالقياس ، أداء الحق لأصحابه ، معاملة الجميع بالنصح ، وخلاصة القول أن الإنسان لا يمكن أن يتخذ قراراً ذاتياً فى كل ما يتعرض له من معاملات ذاتية ، وتنفيذ الارشادات الالهية فيما يتعلق بهذه الأمور ، يطلق عليه الطاعة الانفرادية ، ولا يجوز لأى مسلم اذا ما عرف حكم الله فى أمر ما أن ينحرف عن تطبيق هذا الحكم .

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضللاً مبيناً »
(الأحزاب - ٣٦)

هذه الطاعة (الفردية) هى حق واجب لله على كل مؤمن ولا يمكن أن يعد الإنسان عابداً لله ما لم يطبق تلك الأحكام ، فى حياته العملية ، التى فرضها الله عليه فى أحواله وأعماله ، ومع أن « العبادة » من ناحية مضمونها الداخلى اسم لحالة داخلية ، فإنه مطلوب من الناحية الخارجية أن يجعل الإنسان ظاهرة كله فى طاعة الله بصورة كاملة ، وأن يجعل سلوكه الخارجى تابعاً كلية للخريطة التى رسمها الله ، وواجب كل مؤمن ومؤمنة أن يتعامل مع جميع الأمور السابقة التى تعترضه فى حياته الدنيا بأسلوب تابع تماماً من طاعته لله ، وأن يترك اتباع جميع الرغبات والأهواء الأخرى :

« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في نسائم كافة ولا تتبعوا خطوات
المشيطان إنه لكم عدو مبين »

(البقرة - ٢٠٨)

والأحكام التي اخترنا أن نضع لها عنوان « الطاعة » يمكن أن
نطلق على القسم الثاني منها الأحكام الاجتماعية . وهي تلك الأحكام
التي لا ينحصر تطبيقها في مزاج المؤمن ، ولكنها تطبق حين يكون المجتمع
بأكمله مستعداً لتطبيقها . وهذا هو السبب في أن هذه الأحكام نزلت
دائماً في الوقت الذي كان المؤمنون يقيمون تنظيمهم السياسي . وهذا
النوع من الأحكام أو القوانين الاجتماعية يمكن أن تنفذ بقوة .

والمخاطب هنا فيما يتعلق بأحكام الشريعة الاجتماعية هو المجتمع
المسلم المستقل وليس أفراد المؤمنين المتفرقين .

ونحن نشاهد في تاريخ بني إسرائيل أنهم حين كانوا تحت السيطرة
القبيلية في مصر ، لم تقدم لهم الأحكام القانونية للتوراة ، ولكن حين
خرجوا من مصر ووصلوا إلى صحراء سيناء ثم أصبحوا جماعة حرة
مستقلة ، حينئذ وصلت لهم القوانين من عند الله (الخروج ١٥ : ٢٥)
ونفس هذه الصورة وقعت عند العرب ، ففي العهد المسكي حين كان
المؤمنون أقلية غير مستقلة نزل عليهم الجانب الأصولي من الشريعة
الذي لم يكن تنفيذه يحتاج إلى سلطة اجتماعية فكل مسلم له حرية
اتباع هذا الجانب في حياته بمحض قراره الخاص ، هذا بالإضافة إلى
نزول بقية الشرائع تدريجياً ، وقد نزلت الارشادات التفصيلية المتعلقة
بالحياة الاجتماعية في المدينة حين أصبحت للمسلمين أرض يعيشون
عليها .

إن ترتيب نزول هذه الأحكام يدل على أن ما يفرض على المؤمنين
ويشرع لهم من الدين في الأحوال للعامة هو ذلك القسم فقط الذي

حرص قبل زمن الاستقلال - بالأصاعه إلى هذا - بين تطبيق بغير الاحكام يكون واجبا ومفروضاً حين يمثلون زمام السلطة والحكم .
وحيث يحد من الضرورى تطبيق الاحكام اواجبه في مثل هذه الظروف ، ونزول الأحكام الشرعية واتساع دائرتها تدريجياً يحد على ان هذه الاحكام ليست واجبه على اطلاقها بل هى واجبه بما يتناسب مع الظروف (١) وتحديدها يكون دائماً خاضعاً للظروف الواقعية لفرد او الجماعة التى تخاطبها الشريعة ، والحقيقة ان المخاطب بالاحكام الحضارية والاجتماعية هم مجموعه المؤمنين المطالبين بتطبيق هذه الأحكام بصورة عملية .

فم يصدر حكم للمسلمين الذين لا يتمتعون بالحرية الكاملة يأمرهم بتنفيذ الأحكام الدينية على نطاق اجتماعى وعلى مستوى الدولة . فتطبيق الأحكام هو مطالبة عملية ، ومثل هذه المطالبة تصدر فقط إلى أولئك الناس الذين سبق لهم اقرار ذلك ويمكن ان يتم فعلاً طبقاً لاستطاعتهم . فالأصول الواضحة للشريعة هى أنه « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (البقرة - ٢٨٦) أى لا يكلف أحد بمسئولية عمل إلا إذا كان ذلك فى « وسعه » فالله لا يكلف أحداً فوق « طاقته » ، ولهذا فلا يمكن أن يكلف الله المؤمنين بالالتزام بأحكام لا يمكن تنفيذها . ولو وضع شخص ما أحكام الشريعة كلها أمامه وادعى أن المؤمنين مكلفون بهذه الأحكام فى جميع الظروف ، أى أن عليهم واجب تطبيق فهرس الأحكام الشرعية كلها على الأرض فهو كالشخص الذى يستند على قوانين الزكاة جميعها ، ويقول بأن على كل مسلم مسئولية تنفيذ

(١) لا يعنى هذا ما يروجه بعض المرتدين بشأن تعطيل الاحكام الشرعية ، بل يعنى هذا ان تطبيق الشريعة يجب تطبيقه فى اطار الممكن وليس المستحيل . فالمسلمون فى الهند (بلد المؤلف) عاجزون - حالياً - عن تطبيق الشريعة على الهنود . . لانهم لا يحكمون ، ومستضعفون . . وهذا بخلاف غيرهم من الدول الاسلامية التى تحرر على انها مستقلة ، وانها اسلامية ولا تطبق الشريعة (المراجع) .

الأحكام الخاصة بجميع أقسام رأس المال فيما يتعلق بأموال الزكاة .
وعليه فيجب على كل مسلم أن يمتلك جميع ما جاء في القسم الخاص
بالأموال حتى يمكنه أداء جميع الفرائض التي جاءت تحت عنوان
الزكاة في حياته الدنيا .

فأحكام الدين هي - من ناحية الشخص - متناسبة جميعها ، لكن
هذه الأحكام الخاصة بنا ليست متناسبة ، فانقران يأمر « بأقام
الصلاة » ويأمر « بأداء الزكاة » وأحكاما متشابهان معا في الظاهر ،
وهما في صيغة الأمر ، إلا أن الأحكام الخاصة بنا ليست متناسبة في
كل منهما ، فحكم الصلاة هو حكم مطلق واجب التنفيذ على كل مسلم
ومسلمه ، بينما حكم الزكاة مشروط بشرط النصاب ، فالشخص الذي
يملك نصاب الأموال التي تجوز عليها الزكاة ، ينطبق عليه حكم الزكاة ،
وهو له حكم قطعي واجب التنفيذ كحكم الصلاة تماما ، ولكن الشخص
الذي لا يملك نصاب أموال الزكاة فلا يطلب منه أداء الزكاة .
ولا يطالبه هذا الحكم أيضا بأن يحاول امتلاك الأموال التي يصل بها
إلى حد نصاب الزكاة حتى يتمكن من تنفيذ حكم الزكاة .

إن الفريضة تجب عليه في الوقت الذي يمكنه فيه أن يقوم بأدائها
ويفهم من هذا أن المستلزمات التفصيلية للدين ليست مشروعة شرعية
مطلقة بل هي مشروعة بما يتناسب مع الظروف ذاتها ، وبالدرجة التي
تنتشر بها دائرة المؤمن ، تزداد مستلزماته ، فحين يوجد شخص مؤمن
واحد ، يفرض عليه هذا النصيب من الدين الذي يتعلق بذاته فقط .
فيكون التركيز على ذاته حيث يطبق الهدايات الالهية ، وحين يصبح
المسلمون أسرة أو عدة أسر ، تكون هذه الأسرة مخاطبة في حدود دائرتها ،
وحين يصبح أهل الايمان جماعة تكون مجتمعا مستقلا حينئذ يفرض
عليها الأحكام الخاصة بالمجتمع ككل ، وهي الأحكام التي فرضها الله

تعامات الاجتمعيه . وعنى جميع افراد المجتمع الا انهم يذبحون جميعا .
ولان تطبيقها على نطاق المجتمع لا يمكن ان يتم بدون سلطه . لهذا
فحين يصدر هذا الحكم لاي مجتمع مؤمن فإن هذا يعنى بالضرورة
سمنه ان يودر افراد المجتمع عليهم اميرا سياسيا ويخضعوا لامرته
ويستدون تحتها حياة اجتماعيه يضبقوا من خلالها جميع القوانين
الشرعيه .

والاحكام الاسلاميه كلها إنما هي نتاج حقيقه نفسيه تبدأ ما وفر
الإيمان في القلب . فإن تأثيراته تبدأ في التفاعل داخل النفسيه
الانسانيه . ومن الضروري بمكان ان نقول ان المظهر الخارجى لهذه
التاثيرات يكون بالقدر الذى يتاح للأحوال الخارجيه . هذا هو شأن
طبيعه العلاقة التى تحكم اهل الإيمان . ومع ان تقسيمها إلى مراحل
امر غير ممكن إلا أنه يمكن ان نقسمها إلى ثلاث مراحل اساسيه حتى
يمكن ان نفهمها :

المرحلة الأولى : مرحلة التلقين . وأصلها ان يتمنى كل مسلم
لأخيه المسلم الخير من كل قابه . وأن يكون مخلصا لأخيه اخلاصا
نابعا من قلبه (النصيح لكل مسلم) (متفق عليه) وقد جاء في الأنجيل
أيضا (أن يكون ناصحا لأخيه (الظهور — ٤ : ٩) .

وقد أتى جرير رضى الله عنه النبي ﷺ فقال :

« يدك يا جرير ، فقال : على مه . قال : أن تسلم وجبتك لله
والنصيحة لكل مسلم » .

(كنز العمال ج ١ ص ٨٢)

أى اسلكوا معا في علاقاتكم مع بعضكم بعضا سلوكا يكون مفيدا
لاخوتكم في الدنيا والآخرة . واحذروا كل سلوك يبعث على ايجاد
الفرقة والخلاف بين الأخوة المسلمين .

هذا هو العمل الذي ورد ذكره في سورة العصر (المكية)
بالألفاظ التالية : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (العصر - ٣) .

وهكذا ذكر الله تعالى أن عاطفة العبودية التي تنشأ داخل المؤمن
هي التواصي بالحق والتواصي بالصبر . وبهذا أوضح تعالى الجانبين
الهامين للضرورة الإيمانية . وهذا أحد الجوانب العملية، فما يريد الله
من عباده هو ترغيبهم للتعاهد معاً على الإيمان والإسلام من ناحية ، ثم
تعاون المؤمنين معاً بقوتهم المشتركة للقضاء على العوائق التي تعترض
طريق تشكيل المجتمع الإسلامي الذي يرضى عنه الله في هذه الدنيا ، وأن
يتعاونوا معاً على النيات على ما يرضاه الله لمواجهة المشكلات التي تواجههم
والتغاب عليها من ناحية أخرى !! (وهذه هي المرحلة الأولى) .

والمرحلة الثانية : هي مرحلة التنظيم لكيلا يصبح المسلمون مجتمعاً
متفرقاً بل عليهم - بالدرجة الممكنة - أن ينظموا ما بينهم وأن يقرروا
معاملاتهم الاجتماعية على أصول اشورى . ومن نماذج تطبيق هذه
الأصول ما قام به نبي الله موسى عليه السلام في صحراء سيناء حين قسم
بنى اسرائيل إلى اثنتى عشرة قبيلة ، ونصب عليهم اثنى عشر نقيباً -
وفي بداية العهد المكى نشأ حول النبي ﷺ تنظيم اجتماعى . وكان مركز
هذا التنظيم هو دار ابن الأرقم ، واتبع أنصار المدينة هذه الطريقة تبيل
الهجرة ، وعند بيعة العقبة الثانية (٦٢٣ م) حين قدم إلى النبي ﷺ
٧٥ شخصاً (٧٣ رجلاً وامرأتان) ، وأعلنوا اسلامهم ، حينئذ أمرهم
رسول الله ﷺ أن ينصبوا عليهم اثنى عشر نقيباً (فقد قال رسول
الله ﷺ : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم بما
فيهم) (البداية والنهاية - ج ٣ ص ١٦٠) وهكذا انتخبوا من بينهم

اثني عشر رجلاً أمراء ، من بينهم ثلاثة من قبيلة الأوس وتسعة من قبيلة الخزرج ، وبعد ذلك قال لهم الرسول ﷺ :

« أنتم كفلاء على قومتم » (الزرقاني المجلد الأول ص ٣٨٢) .

وكان هذا النوع من الإمارة هو ما تم بالنسبة لجعفر ، حين عين أميراً على مهاجري الحبشة (سيرة ابن هشام) !! وهكذا فإن المسلمين الذين خرجوا من دار الإسلام وانتشروا في ربوع الأرض قد حاولوا في كل مكان أن يكونوا بتنظيمهم الاجتماعي ، وما قاموا به من أجل أن يعيشوا حياة إسلامية ، ومن أجل الدعوة إلى الإسلام في إطار كونهم جماعة منظمة وحتى يتمكنوا من القيام بأداء فرائضهم الشرعية كان لابد من أن يكونوا تحت زعامة أمير منهم .. وهذه هي المرحلة الاجتماعية .

والمرحلة الأخيرة للمجتمع الإسلامي هي : مرحلة تشكيل النظام السياسي الذي يطلق عليه اصطلاحاً « نصب الإمام » ونصب الإمام أي تنصيب امام سياسي واجتماعي للمسلمين هو أمر واجب بالاتفاق :

• « نصب الإمام عندنا واجب » (شرح المواقف) .

• « لابد للأمة من إمام » (شرح المقاصد) .

• « المسلمون لابد لهم من إمام » (عقائد النسفي) .

وهذه القضية على قدر كبير من الأهمية لدرجة أن كتب الفقه والعقائد لا تخلو من ذكرها ، ولا يوجد عليها أي اختلاف إلا عند فرقة من فرق الخوارج المهملة « النجدات » ، يقول ابن حزم :

« اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع

الخوارج على وجوب الامامة حاشا النجدات من الخوارج » (الملل

والنحل ص ٧٢) .

وإذا دنا هناك اختارنا فيه، يعنى بهذا الأمر فهو أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أنه أمر « سمعى » أى أنه ختم سرعى وأجب بانسرع وتبرى بعض الفرق كالزيدية والقرية أنه أمر ضرورى غطاء . ولكن لما سبق ان اوضحنا فإن قضية تنصيب الإمام السياسى امر يتعلق بالمجتمعات المسلم الذى يكون له وضع يمكنه من إقامة تنظيم سياسى مستقل لأنه يتمتع بمكانه اجتماعيه مستقلة . ولا توجد هناك قضية تتعلق بتنصيب إمام سياسى بالنسبة للمؤمنين المتفرقين المبعثرين . وبالفاظ اخرى ليس هذا حكماً مطلقاً بل معناه انه لا توجد أية جماعة مسلمة لها صفتها الاجتماعية المستقلة . فإذا ما وجدت هذه الجماعة أصبح من الضرورى بها أن تنظم مجتمعنا على أسس الدين . وان تختار أميرها السياسى . اذى تسيئ حياتها المنظمة تحت امرته .

والإمامة السياسية ليست مظهراً على السلطات الاجتماعية لجماعة ما . وحين توجد السلطات الاجتماعية يمكن توقع ظهور الإمامة ، فإذا لم توجد مظاهر السلطات الاجتماعية (أى الاستقلال الاجتماعى) فكيف يمكن أن تظهر الإمامة وعلى أى أساس يمكن اعطاء مثل هذا النوع من « التكليف » مايعنى لبقية الأحكام المسابية !!

إن ما ذكرناه قبلا يتعلق بمشروعية الأحكام الخاصة بالمؤمنين . وهنأ نذكر بالاضافة إلى هذا الأمر أهم حكمة الدين . وهى التدرج فى الأحكام . ومن هذه الناحية فمثلاً لا تقع المسئولية على الأقلية المسلمة فى بدء مهمة تنفيذ الأحكام الاجتماعية للإسلام بين الاكثرية غير المسلمة .

فكذلك إذا شعر بعض الناس بالمساعر الإسلامية داخل مجتمع مسلم متفكك فإن أول مراحل المسئولية الملقاة على عاتقهم لا تكون المطالبة بتحكيم الشريعة فهذا النوع من العمل يعنى تماماً الانحراف عن الطريق التدريجى للإسلام .

والطريقة الصحيحة هي البدء في نشر التعليمات الأساسية والأحكام الأولية للدين . والعمل على اصلاح المجتمع الاسلامى حتى تثبت بداخل هذا المجتمع وبداخل أفراده بذرة قبول أحكام الإسلام العادلة وقوانينه الاجتماعية . وبعدها سيأتى الوقت الذى تبدأ فيه مهمة تنفيذ الأحكام الإسلامية .

وهناك رواية مشهورة لعائشة رضى الله عنها توضح أهمية التدرج فى الأحكام (١) . فإن انتدرج — عند الله — على درجة كبيرة من الأهمية لدرجة أنه جل وعلا لم ينزل الأحكام الضرورية للمسلمين دفعة واحدة . بل نزلت معظم الأحكام سلسلة على أقساط : هذه هي المراعاة التى أوجدت مسألة النسخ والمنسوخ فى كتاب الله . فلو نزل كل حكم بصورته التى نزل بها أولا وبشكله الكامل ما ظهرت مسألة النسخ : ويروى عن حذيفة أنه لا يجوز لشخص يجهل مسائل النسخ والمنسوخ أن يعظ الناس أو يفسر القرآن .

(١) إنما نزل أول ما نزل سورة من الفصل فيها ذكر النسخة والآخر حتى إذا نزل الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام . ولو نزل أول ما نزل لا شربوا الخمر لقاتلوا لا نزل الخمر أبداً ولو نزل لا نزلوا لقاتلوا لا دغ الربا أبداً

شهادة الحق

شهادة الحق او الدعوة إلى الإسلام هي مسئوليتنا حيال غير المسلمين . ومعنى هذه الشهادة ايصال رسالته إلى عبادة الله بطريقته ، كامله محتتمه حتى لا نكون هناك فرصة في الاخرى لان يقول هؤلاء . لم نكن نعرف الحقيقة .

لقد خلق الإنسان في الدنيا حتى يختبر ، يقول تعالى في كتابه العزيز : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » (١) وهذا أمر جلي لأنه يعنى أن نهاية هذا الإنسان في الآخرة متوقفة على المسلك الذي يتبعه في حياته ، فإما الجنة الدائمة وإما الجحيم الدائم . ونظراً لما عليه هذا الأمر من أهمية كبيرة فقد أقام الله تعالى للإنسان نظامين معينين لاختياره وتحذيره : الأول أن يضع في فطرة كل انسان الاحساس بالصحيح والخطأ . قال تعالى :

« .. فآلهما فجورها و تقواها » (الشمس - ٨) .

وانشعور بهذه الحقيقة يفرس في الإنسان من أول يوم ولادته :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريبتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » (الاعراف - ١٧٢) .

وهذا الوضع الفطري وضع التكتيك الثنائى ، وهو استمرار تسلسل الرسالة بانتظام حتى يصل علم الحقيقة إلى كل انسان عن طريق العمل الإنسانى مباشرة :

« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد
الرسال » (النساء - ١٦٥) .

وسلسلة النبوة هذه تمضى منذ بدء الحياة . ولم يكن آدم عليه
السلام اول انسان فقط بل كان اول نبي ايضا . وقد تساعت ارادة الله
أن تنهى سلسلة النبوة في القرن السابع الميلادى . وكان محمد ﷺ
(٥٧١ - ٦٣٢ م) آخر الأنبياء المرسلين من عند الله . ولكن فيما يتعلق
بعملية تبليغ الرسالة فهي مطلوبة الآن أيضا منلما كانت مطلوبة من
قبل . ولهذا اختار الله الأمة المحمدية (هو اجتباكم . . الحج) وأرسل
اليها آخر الرسل محمد ﷺ الذى قدم الشهادة الكاملة للدين ، وأصبحت
خلاصة مسئوليتنا أن نشهد شهادة حق على أمم الدنيا تابعين فى ذلك
لنبي وحتى يوم القيامة :

« ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » .
(الحج)

وهذه المهمة ليست مهمة ضمنية بل هى هدف وجود الأمة الاسلامية.
وطبقا لما جاء فى القرآن الكريم فإن تحقيق رسالة الرسول ارتكزت على
ابلاغ الرسالة إلى المخاطبين بطريقة تامة وكاملة وإلا ظلت فريضة
الرسالة ناقصة لم تكتمل :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما
أنت رسالته » (المائدة - ٦٧)

وهذه المسئولية الملقاة على عاتق الرسول هى نفسها المسئولية
الملقاة على عاتق تابعيه ، « . . أنا ومن اتبعنى » (يوسف ١٠٨) وكان
من الضرورى لتحقيق رسالة النبي أن يقوم ﷺ بابلاغ رسالة الهداية
إلى الناس . ومن هنا فإن بقاء الأمة المحمدية كأمة محمدية يرتكز على

قيدها ببلاغ هذه الرسالة إلى الاجيال التالية بعد رسول الله ﷺ .
ولأنفساب إلى الأمة المحمدية إنما هو انتساب قائم على ان نحمل
إلى الناس ما حمته الينا الرسول . وذلك حتى يوم القيامة والواقع
أن الموت على دين آخر غير الإسلام إنما هو بمثابة لقاء انفس في
التهلكة (كل من مات على غير دين الإسلام فهو في النار) والإنسان
لا يجوز أن يدفع فقط إلى المضي على طريق الحق بل يجب ان تعتلج
بداخه الحمية حتى يحاول ان ينقذ أبناء جنسه الآخرين من هذا الخطر !!

ينقل ابن عبد البر (١) عن معاوية بن حيدرة القشيري أن النبي

ﷺ بنعه الدعوة وفي النهاية قال : « مالي أمك بحجزكم عن النار .
إلا وان ربي داعي وانه سألني . هل بلغت عبادي فأقول رب قد
باعت الا فليبلغ شاهدكم غائبكم » (الاستيعاب)

هذه هي أهم المسؤوليات التي يجب على الأمة المسلمة ان تؤديها
بعد أن تقضى على ما بينها من خلافات واختلافات . ينقل الطبراني
عن مسور بن مخرمة فيقول :

« خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال : ان الله بعثني رحمة
للناس كافة ، فادوا عني رحمكم الله ولا تختلفوا كما اختلف الحواريون
على عيسى عليه السلام » .

وكما بعث النبي ﷺ . فإن هذه الأمة المحمدية مبعوثه على
الدوام لتحقيق هذا الهدف . وفي زمان الخليفة الثاني حين انبعث
ربيعي بن عامر إلى بلاط فارس . دار حوار نورد بعضه :

(١) صاحب كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، والاستدكار لمذاهب فقهاء الامصار
وعلماء الاقطار . . وهو من علماء الاندلس وفقهاء المالكية البارزين توفي سنة ٤٧٢ هـ
(واسمه أبو عمر يوسف بن عبد البر بن عامر) . المراجع : .

لقد « قالوا له ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباده العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعواهم إليه » (البداية والنهاية)

وهذه المسئولية مسئولية عالمية لا تحدها أي حدود جغرافية . وقد نقل « صاحب البداية » خطبة مفصلة لنعمان بن مقرن في بلاط كسرى ، وكان قد أجاب على سؤال لكسرى بقوله :

« وأمرنا أن نبدا بمن يلينا من الأمم فندعواهم إلى الإنصاف : فنحن ندعواكم إلى ديننا وهو دين الإسلام حسن الحسن وقبح القبيح كله » . (البداية والنهاية مجلد ٧ ص ٤١)

وكانت هذه المسئولية واضحة تماما أمام الصحابة الكرام ، وفي زمان خلافة الفاروق رضى الله عنه عرض عمرو بن العاص على المسئولين الدينيين بمصر مسئولية الدعوة الإسلامية فقال لهم : « إن الله بعث نبينا إلى الإنسانية برسالة . فأدى النبي رسالته كاملة . وترك لنا منها واضحا من بعده نمضى عليه ، ونبلغ هذه الرسالة الربانية إلى البشرية ، وقد قضى الذى عليه وتركنا على الواضحة » .

(ابن جرير ج ٤ ص ٢٢٧)

إن الهدف الأول لبعثة الرسل هو ابلاغ الناس برسالة الحق في السر والعلن (نوح - ٩) ، فهذا العمل الذى فرضه الله ، أى ابلاغ الرسالة إنما فرض حتى يعرف الناس النظام الذى خلق الله عليه الكائنات ، ونهاية هذا النظام ، وحتى يتعرف الناس على ما فى الغيب قبل حلول الوقت حين ينقلب بساط الدنيا الحاضرة ويتحول الغيب إلى مشهود ويصبح عالم الغيب عالم الشهادة .

ومسئوليتنا فيما يتعلق بهذا الأمر هي ان نطلع الناس على الحقيقة الأخروية ، ونعلمهم أنهم عباد الله . وجدوا في هذه الدنيا ليحاسبوا على أعمالهم .

وتستوجب حكمة الله للناطق أن يقدم الإسلام دائما لغير المسلمين على أنه « أعظم نظام دنيوي » وهذا الأمر واجب . إلا أن الإسلام إذا ما عرض أمام الناس على أنه أعظم نظام دنيوي فقط فإن صورته في أذهان الناس ستقتصر على كونه وسيلة حل القضايا العالمية . وبتعبير آخر سيتصورون الإسلام سفينة النجاة من المتاعب الاقتصادية والسياسية . بينما الحقيقة أن الأنبياء بعثوا أساسا ليرشدوا الناس إلى طريق النجاة من العذاب السماوي . . وكما يقول القرآن . .
فإنه سبحانه : « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » .
(غافر - ١٥)

وتتمثل الصورة النهائية لمهمة التبليغ هذه أن يقبل المخاطب الدعوة وأن يعيش حياته طبقا لها . إلا أن الصورة النهائية لمهمة الداعي هي أن يقوم بإبلاغ كلامه إلى الناس إلى آخر حد ، وأن يوضح الحقيقة للناس حتى لا يكون أمامهم مجال للاعتذار أو التأويل ، وهكذا كان المعيار الخاص باتمام حجة الأنبياء هو وصول كلامهم إلى الناس بطريقة كاملة مكتملة ، وألا يتعرض المخاطبون لأمر معقدة شاقة أو متعبة .

فجميع الأمم التي ورد ذكرها في القرآن ، والتي لم تستمع إلى رسالة الأنبياء فاستحقت العذاب لما ارتكبتها من عصيان ، كانت هذه الأمم التي بلغ الأنبياء إليها الرسالة عن طريق الوعظ والارشاد . بكل الوسائل الممكنة ، وقد ورد التعبير عن هذا الأمر في القرآن بالفاظ

مختلفة تعنى كلها « لتعريف والابلاغ » مثلا : آية الصدع بالأمر (١) (الحجر - ٩٤) ، وتبيين الذكر (٢) (النحل - ٤٤) ، والاعلام بالوحي (٣) (الأنبياء - ١٠٩) وابلغ الرسالة (٤) (الأعراف - ٧٩) وتخص الآيات (٥) (الأعراف - ٣٥) وقراءة الآيات (٦) (الإسراء ١٠١) وتلاوة للكتاب (٧) (العنكبوت - ٥١) والإنذار والتبشير (٨) (سبأ - ٢٨) والفداء للإيمان (٩) (آل عمران - ١٩٣) والدعوة إلى الإسلام (١٠) (الصف - ٧) وتبليغ ما أنزل الله (١١) (المائدة ٦٧) والتذكير بأيام الله (١٢) (إبراهيم - ٥) وغيرها .

ويروى البيهقي عن المغيرة بن شعبه أن النبي ﷺ عرض دعوته ذات يوم على أبي جهل ، فقال أبو جهل :

« يا محمد !! هل أنت منته عن سب آلهتنا . هل تخشى ألا نشهد أنك قد بلغت ، فنحن نشهد أن قد بلغت » .

وأشهد النبي ﷺ أصحابه عدة مرات على أنه قد بلغ الرسالة الإلهية بطريقة كاملة لأبي جهل ويروى الإمام أحمد عن ثعلبة بن عباد العبدي أنه وقف يخطب فقال بعد أن حمد الله :

يقصد المؤلف قوله تعالى أنا :

- ١ - ناصدع بما تؤمر .
- ٢ - وانزلنا اليك لتبين للناس .
- ٣ - قل أنا يوحى الى أنا الهكم اله واحد .
- ٤ - لقد ابلغتكم رسالة ربي .
- ٥ - يا بني آدم أنا بآيتنكم رسل منكم يسمون عليكم آياتي .
- ٦ - ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات .
- ٧ - أولم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم .
- ٨ - وما أرسلناك الا كافة للناس بشرا ونذيرا .
- ٩ - ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا .
- ١٠ - ومن اظلم ممن اتقى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام .
- ١١ - يا ايها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وما تنزل اليك من ربه .
- ١٢ - وتكلمهم بآيات الله المرجع ١

« يا أيها الناس أنشدكم الله ان كنتم تعلمون أنى قصرت عن شىء من تبليغ رسالات ربي عز وجل لما أخبرتمونى ذلك قال : فقام رجال فقالوا : نشهد أنك قد بلغت رسالة ربك ونصحت لأمتك وقضيت الذى عليك » .

فالداعية يبدأ عمله بهذه العاطفة وينبغى أن يسمع الناس كلامه إلى آخر مدى مع مراعاة جميع مستلزمات الحكمة والخير .

وما تقع من أحداث بعد ذلك خلال هذه المهمة لا تتعلق أصلاً بعملية التبليغ ، بل تتعلق بأولئك الناس الذين تقع عليهم الشهادة والتبليغ ويظل هكذا حتى يفارق الحياة . ومن الممكن أن تسلم إحدى شخص خاص لعملية التبليغ ذاتها ، فمن الممكن أن يقوم الداعى بالنداء والتبليغ ويظل هكذا حتى يفارق الحياة ، ومن الممكن أن تسلم إحدى أهم شخصيات العصر فينتشر دين الله بسبب إسلامهم ومن الممكن أن يتنازع مع المخاطبين ، وقد يتحد هؤلاء مع السلطة ويتآهرون - معا - للقضاء على حركة الدعوة ، فإله تبارك وتعالى يبدل ويغير فى الظروف بحيث تنتصر القافلة الأولى من الدعاة أو من يلونهم ، ويمكنون فى الأرض ، ثم هناك صور مختلفة للتمكين فى الأرض ، فمن الممكن أن يكون الأمر مجرد غلبة سياسية ، ومن الممكن أن تنال حركة الدعوة تعاون المخاطبين على نطاق واسع حتى يوجد هؤلاء وأولئك مجتمعاً منظماً على أساس الإسلام ... جميع هذه الصور يمكن حدوثها ولكل منها أمثلة فى سير الأنبياء أثناء كفاحهم وجهادهم من أجل دعوة الحق ، إلا أنها كلها لم تتضمن شرط الانتصار العامل والتمكن فى الأرض . فإداء الشهادة أو القيام بالدعوة هو ببساطة دعوة الناس إلى رسالة

الله على ان تتوفر في عملية الدعوة جميع شرائط « النصح » (١) (الأعراف — ٦٨) ويتوافر فيها أيضا « القول البليغ » (٢) (النساء — ٦٣) ومهما كانت عوائق طريق الدعوة فإنه من الواجب مواجهتها بحيث تستمر الدعوة ولا تتوقف . مهما حدث بعد ذلك وكان المطلوب بالنسبة للداعى أن يبلغ رسالة الله إلى آخر حد ، وإلى آخر عمره ، وبقيّة الأحداث هي أمور يتعرض لها المدعو ، ومن الواضح أن لا يمكن وضع فهرس محدد لها ، كما أن الفروق الواضحة في نوعيتها تؤكد لنا أنه لا يمكن أن يحكم على عمل الداعية بالنجاح أو الفشل أو بالكمال أو النقص .

والأمر الثانى فى هذا الموضوع هو أن نشاط الدعوة الذى يقدم لغير المسلمين لا يستوجب ان يقدم لهم الدين كله دفعة واحدة فى وقت واحد ، بل الصحيح أن يرشدوا (أولا) إلى التعاليم الأساسية للدين : (تصور الله) (تصور الرسالة) (تصور الآخرة) وتلك هى الأمور التى توضع أولا أمام المخاطبين من غير المسلمين ، ثم يوضح لهم الإسلام من خلال هذه الجوانب المختلفة المسلسلة ، فاذا ما حدث ارتباك فى فهمهم وجبت محاولة إزالته بلا استدلال القاطع المؤثر ، فاذا ما وافقوا على ما قدم لهم وآمنوا بالإسلام ، تقدم لهم الأحكام التى قررها الله لعباده المؤمنين . ولقد أرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل ليدعو أهل اليمن إلى الإسلام فقال له أنتك ستقابل جماعة من أهل الكتاب فإدعهم أولا إلى كلمة التوحيد (فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة أن لا إله إلا الله) وحين يؤمنون بها علمهم تدريجيا الصلاة وأعمال الشريعة الأخرى .

يقصد قوله تعالى

١٠. ابلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين .

١٢. أولئك الذين يظلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظمهم وقل لهم فى انفسهم

« فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لمعاد بن جبل رضى الله عنه حين بعثه إلى اليمن ، إنك ستأتى ثوما أهل كتاب • فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن أطاعوا لك بذلك فآخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة فإن أطاعوا لك بذلك فآخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن أطاعوا بذلك فإياك وكرائم أموالهم » (البخارى) •

إن هذا هو السبب فى الحكمة الالهية التى قضت بأن تقدم التعاليم الأساسية للأنبياء فى مرحلة الدعوة الأولية ، وأن يستمر الأنبياء فى تبليغها لفترة طويلة إلى الناس ، وبعدها وطبقا لظهور حالات عملية نزلت الإرشادات التفصيلية بما يتوافق مع هذه الحالات والظروف ، ولم يحدث أبداً أن جاء نبي إلى أمة ما فقام بوضع أسس نظام اجتماعى وحضارى كامل فى المرحلة الأولى ، وقدمه للناس وطلبهم بأن يقيموا دولة اسلامية وأن ينفذوا ويطبقوا فيها جميع القوانين التى صدرت فيما يتعلق بجميع فروع الحياة •

ان الأحكام المذكورة فى الحديث السابق كانت قد نزلت كلها فى ذلك الوقت إلا أن الرسول ﷺ أخبر لداعية ألا يقدمها للناس دفعة واحدة بل عليه أن يقدمها للمدعوين تدريجياً طبقاً لظروفهم ، ويفهم من هذا أن الأحكام كما نزلت أولاً بطريقة تدريجية فإن التدرج فيها مطلوب بعد نزولها أيضاً ، وترتيب ضرورتها هو دائماً قائم على ترتيب نزولها ، وليس الأمر كما يفهم بعضهم — أنها نزلت تدريجياً فى البداية (أولاً) ثم أنها بعد نزولها قد نسخ العمل بها تدريجياً — عند اقتضاء ذلك — وأصبحت مطلوبة فى كل حال بصورة كلية لا بصورة تدريجية ، حتى ولو كانت الظروف النفسية والاجتماعية توجب التدرج والعمل المتأنى !!

الأركان الأربعة

بعد الإيمان . توجد أربعة أشياء في النظام الإسلامي تمثل « أركانه » : الصوم ، الصلاة ، الزكاة ، والحج ، وهذه الأشياء الأربعة من ناحية حقيقتها المعنوية هي الأجزاء الأربعة التي تجتمع معاً فتكون بوجودها الكلي المجموعة التي يطلق عليها الإسلام . فالصوم اسم للسمو عن العالم المادي حتى يتمكن الإنسان من ربط نفسه مع الله . وروح الصلاة هي ذكر الله ، وحقيقة الزكاة الإيثار . وهذا الجزء من الإسلام كأنه الخلاصة التي يعبر عنها باسم الأخلاق والمعاملات أو حقوق العباد . وأصل الحج هو للتضحية في سبيل الدعوة الالهية (Mission) . وهو عهد على تجديد حياة الدعوة التي قام بها أعظم دعاة الحق إبراهيم عليه السلام . وهذه الأركان الأربعة هي من الناحية الاعتبارية علامات للأجزاء الأربعة الأساسية ، ومن ناحية أخرى فهي تجهز الإنسان وتعدده للإسلام حتى يستطيع أن يتبع الإسلام في حياته بطريقة كاملة شاملة .

ومع أن كل عبادة من عبادات الإسلام تحمل روحاً خاصة إلا أن تركيب العبادات قد وضع بشكل يجعلها وسيلة للحصول على المقاصد الفرعية الأخرى مع استكمال الهدف الأصلي — وفي هذا الأمر فإن مثل الإسلام كمثل جسم الإنسان فلكل عضو وظيفة انفرادية منفصلة إلا أنه — أي العضو — مع هذا يرتبط مع الجسم بطريقة لا يمكن معها فصله عن بقية الأعضاء .

١ — وهناك جانب آخر يتمثل في أنه مع الفرق في الصلاحيات فإن لكل منها نصيباً محدداً في الفائدة والعمل . فمثلاً صلاحية الصوم

والصلاة إن لم تصل بكل منهما إلى مقام « الاقتراب » (١) (العنق) فيجب الوصل على الأقل إلى مقام التقوى ، هذا بينما الصلاة جعلت لتنتهي عن الفحشاء والمنكر (العنكبوت — ٤٥) ، وللصوم طبقاً لما جاء في الحديث يعمل على تربية الفرد ومنعه من قول الزور والفسق هذا لأن الصوم يبدأ في تكوين جبهة قوية في مواجهة الحملات الشيطانية .

٢ — وقد وضع نظام كل عبادة لتؤدي هدفها للانفرادي الخاص: مع اتصالها وارتباطها ببقية العبادات ارتباطاً شديداً قويا ، وعلى سبيل المثال فهدف الحج الأساسي أعداد الإنسان لحياة الدعوة ومع هذا فقد وضع بشكل يمكن الإنسان من أن ينال نصيباً من المحبة الالهية ، وتذكر الآخرة أثناء زيارته للاماكن المقدسة . وأداء مناسك الحج ، فبعد أداء فريضة الحج يعود الإنسان طاهراً مطهراً ، ويكون مهيباً بطريقة أفضل لبدء حياة دينية على مستوى أطيب .

٣ — وقد وضعت كل عبادة — أساساً — لتربط العبد بربه بطريقة ما ، ومع هذا وضعت وشكلت بحيث تكمل للمستلزمات الأخرى للحياة، أو على الأقل تكون محركاً طيباً ودافعاً قويا ، وعلى سبيل المثال فعن طريق صلاة الجماعة أو الاجتماع العالمي للحج يقوى اتحاد المسلمين ويزدهر ، كما أن في الصوم فوائد لصحة الجسم ، وعن طريق الزكاة ينصلح النظام الاقتصادي وهكذا .

الصوم :

والصوم أو الصيام هو من ناحية حقيقته يتلخص فيما عبر عنه القرآن الكريم بعبارة « تبئل إلى الله » (٢) (المزمل — ٨) أي الزهد

(١) يقصد المؤلف قوله تعالى : « واسجد واقترب » .

(٢) يقصد المؤلف قوله تعالى : « وانكر اسم ربك وتبئل اليه تبئلا » .

والتعفف ، والصوم فرض أساسي ، وهو كبقية أكثر الأعمال شرع في العهد المدني في السنة الثانية للهجرة ، وكان الصوم موجوداً قبلاً بشكل من الأشكال ، قامت عائشة رضي الله عنها : إن قريشاً كانت تصوم يوم عائوراء في الجاهلية ، وكان رسول الله ﷺ يصوم هذا اليوم أيضاً « صحيح مسلم » وحتى أنه قبل بعثته عليه السلام كان يصومه أثناء قيامه في غار حراء ، فالصوم عبادة مقررة قبلاً وقد دخلت الحياة الإسلامية أيضاً .

ومن المعروف أنه عندما شاءت قدرة الله أن يحمل موسى عليه السلام كتاب الله ، أمره جلت قدرته ان يذهب إلى الطور وان يعتزل الناس ويبقى هناك ، ليقضى حياته في الصوم والعبادة ، وهناك قضى موسى عليه السلام أربعين يوماً متواصلة على هذه الحال ، وبعد ذلك جاء الوقت الذي كلم الله فيه موسى . . . قال القرآن .

« ولما جاء موسى ليقاننا وكلمه ربه » (الأعراف - ١٤٣) .

« والمسيح عليه السلام قد صام أربعين يوماً قبل بدء نبوته » .

(دائرة المعارف اليهودية)

ونزل عليه الإلهام بعد ذلك في شكل المواعظ الجبلية التي وردت في الإنجيل ، وهكذا وقبل بعثة نبي آخر الزمان ﷺ ، كان يذهب إلى غار حراء بالقرب من مكة ، حيث يقوم هناك يعتزل الناس ، ويقضى وقته في العبادة والفكر والتفكير ، وهكذا وبعد حياة طويلة من « التحنث » جاء الوقت الذي نزل عليه فيه جبريل وبلغه كلام الله .

ويستخدم لفظ « الصوم » في الشريعة من صام يصوم ومعناه

الامتناع عن الحركة والمشى والكلام والطعام والشراب ، والخيل الصائم يطلق على الخيل التي أوقفت بعد حجب مصدر الماء عنها ، ولهذا

يطلق على شهر رمضان « شهر الصبر » . وقد أخبر حارث بن مالك رسول الله ﷺ بخبر صومه فقال : « عزفت عن الدنيا واظمات نهاري » والصوم من ناحية ملامحه الظاهرة هو اسم للامتناع عن الطعام والشراب من الصباح حتى المساء . إلا انه من ناحية حقيقته الجوهرية يعنى انقطاع الإنسان بنفسه عن علائق الدنيا . وأن يقتصد في كل ما يفيد في حياته من الناحية المادية . وأن يقلل من كلامه ومن لقاءاته ومن نومه ومن كل المستلزمات البشرية : أى يقلل معاملاتة في كل شيء حتى إنه في الأيام الأخيرة من شهر رمضان يعتكف ويقطع علاقته بكل هذه الأشياء والاعتكاف يعنى انقطاع الإنسان عن الاشتغال بالخلق حتى تتيسر له فرص الاشتغال بالحق ، وهذا أمر مطلوب من المسلم طوال حياته ، وقد تم التعبير عنه في الحديث بكلمة « الزهد » (أى الزهد في الحياة) ، وفرض هذا الأمر في شكل الصوم في شهر رمضان . والأيام الأخيرة من هذا الشهر تمثل شكلاً كلياً للانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى وهو أمر مطلوب لدرجة كبيرة ، مهدت له أيام الشهر الأولى بطريقة جزئية .

فما هي الفائدة المرجوة من هذا الصوم ؟! والاجابة تتلخص في أن الجانب المادى للإنسان جانب ضعيف وعليه فيجب زيادة الجانب الروحى . حتى يتمكن من الاتصال بالعالم القدسى . فهدف الصوم ايصال الغذاء المعنوى للروح في مواجهة الغذاء المادى للجسد ، فالإنسان ، في آن واحد ، مجموعة للحالتين معاً ، المادية والروحية وهى ما يعبر عنها علماء النفس في الوقت الحاضر بكلمة الذهن (العقل) Mind ، فالجزء المادى في الوجود الانسانى ضرورة حتمية فبدونه لا يمكن للإنسان أن يؤدي واجباته في الحياة الدنيا ، إلا أن الروح لازمة مع الجسد ، وهو ما يطلق عليه بالمصطلح النفسى الجديد الذهن

(العقل) ، وأن يبقى هذا الجانب على مكانته المجردة بأكثر ما يمكن، وأن يطور بقدر الامكان وجوده للمادى حتى يتمكن من الوصول إلى شفافية الحقائق غير المادية .

فحين يخرج الإنسان نفسه من الحياة المادية ويربط نفسه بالعالم الروحانى يشعر بطريقة محيرة أن باباً جديداً من أبواب الحقيقة قد انفتح أمامه فيبدأ في رؤية جميع الحقائق التى لا يمكنه أن يراها نتيجة لاختفائها داخل الغلاف المادى ، ويصل إلى مرحلة سامية هى نفسها المعراج الأخير للإنسان :

« ما زهد عبد في الدنيا إلا أنبت الله الحكمة في قلبه ، ولتطلق بها لسانه وبصره عيب الدنيا وداءها ودواءها وأدخله سالماً إلى دار السلام » (المشكاة) .

وهناك دليل لمنهج السلوك ، حين يعبر الإنسان من هذا الغلاف المادى عبوراً يتجاوز فيه مرحلة بعد مرحلة ، فيتجلى له عالم الحقائق واضحاً شفافاً تماماً :

« تعبد الله كأنك تراه » (البخارى) .

والنبوة هى آخر درجات هذا الرقى ، والإنسان العادى يصل إلى مقام عبودية الله كأنه يراه بعد أن تسمو روحه ، والفرق بالضرورة بين الاثنين هو أن الرسول - لأنه مختار ومصطفى من الله ، فإن جميع حجب العالم القدسى تنكشف أمامه ، وتصبح تعييناته القدسية ظاهرة تماماً بثكلها الأساسى ، حتى تصبح جزءاً من شعور النبى نفسه ، ويصبح النبى فى موقع يقول فيه : « أنا أعرف أننى أعرف » بينما الإنسان العادى لا يمكن أن يصل إلى هذا المقام أبداً نتيجة لعدم اصطفائه من الله سبحانه صاحب الحق فى هذا الاصطفاء ، ولا يكون

الاتصال بينه وبين العالم القدسي اتصالاً قطعياً أو شعورياً كما هو الحال بالنسبة للنبي .

وهذه هي حكمة الصوم التي وردت عنها في القرآن هذه الآية الكريمة ضمن أحكام الصوم :

« وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . (البقرة - ١٨٦)

والنبي - نتيجة لمقام الاصطفاء - يرتبط مباشرة بالله عن طريق الملك (جبريل) . والقرآن هو لبقية النفس أنزله الله بواسطة جبريل ليحمل التوجيهات الأخرى من السماء . . . والأنبيااء حين يصومون يطهرون روحهم أو ما يعرف بالمصطلح الحديث ذهنهم من تلوثات الماديات فينزل عليهم وحى الله (بواسطة جبريل) فيبلغهم مباشرة كلام الله ، والناس الآخرون يجدون الله عن طريق القرآن . وحياة الصوم بالنسبة لهم حياة ضرورية حتى يدركوا القرآن ومع أن للقرآن موجود لدينا الآن (ما بين الدفتين) في شكل وحى متلو إلا أنه « ينزل » على قلب معين في الوقت الذي يعيش فيه صاحب هذا القلب حياة الصوم والتبشّر فيصبح مؤهلاً من الناحية الروحية لأن يكون مهبطاً للقرآن .

ان فرض الصوم في شهر نزول القرآن (البقرة - ١٨٥) (١) إشارة إلى هذا الأمر ، وهو أن الصوم جعل ليؤهل الإنسان ليكون حاملاً للقرآن .

وكما كان النبي ﷺ يصوم أثناء خلوته بغار حراء ليصبح حاملاً للقرآن ، فبالمثل يجب على المسلمين المؤمنين ان يصبحوا أهلاً للقرآن وإلا صاروا كالحمار يحمل اسفاراً (٢) (الجمعة - ٥) لأن القرآن

(١) بتعمد المؤلف قوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس » .

(٢) بتعمد المؤلف قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل

الحمار يحمل اسفارا » .

لن يعبط على قلوبهم - لأن للقرآن صدى قانون الكائنات . وكتاب
الفطرة : فاذا ما غاص فيه أحد إلى أعماقه وراح يقرأ القرآن بوعيه
وبقلبه بدأ صوت القرآن يصل اليه منسأباً في داخل كل ذرة من ذرات
كيانه حتى يأتى عليه وقت يصبح القرآن وفطرته الانسانية معاً شيئاً
واحداً :

« بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » .

(العنكبوت - ٤٩)

وقد نزل حكم الصوم في شهر نزول القرآن . وقال تعالى وهو
يصدر أمره بالصوم :

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . (البقرة)

إن أولى حاجات الانسان الضرورية هي الطعام والشراب ومن
هنا فإن منع الطعام والشراب يكون من الناحية الشكلية سبباً في وجود
« عسر » أما من الناحية الجوهرية فهذا الحكم يكون سبباً في وجود
« عسر » للانسان الذي سيطرت عليه المادة أو الجانب المادي فانه
تبارك وتعالى يقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »
وبطريقة غير مباشرة يتضح - بالنظر الى الحاجة المادية للانسان -
أن الصوم هو على كل حال يكون باعثاً للعسر فلماذا اذن يقال له
« يسر » !

« فاليسر » في اللغة العربية معناه السهولة . والهدف منه أن
يطلب من الانسان عمل ما يسهل عليه تنفيذه وعلى سبيل المثال
فالاستعداد للحرب يقال له : تيسر للقتال : والآية القرآنية السابقة
تعنى أن للصوم إنما هو صعب عليكم في الظاهر ، إلا أن الله لا ينتفد

إذا ما أصابتكم مشقة ، فالأصل هو أن تتحقق لكم الحاجيات المادية طبقاً لحكمه ختكم . إلا أن الوصول بكلام الله إلى مستوى روحى حقيقى يستلزم أن تتركوا هذه المادية إلى حد ممدن ولأيام مقرر ، وأن تعملوا على الترقى والسمو بوجودكم الروحانى لتصبحوا جديرين للانطلاق من جميع الحجب المادية ، لتصبحوا بالتالى جديرين بتلقى كلام الله .

هذه هى الصلة الموجودة بين القرآن والصوم وللتى — طبقاً لها — فرضت على المسلمين حياة الصوم فى شهر نزول القرآن .

وفى شهر الصوم لا تقضى « حرارة الاططار » على أهداف الصوم بل ان هذا الأمر — أى معاناة الانسان بالجوع والعطش لا علاقة له مطلقاً بأهداف الصوم الحقيقية ، إذ أن معاناة الانسان بالجوع والعطش وقيامه « بختم » القرآن كل يوم وغيرها من أعمال العبادات، انما يصل بهذه العبادة الاسلامية الخالصة إلى مقام الرهبانية النصرانية، وهكذا فان ما يقوم به المسلم فى شهر الصوم والذى قيل له خطأ « الذكر بالجهر للسانى » إنما هو أمر يتناقض مع التخلية الروحانية الهدف الأسمى للصوم ، فالهدف الأسمى للصوم هو أن يفرغ الانسان نفسه من الطعام بالاضافة إلى جميع الأمور الضرورية الأخرى : الكلام ، اللقاءات ، الذهاب والمشى ، الجدال والصياح ، فعليه أن يقطع صلته بمثل هذه الأشياء ، وبجميع أنواع المشاغل الدنيوية فهو يقضى حياة هادئة لفترة من الوقت يتفرغ فيها للعبادة فقط ، ولذكر الله ولقراءة القرآن بتدبر وتفكر وترك الطعام هو فى الحقيقة علامة ، فتترك المجرمات أمر واجب على الانسان وهو كالصوم . إلا أنه يعيش فيه طول حياته حتى يوم القيامة ، وهكذا وفى أيام خاصة يقطع الانسان

علاقته حتى بالمباحات ، فيصوم ويقطع كل صلة له بكل شيء ، إلى حد
الامكان ويحاول أن يكون قريبا من الله .

والصوم وان كان امرا مطلوباً لمرة واحدة في السنة بشكله الخاص
المحدد . إلا ان الروح الاصلية التي تتولد من خلال الصوم ، هي امر
مطلوب دائما من المؤمن . وهو الانقطاع إلى الله ليس من الناحية
الجسدية فقط بل من الناحية الحسية ، فرفع درجات الايمان هي لن
يكون للانسان متجها إلى ربه بقية وبروحه دائما مهما كان مشغولا
بأي عمل بشكل ظاهري . اذ يضع نفسه بصورة دائمة داخل نوع من
انواع الاعتكاف الروحي . وقد كان عدم فهم الناس لهذه الحقيقة
سببا في الانعزال عن العالم والبقاء داخل صوامع أو الذهاب إلى
أماكن بعيدة داخل الغابات أو غوق الجبال . وفهمهم هذا على أنه هو
كمال الإيمان . بينما كمال الإيمان هو أن يقوم الانسان بأداء واجباته
وسط مشاغل الحياة ومشاغل الدنيا إلا أن ذهنه يكون منشغلا
(معتكف بذكر الله) .

فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : أنتم أكثر صياما وأكثر صلاة
وأكثر اجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا خيرا منكم .
قالوا لم يا أبا عبد الله ؟ قال : هم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في
الآخرة . (حلية الأولياء - ج ١ ص ١٣٦)

الصلوة :

حقيقة الصلاة الجوهرية هي الذكر (١) (طه - ١٤) والذكر
والتذكر يقال ذكرته فنذكر ، فالله يريد من عباده أن يتذكروه ويتذكروا
عظمته ، وحكمته ، وخلقته وملكه مرة بعد مرة ، ولكي يخلق الله هذه
الحالة عند عباده فرض عليهم الصلاة .

(١) بقصد توبة تعالى : ، والله الصلاة للذكرى (المراجع) .

ويقول القرآن الكريم أن جميع مخلوقات الكون تسبح للخالق دائماً : « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » (١) ، ولقد سلمت الخلافة لآدم وصدر حكم للملائكة أن يسجدوا له فقالوا اننا نسبح بحمدك ونقدس لك دائماً : « واذ قال ربك للملائكة انى جعل فى الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون » (٢) .

يفهم من هذا أن استحقاق الخلافة يستوجب من وجهة نظر الملائكة ان يكون للخليفة منشغلاً على الدوام بتسبيح الله ، وطبقاً لرواية البخارى فإن حكم الصلاة الذى صدر فى المعراج كان شاملاً لخمسين صلاة ، ومن الواضح ان اداء خمسين صلاة فى مدة أربع وعشرين ساعة يستوجب قضاء اليوم كله تقريباً فى الصلاة ، ثم خفضت الصلوات لتصل إلى خمس صلوات فقط ، وكان المطلوب هو « صلاة خمسين وقتاً » إلا أنها خفضت لتكون لخمسة أوقات فقط .

والصلاة هى اعتراف من جانب العبد بربوبية الرب ، وهناك جوانب عديدة لا تحصى لهذه الربوبية ، وتتنضح سماتها على الانسان بأشكال لا تحصى و لا تعد ، حتى أن الانسان اذا استمر دائماً فى حالة الذكر فلا يمكنه ان يؤدى لله حقه (ما عبدناك حق عبادتك) فما بالكم لو انشغل بالذكر انشغالا جزئياً وليس كلياً ، فالحقيقة أن انشغال المطلوب أساساً هو أن يظل الانسان مصلياً أمام الله فى جميع الأوقات، إلا أن الله تبارك وتعالى قد أصدر حكمه لعباده برحمته الخاصة مراعيًا المصالح المختلفة لهم فأمر عباده بالصلاة لخمس ، على أن ينشغلوا ببقية أوقاتهم بصلاة غير محددة ، فالصلاة عبادة فرضت فى أوقات

(١) الانبياء - ٢٠ .

(٢) البقرة - ٢٠ .

مقررة ومحددة « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (١) ،
ومع هذا قيل إن هدف الصلاة هو الذكر « وأقم الصلاة لذكري » (٢)
حتى قيل أن الذكر هو أعلى مراتب الصلاة « ولذكر الله أكبر » (٣) ،
غذا ما قرأنا تلك الآيات على ضوء هذه الحقيقة التي صدر فيها أمر
بذكر الله في جميع الأحوال المختلفة للحياة اتضح لنا هذا الأمر وهو
أن الصلاة ببيئتها الخاصة فرض يتم كل خمسة أوقات إلا أنها من ناحية
معناها للحقيقى مطلوبة كل وقت متى حين يكون الانسان مشغولا بأعماله
الدنيوية الخالصة :

• « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » (٤) .

والصلاة بمفهومها الواسع هذا يشير إلى ما جاء في القرآن من
بيان وتعريف كان أهل الجنة اذ هم مشغولون دائما بالصلاة :

• « إلا المصلين الذين هم على صلواتهم دائمون » (٥) .

فانصلاة الدائمة أو الذكر الحقيقي هو ما يرد على لسان الإنسان ،
وليس تكرار الألفاظ للموضوعة . فحين يدرك الإنسان أسمى وأعلى
الحقائق فإن وجوده الكلي يغرق في حالة (كيفية) ربانية خاصة ،
وما يرد على لسانه من كلمات - في ذلك الوقت - يناجى بها ربه -
يقال لها « ذكر » وفي الحديث ، يشعر في ذلك الوقت بأنه يرتع في
الجنة : (من أحب ان يرتع في رياض الجنة فليكثر من ذكر الله)
(أخرجه الطبراني عن معاذ بن جبل) .

(١) النساء - ١٠٣ .

(٢) طه - ١٤ .

(٣) العنكبوت - ٤٥ .

(٤) التيسور - ٢٧ .

(٥) المسارج - ٢٣ .

وقد قسم القرآن الصلاة قسمين . الأولى صلاة الخشوع (١) (المؤمنون - ٢) والثانية صلاة السهر (٢) (الماعون - ٥٥) ، فالنوع الأول من الصلاة بشر أصحابها بالجنة ، بينما الصلاة الثانية لا غائدة لها ولا تفيد المحلين أنفسهم ان ام تكن خارة بهم . جاء في الحديث ان الرسول ﷺ دخل المسجد النبوي فجاء رجل فصلى ثم قدم إلى الرسول فقال له الرسول : ارجع فصل فإنك لم تصل . *

وجاء في رواية :

« اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » (رواء مسلم عن أبي هريرة) . *

والفرق بين الصلاتين ليس فرقا من الناحية الشكلية أو الظاهرية في أداء مراسمها الخارجية بل من الناحية الكيفية أو الجوهرية التي يؤدي بها الشخص الصلاة فصلاة السهو هي الصلاة التي يؤديها الشخص بلا شعور ، فالانسان يؤدي أركان الصلاة بشكل ما ، دون أن ينال أى قسط من كفيات الصلاة ، يقول أنس رضى الله عنه : إنه سمع النبي ﷺ يقول : هذه صلاة المنافق يجلس يشاهد الشمس ، حين تصغر الشمس وتصل إلى مفرق قرنى الشيطان يقف ويصلى أربع ركعات كنقر الدجاجة تخلو من ذكر الله (٣) . *

وصلاة الخشوع هي صلاة مليئة بالهيبة ومليئة بالكيفيات . يقول عقبة بن عامر إن النبي ﷺ قال : من توضأ بطريقة طيبة ثم وقف فأدى ركعتين فيهما اتجه قلبه ووجهه كلاهما إلى الصلاة وجبت له الجنة « (٤) . *

١١- يشهد المؤلف قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون »

١٢) يشهد المؤلف قوله تعالى : « نويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » .

(٣) رواء النسائي .

(٤) رواء مسلم .

ومكذا يروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن الرسول قال :
« من توحش وضوئى ثم يصلى ركعتين لا يحدث فيهما بشيء غفر له
ما تقدم من ذنبه » (متفق عليه) .

وحين ينتسئ الانسان بعمل هو مغرم به وله جاذبية خاصة عنده ،
فإنه ينجذب اليه بطريقة ينسى فيها كل ما حوله ، وكل من حوله ، وهذا
هو الأمر المطلوب فى الصلاة ، فرفع اليد فى بداية الصلاة علامة على
أن المصلى الآن يترك كل ما حوله ، ويدخل فى دنيا أخرى ، وهو يغرق
ويثوب فى تسبيح ربه وفى مناجاته له وفى دعائه له حتى تنتهى مراحل
لقاء العبودية بالربوبية تماما ، وبعد أدائه للصلاة يلتفت يمينا ويلتفت
يسارا ليقول السلام عليكم ورحمة الله ، وهذا يعنى أنه يخرج نفسه
من دنيا ليعود إلى الحالة التى كان يعيش فيها قبلا ، وهو يسلم
على الحاضرين .

لقد قسم الفقه الصلاة إلى أقسامها ، فقسدها إلى فرض وواجب
ومندوب ومستحب وسنة ونفل ومؤكدة وغير مؤكدة ، إلا أنه فى دنيا
الحقيقة لا يوجد للصلاة مثل هذا التقسيم ، فاذا قام شخص بقياس
واحصاء أقسام الصلاة طبقا للتصنيف الفقهي الخالص فإنما هو
يؤدى بذلك صلاة « كمبيوتورية » لا « صلاة انسانية » فالكمبيوتر يمكن
ان ينقل تماما الصلاة المقننة ، إلا أن صلاة الانسان هى اسم لعواطف
ومشاعر وأحوال لا يمكن أبدا أن تصنف داخل خانة احصائية أو
اطارات تقنية ، ولا يمكن أن يعبر عنها بألفاظ القانون .

إن مراعاة الأشكال والهيئات الظاهرة للصلاة جاء التعبير عنه فى
القرآن بالمحافظة على الصلاة (المعارج - ٣٤) ، فالشرط الأول للصلاة
أن يدخل الانسان إلى دنيا الصلاة فى ظل هذه الأشياء ، وما يطلب
من الانسان يمكن أن ينقسم إلى درجتين :

الأولى : السجود في الصلاة . والسجود علامة على سجد
للإنسان أمام ربه في الحياة العملية . ولهذا قال القرآن : « إن الصلاة
تنهى عن الفحشاء والمنكر » (١) .

وفي القرآن قيل لأحد الأنبياء حين دعا قومه لعبادة الله : غنبيوه :
هل تقتضى الصلاة أن يتركوا حياتهم العملية وأمورهم الاقتصادية
ويأتمروا بأحكام الله :

« يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل
في أموالنا ما نشاء » ؟ (هود - ٨٧) .

والسجود والركوع في الصلاة هو كقولك لله : يا سيدي لتأمرني
بما تشاء ، فسوف أنفذ أوامرك ، ولهذا جاء في النصوص ما يفيد أن
من يتبع الشهوات مع الصلاة فصلاته خالية من روح الصلاة ذاتها .
والدرجة الثانية وهي أعلى الدرجات هي أن يصبح ذكر الله جزءاً
من نفسه ونفسياته فيحلق ذكر الله فوقه ويحيط به حتى يصل بذلك
إلى مرحلة الشهود وتطراً عليه حالة الحضور :

« واسجد واقترب » .

وما جاء في القرآن من ذكر « لمقام اليقين » قال عنه البعض إن
الصلاة هي المقصودة بالمقام الأعلى .

« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (الحجر - ٩٩) .

وليس المقصود من « حتى » هنا هو حد الانتهاء من الصلاة بعد
الوصول إلى مقام اليقين ، ثم نبدأ بعد ذلك صلاة أخرى . . . إذ كيف
يمكن أن تنتهي الصلاة ؟! هذا في الأصل إيضاح لانتهاء كيفية الصلاة
وليس لانتهاء صورة الصلاة .

(١) العنكبوت - ٤٥ .

ترى ما هو الاقتراب أو مقام اليقين ؛ إن هذا لا يمكن التعبير عنه بالالفاظ ، فحين يصل الانسان إلى هذا المقام يشعر وكأنه يرى حقيقة غير مرئية بيقين كامل ، وأن شيئاً ما يتراءى له من بعيد إلى أن يصبح قريباً جداً . وينشغل للعبد في حديث ناجح دون وجود مخاطب وتعتلج بداخله عواطف المحبة ، أعظم محبة ، وأقوى محبة لتحقيق أمر مهيب لا يصل إلى هيئته أمر آخر . أمر لا يمكن أبداً أن يسعر به بأية وسيلة أخرى ، فهو يصل إليه بدون وسيلة ما أو واسطة .

والسجود الذى هو منتهى الاندماج فى الصلاة هو منتهى حالة القرب من الله ، وهو بعيد كل البعد عن « وحدة الوجود » ذلك المصطلح الذى أطلق - فى شكله الأول - غالباً - للتعبير عن هذه الكيفية فقط. التى تطرأ على الانسان حين يغرق فى ذكر الله ، إلا أنه بعد ذلك أوصلت محاولات التحديد المنطقى الامر إلى درجة الفلاسفة العقيمة التى لا تفهم والمتملة فى عبارة « هو كل شئ » وبالتالى تم التسليم لدى بعض الفلاسفة المنحرفين بهذه العقيدة السيئة وأخذت ترتبط بمفهوم الارتباط الحسى المحض .

أقول إن الكيفية التى تطرأ على الانسان وقت السجود ، (والاقتراب هو التعبير الأقرب على اللسان البشرى لإظهار هذه الحالة) تتحقق لحظة تسلمك هيئة السجود التى تعنى تمام العجز والخضوع إلى كمال لا حد له . حتى تضع جبهتك على الأرض وكأنك التحقت بها وحينئذ يطارأ عليك شعور واحساس كأن هناك قطرة من ماء وضعت نفسها فى بحر واسع ، وكان الانسان قد امتزج بالله .

ما هو المراد بالحالة الحقيقية المطلوبة فى شكل ذكر دائم ؟ من الصعب بل لا يمكن أن يوضع لها فهرس أو توضع لها قائمة فى عمل ينقسم إلى شقين : الشق الأول يتعلق بالعبد ، والشق الثانى خاص

بالرب ، فالعبد حين يذكر ربه في قيامه وقعوده ، في نومه وفي يقظته
(آل عمران - ١٩١) ينال رعاية الله ، وينال من الله بحسنة خاصة كينييات
الذكر ، وكلمات الذكر ، وهو ينال على المستوى النفسى في كل لحظة
رزقاً جديداً من ربه .

ومن الواضح أن هذا النوع من الكيفيات والأرزاق لا يمكن أن
يُغرد له غورس خاص إلا أنه يوجد له علامات ذهبت في القرآن الكريم
أهمها :

١ - أن يكون الله موجوداً في تصور العبد دائماً حتى أن كل
حدث يذكره دائماً بالله « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم
ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » .
(آل عمران - ١٩١)

٢ - أن تسيطر عليه عظمة الله إدرجة أنه يرتعد من خشية الله
« تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » (الزمر - ٢٢)

٣ - إذا ما ذكر الله وجل قلبه « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم »
(الانفال - ٢)

٤ - يبكيه كلام الله « ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا
من الحق » (المائدة - ٨٣)

٥ - تصبح الصلاة بالنسبة له أمراً مساعداً وقت الحاجة
« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة » (البقرة - ٤٥)

ويحكى عن حذيفة أن النبي ﷺ كان يصلى إذا واجهته مشكلة
(إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة) وهذا هو شأن الصالحين في هذه الأمة

على الدوام . وينقل عن ابن تيمية انه كان اذا واجهه أمر لا يفهمه ذهب إلى مسجد خال فيحلى ويقول في السجود : « يا مسلم ابراهيم علمنى » ، وينقل أبو نعيم عن ابن مسعود أنه قال :

« مادمت فى صلاة فأنت تفرع باب الملك ومن يفرع باب الملك يفتح له » .

فالصلاة هى واحة المؤمن فى صحراء الحياة : حين تهيم عليه تصبح أحب الأشياء عنده : قال عليه السلام : « جعلت قرّة عينى فى الصلاة » (رواه النسائى) : وكان اذا دعا مؤذنه بلال للأذان قال له (أرحنا بنا يا بلال) (رواه أبو داود) .

وهذه الصلاة لا يمكن أن ينالها المرء بقيامه بالصلاة اليومية فيختم القرآن مرة او مرتين : بل يمكن للانسان القيام بهذا أولا يسمى الأمر صلاة فمع تلاوته للآيات فى الصلاة لا بد من التفكير ولا بد من التدبر . فأصل الأعمال الشرعية قائم على الكيفية وليس على الكمية ، وقرآنة القرآن لا تعنى أن يتلو الانسان كلماته وآياته ، بل يجب أن يخرج ذكر الله من أعماق قلبه . ومن هنا لا يمكنه أن يختم القرآن مرة أو عدة مرات فى اليوم . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقضى ليلة كاملة احيانا يتلو سورة واحدة ، وينقل الامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت أن بعض الناس يقرأون القرآن كله مرة أو مرتين فقالت : اولئك قرأوا ولم يقرأوا ، لقد قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الليل كله فقرأ فقط سورة البقرة وآل عمران والنساء ، فكان اذا بلغ آية فيها من الوعيد والتبديد دعا الله وطلب اللجوء اليه وكان اذا بلغ آية فيها بشارة دعا الله أن يمنحه البشرى !!

الزكاة

أصل الزكاة أو الانفاق هو الإيثار (١) (الحشر - ٩) فانه تبارك وتعالى يريد أن يشعر كل شخص بأن عليه حقاً للآخرين • وأن ينشأ مجتمع على استعداد للعطاء بدلا من الأخذ ، وأن يتطلع الجميع فيه إلى تحقيق الفائدة للآخرين بدلا من النيل منهم ، وأن يولد لدى كل فرد شعور بأنه لا حق له في هذه الدنيا (٢) : فعليه هنا مسؤوليات فقط ، ولايجاد هذه الروح الاجتماعية فرضت الزكاة ، وللزكاة أهمية كبيرة في النظام الديني . فحين حضر بشير ابن خصاصة إلى رسول الله ﷺ للبيعة : سأل الرسول ﷺ : يا رسول الله على أي شيء تبايعني ان الصدقة والجهاد أشياء صعبة بالنسبة لي ، فأعفني منها ، فرفع رسول الله ﷺ يده وقال : يا بشير « إلا الصدقة والجهاد فبم إذن تدخل الجنة » !؟ (رواء أحمد) •

والفتنة التي ظهرت بعد وفاة الرسول ﷺ ، كان ذلك سبباً ، فقد كانت السبل الاقتصادية لدى العرب قديماً محدودة للغاية ، ولهذا رغبت بعض القبائل أن تحذف الزكاة من بين فرائض الاسلام ، كما فكرت بعض القبائل المسلمة حديثاً في خلع طاعة الحكومة الاسلامية . وقالوا : لقد مات هذا الرجل الذي كانت العرب تنصر به ، (يقصدون الرسول) (كنز العمال ج ٣ ص ١٤٢)

(١) يقصد المؤلف قوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

المراجع : •

(٢) الا في الاطار الذي مهده الاسلام وهو اطار يجعل الواجبات مقدمة على

الحقوق (المراجع) •

ومع أن هذه القبائل كانت قد أنكرت الزكاة فقط واعتبرت نفسها مسلمة كالعادة ، فالترمت بالصلاة والصوم أيضا إلا أن الخليفة الأول قال : « والله لأقاتان من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال » .

« ان كل ما في الأرض والسماء هو ميراث الله » (١) (الحديد ٧)
« والرزق كله رزق الله » (٢) (الملك - ١٥) والمال كله مال الله (٣)
(النور - ٣٣) وما لنا له هو كله من عند الله (٤) (الاسراء - ٣٠) .
فلو كان الله قد جعل المال والمتاع كله نصيبا له لكان هذا حقه كاملا ، لا يملك أن يعترض عليه معترض إلا أنه قرر فقط أن ينال جزءا بسيطا منه ، وأن يهبنا البقية . « وآتوا حقه يوم حصاده » (الانعام ١٤١)

لقد فرضت الزكاة شرعا في السنة الخامسة للهجرة إلا أنها كانت مطلوبة منذ اليوم الأول بشكل غير محدد وهكذا وجد ذكر الزكاة في السور المكية : كما ورد في سورة (المؤمنون) : « والذين هم للزكاة فاعلون » وهكذا جاء في حق المشركين في سورة فصلت (٥)
« الذين لا يؤتون الزكاة » ، وفي السنة الخامسة للبعثة النبوية حين هاجرت جماعة من مسلمي مكة إلى الحبشة قام جعفر بن أبي طالب بالتعريف بنبي الاسلام في بلاط نجاشي الحبشة ، وكان من جملة ما قاله :

(١) يقصد قوله تعالى : (وانفقوا بما جعلكم مستخلفين فيه) .

(٢) يقصد : هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكوا من رزقه .

(٣) يقصد (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) .

(٤) يقصد (كلا نعم هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) .

(المراجع) .

(٥) المراد سورة فصلت . الآية ٧٧ : وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم

بالأخرة هم كافرين (المراجع) .

« وأمرنا بعبادة الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة » كان هذا في البداية حكماً عاماً ، وبعد فترة تم تحديد مقاديرها واعتبرت واجبة وتقرر إمكانية تحصيلها من أجل الدولة تماماً كما تحصل الضرائب ، والآن تحدد المفهوم الواجب للزكاة شرعاً وأصبح مفهومها واحداً ، ولما كانت الصدقة لا تعنى « الضريبة » بل هى عبادة حرة ، ومن هنا كان لها مفهوم واسع ، ومن هذا الاعتبار ، فلا حد لها ، فالإنسان ينفق على قدر طاقته مما يملك من مال من أجل مرضاة الله ، تقول فاطمة بنت قيس إن رجلاً من المسلمين سأل رسول الله ﷺ عن هذا الأمر فقال الرسول : « ان فى المال حقاً سوى الزكاة » (رواه الترمذى) : كما أشار القرآن الكريم إلى ضرورة الإنفاق مما يتبقى بعد استكفاء الحاجات الضرورية .

« يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » * (البقرة ٢١٩)

وللزكاة أو للإنفاق صورتان : الأولى : الصدقة والثانية : ما يقال لها « القرض الحسن » .

« إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف

لهم ولهم أجر كريم » (١) * (الحديد - ١٨)

والمراد بالصدقة « إطعام المسكين » « وام نك نطعم المسكين »

(المدثر - ٤٤) أى الإنفاق من أجل تلبية الحاجة الضرورية للمحتاجين .

وعلى العكس من هذا فالمراد من القرض الحسن الإنفاق الذى يكون

فى سبيل الله ، أى (تقوية الدين و إعلاء شأنه) فغاية ما يطلبه الله من

عباده هو نشر دينه ورفع رايته والإنسان ينال ثواباً كبيراً ببذله روحه

(١) جاءت كلمتا « المصدقين والمصدقات » فى حق القسم الاول ، إلا أنه بالنسبة

لذكر القسم الثانى من الناس يتغير الأسلوب الى « القرض الحسن » وهذا أسلوب

القرآن اللامع والى الأمرين متغيران .

وماله ، ولأن الهدف الأساسى لهذا الانفاق ليس مقدما لسد احتياجات الانسان بل مقدم لدين الله ومنفق فى سبيل اعلاء كلمة الله ؛ لهذا اعتبره الله قرصاً يؤدى حقه لعباده .

ومقدار الانفاق يتحدد فى شكل الزكاة ؛ إلا انه لا يوجد أى مقدار محدد « للقرض الحسن » بل يكتب الله سبحانه أسماء أصحابها فى قائمة المجاهدين بالمال ؛ أو الدعاة والشهداء ؛ وسيضمهم الصف الأول لأهل الايمان ؛ لأنهم قد أسلموا أنفسهم وما يملكون إلى الله . يقول القرآن الكريم :

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة »
(التوبة - ١١١)

فى غزوة تبوك (٦٣٠ م) قدم أبو بكر الصديق رضى الله عنه جميع أمواله ؛ وخدم عمر رضى الله عنه نصف ماله ؛ وخدم عثمان رضى الله عنه ألف جمل وسبعين فرساً . وعشرة آلاف دينار ؛ وبها تم إعداد ثلث نفقات الجيش .

هذا هو نوع الإنفاق الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم بعبارة إنفاق « فى سبيل الله » (الحديد - ١٠) وجاء فى القرآن الكريم : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » (البقرة ١٩٥) ذلك لأن أهل الاسلام إن لم ينفقوا فى سبيل رفع راية الاسلام فهم يقضون بأنفسهم على حياتهم الاجتماعية . ولا يمكن أن تقوم لهم قائمة فى الدنيا كأمة ؛ وقد بشر القرآن المنفقين بمضاعفة ثواب الإنفاق إلى سبعمائة مرة ؛ بل وأكثر من هذا . فطبقا لما جاء فى (الطبرانى) فإن معاذ بن جبل أورد حديثاً يتعلق بالثواب العظيم لذكر

الله ، والإنفاق في سبيل الجهاد في سبيل الله وبعده يروى الطبراني ما يلي :

« قال عبد الرحمن فقلت لمعاذ إنما النفقة بسبع مائة ضعف فقال معاذ قل فهمك إنما ذلك إذا إنفقوها وهم مقيمون بين أهليهم غير غزاة فإذا غزوا وأنفقوا خبأ الله لهم من خزائنه رحمة ما ينقطع عنه علم العباد وصفتهم » •

والزكاة من الناحية الشكلية ضريبة ، ومن الناحية الحقيقية عبادة. ولهذا فمن حق الدولة أن تتبع أسلوباً إجبارياً في جمعها تماماً كما تجمع الضرائب الخاصة بقانون المالية ، إلا أن فاعل الزكاة سوف ينال فائدة الزكاة الأساسية حين يؤديها وهو يشعر أن أداءه لها إنما هو عمل من أعمال العبادة ... ملتزماً بالشروط التالية :

١ - أن يتوقع أجراً طيباً من الله عن طريق الصدقة ، وحين يرى من الضروري له أن يخرج أطيب ماله في هذا السبيل •

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخديه إلا أن تفضوا فيه » (البقرة - ٢٦٧)

وقد أرادت السيدة عائشة أن تتصدق بلحم قديم عديم المذاق فقال لها النبي ﷺ : « أنتصدقين بما لا يمكن أن تأكلن » (رواه أحمد) •

٢ - أن ينفق بقلب خاشع خالص .. قال تعالى :

« والذين يؤتون ما آوتوا وقلوبهم وجلة » (المؤمنون - ٦٠)

وقال : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ، أنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً » (الانسان - ٨)

٣ - أن لا يهنوا على من يعطونه الصدقة ولا يقولوا لهم ما يؤذى مشاعرهم .

« الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى »
(البقرة - ٢٦٢)

٤ - أن ينفق المسلم بطريقة لا يشعر فيها أنه وهو ينفق في سبيل الله إنما يحاسب بضرر اقتصادي أو يشعر بثقل أو عبء مما قدمه !!

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم »
(البقرة - ٢٦٥)

٦ - أن تقدم الصدقات سرّاً ، لأن ذلك أطيب (البقرة - ٢٧١) ، وقد كان الصحابة يتفنون في إخفاء صدقاتهم . جاء فيما يتعلق بعبء الرحمن بن ثابت أنه نال منحة فاشترى طعاماً لأهل بيته فدر الطعام الضروري لهم . ثم تصدق ببقية المبلغ . فلما سألته زوجته : ماذا حدث لبقية المبلغ ؟ أجاب الصحابي : (لقد أقرضته) . وهذا النوع من الإخفاء والسرية كان يخلق داخل البيت حساسيات كان للصحابة يعملون على تلاشيها بطريقة تتضح من الحادثة التالية :

عن حسان بن عطية قال : لما عزل عمر بن الخطاب معاوية عن الشام بعث سعيد بن عامر بن جذيم ، فخرج معه بجارية من قريش نخبيرة الوجه ، فما بعث إلا يسيراً حتى أصابته حاجة شديدة ، قال فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فبعث اليه بألف دينار . قال فدخل بها على امرأته فقال : ان عمر بعث الينا بما ترين : فقالت لو أنك اشتريت لنا اداماً وطعاماً وادخرت سائرهما : فقال لها أولاً أدلك على أفضل من ذلك ؟ ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون اليها .
(أبو نعيم ، حلية الأولياء مجلد ١ ص ٢٤٤)

ويحكى الراوى بعد ذلك أنه تحقق بالاموال كلها فى صمت .
وعرفت الزوجة فبدأت تبكى وعقدت الأمور داخل البيت وحاول
الرجل أن يفهم زوجته . وقال لها فى النهاية : (إننى لا أستطيع أن
أؤثر على رضا الله والجنة . فاختارى لنفسك ما تشائين فقد اخترت
لنفسى الجنة) .

وفى النهاية سكنت الزوجة ورضيت !!

لقد زاد شوق الصحابة للحصول على رضا الله بالإنفاق فى سبيله
لدرجة أن رسول الله قال ذات مرة : تصدقوا « فإننى أريد أن أبعث
بعثاً » (١) ، ولم يكن لدى أبى عقيل الأنصارى أى شىء ، فظل يسقى
حديقة أحد الناس طوال الليل . واخذ أجره فى الصباح صاعين من
بلح (٢) ، فترك صاعاً لأهل بيته وأخذ الآخر فقدمه لرسول الله ﷺ
وكان سعد بن عبادة قد خطط أن يذهب للجهاد ادة سنة ويقوم ابنه
قيس على شئون البيت ، ثم يذهب ابنه للجهاد ويقوم هو على شئون
البيت بالتبادل . أما كيف ربه أولاده وعلمهم فيمكن ان نفهم ذلك من
هذه الحادثة : لقد وصل إلى رسول الله ﷺ ضيوف كثيرون ، وفى ذلك
الوقت كان سعد بن عبادة يجاهد مع جند رسول الله فوصله الخبر
فقال : « إن يك قيس ابنى فسيقول يا نسطاط ! هات المفاتيح أخرج
لرسول الله ﷺ حاجته ، فيقول نسطاط ، هات من أبىك كتاباً ، فيدق
أنفه ، ويأخذ المفاتيح ويخرج لرسول الله ﷺ حاجته » (الإصابة) .
وهذا ما حدث فعلاً ، فقد قام قيس بتقديم مائتى وسق من
البلح لرسول الله ﷺ ، ليقدمها لضيوفه .

وقد بين أبو ذر الغفارى أهمية الصدقة بطريقة حكيمة جداً

(١) أريد ان أرسل جيشاً المترجم .

(٢) حوالى خمسة ارطال (٢١ كجاو تقريباً) .

فقال : في المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأذنتك ان يدعيب بخيرها
وشرها في « الهلاك » ولا يستأذنتك في الموت ، وانوارث ينتظر ان
تضع رأسك ثم يسوقها وانت ذميم ، فان استطعت ان لا تكون اعجز
الثلاثة فافعل ، فإن الله عز وجل يقول : « لن تضلوا ان لم تنفقوا
مما تحبون » . (حلية الاولياء مجلد ١ صفحة ١٦٣)

ويروى أنس رضي الله عنه أن عائشة رضي الله عنها كانت في
بيتها في المدينة فسمعت صياحاً ، فسالت فقيل لها : إنها قافلة تجارة
عبد الرحمن بن عوف قادمة من الشام ، وكانت تضم سبعمائة جمل
محملة بالأمثلة ، فقالت عائشة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رأيت
عبد الرحمن بن عوف وهو يدخل الجنة » فوصل هذا الأمر إلى
عبد الرحمن بن عوف فقال : إذا كان الأمر هكذا فسأدخل الجنة ،
وبعد ما قدم القافلة بما تحمل من تجارة ومطاع في سبيل الله ، ويقول
عبد الرحمن بن ثابت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (سيجمع الله
الناس للحساب يوم القيامة ، فيأتي ثغراء المؤمنين يتبخثون كما
تبختر الحمامة ، فيقال لهم : انتظروا الحساب فيجيئون : لا حساب
لنا ، فأنت لم تعطنا شياً . فيقول ربهم : « صدق عبادي » افتحوا
لهم أبواب الجنة ، ويدخل الناس الجنة بعدهم بسبعين سنة) .
وقد جاء ذكر حكم الزكاة في القرآن مقابلاً للربا فنذكر الآية
الكريمة أن الله يزيد الزكاة ويمحق النظام الاقتصادي القائم على
الربا .

(« يمحق الله الربا ويربي الصدقات ») (البقرة ٢٧٦)

وجاء في آية أخرى :

(« وماءاتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله

وماءاتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون »)

(الروم - ٣٠)

وفي موضع آخر تذكر الآية الكريمة أن المتعامل بالربا لا يمكن أن يثبت على حال ولا يمكن أن تقوم له قائمة :

« الذين ياكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي ينخبطه الشيطان من المس » (البقرة - ٢٧٥)

وهكذا ورد أيضا في الحديث أن الأمة حين تترك الزكاة . يئلبها الله بالقطع والجفاف (أوسط الطبراني) . فالنظام الاقتصادي الذي وضعه الله تعالى ، يصاب بالخلل إذا ما مسه الربا ولهذا صدر الأمر بالجهاد ضد الربا (البقرة - ٢٧٨) (١) .

والسبب في هذا الفرق بين الزكاة والربا . انه بالزكاة تدور الثروة . وبالربا يكون ارتكاز الثروة أو تجمعها داخل مردز واحد . فالنظام الذي يقوم على اساس الزكاة يقوم على اساسين اقتصاديين في وقت واحد : اولهما انه بدلا من جمع الذهب بالذهب يصبح من الأفضل جمع الذهب بالعمل ، والثاني : ان تحويله دون كنز الثروة وتكديسها لان الزكاة توضع على رأس المال (وليس مثل ضريبة للدخل الخالية المقررة على المنفعة فقط) ، وهكذا فلن يتكدس رأس المال دائما في مكان واحد . وعلى العكس من هذا فبالنسبة للربا يصبح هذان الأساسان الاقتصاديان متناقضين : فنتيجة للربا يبدأ الحصول على الذهب بالذهب ومعناه أن من تأتي الثروة في يده مرة فسوف يعمل بالضرورة على زيادتها دون أن يحقق أي نوع من أنواع الإضافة للاقتصاد العام ، وهذا الشيء سيخلق نوعا من السطوة الاقتصادية لا يتوقف مداها عند أي حد ، هذا بالإضافة إلى أنه في نظام الربا لا يوجد أي عامل يمنع من تجميع الثروة بصورة مستمرة في مكان واحد .

(١) يقصد قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا انقوا انفسكم وذروا ما بكر من الربا)

إلى آخر الآيات .

الحج

حقيقة الحج وجوهه يتلخصان في (التضحية) فمن أجل الحج يسافر الإنسان ، وهذه تضحية بالوقت ، ثم يتحمل نفقات السفر وهذه تضحية بالمال ، وينحر الحاج ضحيته وهذه تضحية بالروح . ويسعى ويطوف ، وهذا معناه أنه قد قصر جميع أعماله من كل جوانبها على الله فقط .

إنها مهمة ربانية يقدم فيها المؤمن جميع هذه التضحيات ويرفع اسم الله عاليا في الدنيا « فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذاكركم آباؤكم أو أشد ذكرا » (البقرة - ٢٠٠)

وقال النبي ﷺ : (انما جعل رمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله) (المشكاة ، كتاب المناسك)

لقد عرض القرآن علينا رسالة الحج من خلال صورة حياة الداعية الأعظم سيدنا ابراهيم عليه السلام (٢١٦٠ - ١٩٨٥ ق م) ذلك الذي وقف حياته كلها على المهمة الربانية التي كان منتهاها أن يخشى بآبائه على هذا الطريق ، وكل عمل من أعمال الحج يذكرنا بحياة هذا الداعية الأعظم .

« قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم ابراهيم » (المشكاة - كتاب المناسك)

وحياة سيدنا ابراهيم التي كانت كلها حياة دعوة ، انما تكرر لنا بطريقة مميزة بعض المراحل التاريخية ، فالحاج يأخذ على نفسه عهداً مع الله أنه سيقصر حياته كلها (كما فعل سيدنا ابراهيم) على
م ه - واقمنا ومستقبلنا

تبليغ دعوة الحق ونشر الدين ، وأن يثبت عليه في كل حال من الأحوال حتى لو لم يمر بجميع هذه المراحل التي مر بها سيدنا إبراهيم عليه السلام .

لقد سأل رجل رسول الله ﷺ فقال : ما للحاج ؟ قال : الشعت النفل . فقام آخر فقال يا رسول الله أى للحج أفضل ؟ قال : العج والثج . (المشكاة - كتاب المناسك)

وبالفاظ أخرى فالحج الذى يتم دون ترتيب وبأعمال مجنونة إنما هو حج تتم مراسمه بلا روح ، ولا يتعلق أبداً بأصل حياة الإنسان . هذا فى الأصل تصوير للاندفاع الموجه . ومظهر لعزم يصل إلى حد التضحية بالروح ، وكان العبد وهو يؤدى مناسك الحج إنما يعرض نفسه على ربه . والسفر إلى الحج يعنى التضحية بالوقت . والتضحية بالمال .

والإحرام دليل على أن العبد قد جرد يده من كل شئ عدا الاحتياجات الضرورية .

والطواف والسعى تصوير لتقديم الإنسان نفسه وجسده وقلبه وعقله من أجل رب الكعبة .

ورمى الجمار مظهر للسلوك الذى يتبع مع أعداء الله ، وهو أنه لا يمكن أن يكون هناك مصالحة معهم أو تعاون . بل هو الاختلاف والتصادم .

وتقديم الذبيحة أو الأضحية عهد مع الله على الفداء وتقديم الروح من أجل الله .

والوقوف فى ميدان عرفات هو تمثيل لجمع البشر جميعاً أمام الله فى ميدان الحشر .

ومكذا فمن طريق الاعمال المختلفة للحج يلقن الإنسان دروساً في بذل الروح والتضحية ، واستحضار الله والأخرة ، ويغرس الإسلام بداخل العبد عشقاً لمولاه حتى ينطلق في سبيله بطريقة مجنونه من أجل مرضاته .

إن أركان العبادات الأربعة للإسلام هي وسيلة لايجاد هيفيه مشتركة وهي ان يوجه الإنسان قلبه وجسده إلى خالقه ، وأن يفهم ان هدف حياته ليس إلا مرضاة الله ، والصوم يضع هذه الكيفية في شكل حاجت طبيعية . والصلاة تحرك هذه الكيفية عن طريق جوانح الإنسان وجوارحه . وفي الزكاة يتم الحصول على هذا الهدف من الناحية المالية . وفي الحج يتم الحصول على هذه الكيفية المطلوبة من خلال تمثّل عملي لصفحات التاريخ الإسلامي المشرقة (١) .

وعبادة الحج لها علاقة عميقة بابراهيم الخليل ، فقد ولد خليل الله في مدينة أور بالعراق القديم . وكان أبوه سادناً لبيت الأصنام . فحطم الخليل الأصنام وحاجج أباه وصدح بالحق امام الملك . فعرف القوم هذا « انخلال » وكانت النتيجة ان صاروا جميعاً أعداء له ، فاضطر إلى ان يترك البيت . ويخرج مع زوجته « سارة » وابن أخيه لوط خارج وطنه مهاجراً ، إلا أنه لم يترك الدعوة إلى الحق ، لكن عملية الدعوة انتهت اختصرت في البداية على مدينة أور . قد أصبحت الآن عملية منظمة على مستوى دولي ، فأرسل الخليل ابن أخيه لوطاً داعياً إلى منطقة « سدوم » وهي المنطقة التي يقال لها الآن منطقة شرق الأردن ، ولفنس للهدف أرسل ابنه الأصغر اسحاقاً إلى منطقة كنعان والتي تعرف اليوم باسم فلسطين ، وعين ابنه الأكبر اسماعيل

(١) المعنى اللغوي للحج هو التمسك ، حُججت فلاناً أي ذهبت لفلان ومن أجل هذه العبادة يخرج المسلمون من بلادهم من كل أنحاء العالم ، يسلمون إلى مكان خاص ، ولهذا سمي بالحج ، وهذا اللفظ كان موجوداً زمان الجاهلية قبل الإسلام .

على منطقة مكة بالحجاز . وأسس في مكة مركزاً للإسلام « بيت الله » .
ودعا الله قائلاً : إنه جاء بأولاده إلى واد غير ذي زرع ، وذلك لنشر
الدين الحنيف . فأخرج الله من نسلهم نبياً يدعو الناس إلى الحق
(البقرة - ١٢٩) وكانت نتيجة هذا الدعاء الأبراهيمي أن ولد نبي
آخر الزمان (محمد ﷺ) من نسله من فرع اسماعيل .

عاش إبراهيم عليه السلام ١٧٥ سنة وانتشرت دعوته من مدينة
أور إلى مكة لمدة قرن تقريباً ، أما المراحل التي مر بها في حياته من
أجل الدعوة فقد تم اختصارها لتصبح رمزاً ، وذلك في صورة الحج
ومراسمه فالسفر والوصول إلى مركز الإسلام ، والطواف ببيت الله
الحرام والسعي بين الصفا والمروة والسير إلى منى ، والقيام في
ميدان عرفات ، وقضاء ليلة في المزدلفة . ورمي الجمرات ، والتضحية
في منى ما هذا كله ؛ هذا كله يمثل المراحل التاريخية لحياة الدعوة
التي مر بها إبراهيم عليه السلام . تلك التي تقوم بإعادة تربيته
فإنه تعالى فرض على المسلمين في كل فترة أن يعيدوا هذه الأحداث
فيجددوا بذلك عهد الدعوة .

« وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين » .

(الصافات - ٨)

ويذكر القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام حين مر بكل
أنواع الاختبارات والمحن وظل قائماً على مهمة (دعوة الحق) في
جميع الأحوال فثبته الله تعالى في مكانة الإمامة التي أعدها له ، وكانت
في علم الله .

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعك للناس

(البقرة - ١٢٤)

إماماً .

وليس المقصود بالإمامة الحصول على سلطة سياسية بل الحصول على منصب يؤهله لا يصال رسالة الهداية الإلهية إلى الناس ويذكر القرآن الكريم إبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعتوب عليهم للسلام بالإمامة فيقول :

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات »
(الانبياء - ٧٣)

وهذه الإمامة واسمها الثاى « النبوة » ظلت مستمرة فى نسل سيدنا إبراهيم من بعده ، فى البداية جاء إسحاق ابنه وأرشد الناس إلى مرضاة الله وكان آخر الأنبياء من نسله عيسى عليه السلام ، وبعده بعث محمد ﷺ (٥٧٠ - ٦٣٢ م) من أسرة اسماعيل بن سيدنا إبراهيم . وبمحمد ﷺ انتهت سلسلة الرسل ، واكمل الدين ، وحفظ العالمين . وسلم إلى الأمة المحمدية ، وأصبحت مسئولية الأمة المحمدية أن ترشد عباد الله جميعهم إلى طريق مرضاة الله حتى يوم القيامة « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو آجتباكم » !!

وكانت خلاصة تعاليم الصحيفة التى قدمت لسيدنا إبراهيم كما يلى :

« أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وثى ،
الآن ترز وأزره وزر أخرى . وأن ليس للانسان إلا ما سعى . وأن
سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى » .
(النجم - ٣٦ - ٤٢)

فهذه هى أهم قضايا الإنسان عند الله ، ولهذا أخذ الله عهداً على جميع الأنبياء أن يرشدوا الإنسان بتلك الحقيقة بأى ثمن .

« وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ، ليسال الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً اليماً » (الاحزاب ٧ — ٨)

وكان من نتيجة الدعاء الابراهيمى (البقرة — ١٢٩) (١) ان بعث الله نبي آخر الزمان ، وحمله القرآن العربى ، وأصبحت من مهامه تعريف أهل مكة وبقية العرب بهذه الحقيقة :

« وكذاك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير » .
(الشورى ٧ — ٨)

وقد أرسل القرآن إلى العرب بلغتهم . على ان « يلحقو » معهم بقية الأمم التى تؤمن وتتشارك معهم بالتبعية :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفسى ضالين ميين ، وآخرين منهم لا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .
(الجمعة ٢ — ٤)

وكان من جملة الدعاء الذى رفعه ابراهيم وقت تسمير الكعبة :
« فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم » (ابراهيم — ٣٧) أى اجعل هذا المكان مركزاً لعبادة الله ، وهكذا أرادت هئية الله فى زمان سيدنا ابراهيم ان تصبح مكة مركزاً عالمياً للدعوة الاسلامية وللإجتماع الدولى للأمة الاسلامية . « وأذن فى الناس بالحج » (الحج — ٢٧) يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية : إنه حين تم تسمير بيت الله فى

(١) هو قوله تعالى : « رضا وابعث نبيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

مكة ، أمر الله تعالى ابراهيم عليه السلام أن يعلن في الناس أن الله أقام لهم مركزاً يجب أن يهرولوا إليه ويحجوه .

وكان الهدف من الاجتماع في هذا المركز هو نفسه هدف الرسول وهو نفسه هدف وجود الأمة المحمدية أي تبليغ رسالة الله إلى العالمين .

« ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين »

(آل عمران - ٩٦)

وحتى يتحقق هذا الهدف جعلت الكعبة مكاناً لاجتماع المسلمين جميعاً ، « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » (البقرة - ١٢٥)

وقد عبر الله تبارك وتعالى عن المكانة الأساسية الثانية للكعبة بقوله : « قياما للناس » (المائدة - ٩٧)

وكان مكة هي مكان الاجتماع الدولي لأهل الاسلام . فلماذا تقرر أن يجتمع فيها جميع مسلمي الدنيا كل سنة ، وأن يعبدوا ربهم . وأن يخططوا هناك لتبليغ رسالة دعوة الحق العالمية ، هذه هي المكانة الأساسية لبيت الله ، والأمور الأخرى ما هي إلا توابع لهذا الهدف ، كما أمر بأن يعود المسلمون بعد الحج وقد غرست فيهم عاطفة الشعور بعظمة الأب والجد وبالتالي يعودون من الحج رحاملين لأمانة تحلية نواحي عظمة الله « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكريكم آباءكم » .

وأولئك الناس الذين يعودون الحج مجرد « زيارة » ويرون أن زيادة عدد مرات الحج هو من الكمال يجب أن نقرأ عليهم قول عبد الله بن عباس الذي نقله أبو نعيم :

« لأن أعول أهل بيت من المسلمين شهراً أو جمعة أو ما شاء
الله أحب إلى من حجة بعد حجة » (حلية الأولياء المجلد الأول)

وحتى يظل هذا المركز آمناً محفوظاً وضع ترتيب خاص لضمان
تأكيد سلامة الحج ، فصدر حكم شرعي بأن يكون هذا المركز قاصراً
على أولئك الذين يؤمنون بالاسلام ، وأنه لا يجوز أن يدخله غيرهم .
« وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن تطهرا بيتي للطائفين
والعاكفين والركع السجود » (البقرة - ١٢٥)

والدعاء الذي رفعه ابراهيم إلى الله من أجل رفع شأن اقتصاد
هذا المركز كان : « رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات »
(البقرة - ١٢٦) فقبل الله هذا للدعاء ، وظل هذا المركز يتمتع برفاه
الحال رغم أنه (غير ذي زرع) لمدة أربعة آلاف وخمسمائة سنة .
وفي عصرنا الحاضر أثبت البترول العربي أنه نتيجة من نتائج
استجابة الله لهذا الدعاء فقد دبر مالك الكائنات هذا الأمر حتى يظل
هذا المركز في عصر الصناعة Industrial - age بما له من
(انفساح أرضي) مركزاً غنياً ثريا ، لا يفي بحاجته من البترول فقط
بل جعله قادراً على أداء مسئولية الدعوة على أعلى مستوى عالمي .

ويرى العلماء الجيولوجيون أن للصدفة الجغرافية Accident
of Geogrophy قد جعلت ثلث احتياطي البترول العالمي في هذه المنطقة
التي يطلق عليها بالمصطلح الحديث منطقة (الشرق الأوسط) (١) إلا أن
الحقيقة أن هذا الأمر كان نتيجة للدعاء الابراهيمي الذي قال فيه
ابراهيم لربه : (وارزق أهله من الثمرات) ، وبالأفاظ أخرى يقدم

(١) هذا مصطلح استعماري ازود به ان يشتمل على اسرائيل ، والمصحح الشرق

لأهله رزقاً يفيض عن حاجتهم حتى يقوم أولو الأمر منهم في كل زمان بالإتفاق على سبل الدعوة بطريقه طيبة قوية عصرية ، وحين حمل الله إبراهيم الإمامة وجعل « بيته » مقصدا للعالمين ومثابة للناس ، أمره بأن ينادى أن يجتمع المخلصون من عباد الله الصالحين في هذا المركز ، وأن يلتفتوا بإمامهم وأن « يشهدوا » منافع دينية ودنيوية لهم « ليشهدوا منافع لهم » (الحج - ٢٨) ، وليعبدوا الله أيضا حيث يجتمع عباد الله الصالحون مرة كل سنة في هذا المركز الالهي ، لبحثوا أمورهم وقضاياهم الدينية ، وليستمعوا إلى أحكام إمامهم وليستعدوا لتجديد سنة إبراهيم ، وأخيرا ليعود كل منهم إلى وطنه .

والعبادات الموجودة في الحج هي وسيلة للحصول على قرب الله ونصرته . وهدف الحج الأساسي هو أن يطرح الإنسان جميع قضايا الدنيا ، وأن يحاسب نفسه ، ويستعد لبرنامج جديد من العمل الديني ، فالنبي ﷺ الذي جاء ليحيي الأمة الابراهيمية لم يقم بتصحيح أخطاء مناسك الحج فقط ، بل جعل من بيت إبراهيم مركزاً دينياً ، وفي حجته المشهورة قام ﷺ بإعلان أمر الحق (خطبة حجة الوداع) فأوضح الفرائض والأحكام الدينية وأعلن نسخة بعض المعاهدات ، وحدد بعض القواعد الدولية وأشهد أمته على نفسه لآخر مرة بمناسبة الحج حين قال بعد الخطبة ، ألا هل بلغت؟! فقال الناس : بلى يا رسول الله ، واعطى ﷺ آخر تحذير لمنكري الحق في يوم الحج :

« وأذ ان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر » .

(التوبة - ٣)

ورغم أن زمان نزول الآية كان في الوقت الذي وجد فيه النبي في المدينة ، الا أن اعلان للبراءة كان في مكة يوم الحج ، وهذا دليل على أن مكة هي المركز الدائم للحركة الاسلامية .

وقد جاء في الحديث :

« إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها » ،
(المشكاة باب الاعتصام بالكتاب والسنة)

وما جاء ذكره في القرآن الكريم بأن الله تعالى قد أعطى لبني
اسرائيل مقام الفضيلة . جاء ذكره أيضا فيما يتعلق بالأمة المحمدية
بأنها خير أمة (آل عمران) ، فقد اختير بنو اسرائيل قبل بني اسماعيل
(الأمة المحمدية) للقيام بارشاد الناس إلى الحق .

« ان الفريضة الوحيدة لبني اسرائيل في هذه الدنيا ان يكونوا
شهداء لله » .

(دائرة المعارف اليهودية مجلد ٦ ص ٢)

وفرض على بني اسرائيل القيام بالدعوة إلى وحدانية الباري ،
والقيام بجهاد عبدة الشمس والقمر والكواكب . وحين حمل الله بني
اسرائيل هذه المسئولية أعد لهم الله نظاما اقتصاديا خاصا وذلك في
زمان موسى عليه السلام (١٥٢٠ - ١٤٠٠ ق . م) ، وكان هذا هو
المن والسلوى ، وكان طعامهم هذا يصلهم حتى مساكنهم بسهولة
كبيرة . وأمروا أن ينصرفوا بكل قواهم إلى تبليغ دعوة الله أكثر من
انشغالهم بنظامهم الاقتصادي إلا انهم لم يتقدموا على فهم هذه
المصلحة فبدأوا يتجهون إلى اللذات والشهوات وسهولة الحياة
وفضلوا ما هو أدنى على الذي هو خير ، وفي النهاية أبعثوا عن مقام
الفضيلة لأنهم أنكروا آيات الله .

« واذ قلت يا موسى ان نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك
يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها ،
قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، اهبطوا مصراً فإن لكم

ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأؤ بغضب من الله ذلك
بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله » .

(البقرة — ٦١)

وما حصل عليه العالم العربي من ثروة بترولية تماثل من حيث
مكانتها ما كان لدى بنى اسرائيل من من وسأوى ، فقد كانت قيمة المن
والسلوى كقيلة بتمهينهم من تبليغ « شهادة دين الله » . وهكذا فإن
الثروة البترولية وما لها من قيمة عالمية ومكانة عالية كبيرة إنما أرسلها
الله لأداء مهمة تبليغ رسالة الحق ، وا لضمان الاستمرار في مهمة تبليغ
رسالة الله .

إن وجود الكعبة في العالم العربي يجعل من هذه المنطقة مركزاً
للدعوة الاسلامية باستمرار وعنى الدوام ، فمن ناحية تتمتع هذه
المنطقة بجاذبيه تاريخية تجذب اليها جميع أهل الأرض ، فيفد اليها
كل عام ملايين البشر ، ومن هنا جعلت المنطقة حرماً آمناً ، وتجمعت
حولها جميع وسائل الثروة لتظل دائماً في يد أهل الإسلام ، ولا يمكن
أن تؤول للآخرين لا سياسياً ولا إدارياً ، ثم كان هناك تدبير ثالث
وهو قيام اقتصاد هذه المنطقة على أساس راسخ ثابت حتى يكتفى
سكانها ويفيض عنهم فائض يمكنهم من أداء أكبر وأعظم الخدمات
ولنشر دين الله ورفع لوائه وهو العمل الذى كانوا يقومون به على
مر الأزمنة ...

ترى هل يعرف العرب سر نعمتهم ؟ وهل يقومون بأداء رسالة

الله ؟ !!

الصراط المستقيم

ما هو الصراط المستقيم ؟

يفهم من القرآن الكريم أن الله تعالى قد حدد منهاجاً محكماً لجميع الكائنات . وجميع الكائنات تمضي على هذا الطريق وعلى هذا المنهج منتزعة بالحدود التي وضعها الله (فصلت - ١١) (١) حتى أن النحل (٦٨ ، ٦٩) تسلك سبيل ربها الذي حدده لها . فهي تسلك سبيل ربها ذللاً (٦٩ - النحل) (٢) ، وفي هذا أيضاً سر نجاح الإنسان ولا شك فالإنسان في حالة اختبار دائم وامتحان مستمر . ومن هنا تم الاكتفاء بإخباره وإرشاده فقط ، ثم وهب الإنسان الفرصة ليستخدم إرادته في اتباع الطريق المستقيم أو الانحراف عنه (الإنسان - ٣) . وحين أخبر الله للإنسان بمعنى « سبيل الله » وضع على عاتقه مسئولية المضي على هذا السبيل واتباعه وكله يقين على أنه هو السبيل الوحيد الذي يقوده إلى الفلاح والنجاح (إبراهيم - ١٢) : وإذا ما تأثر الإنسان بسبب ما فسلك سبيلاً آخر : فهو ينحرف بهذا عن سبيل الله . ومن ينحرف عن سبيل الله لا يصيب من هذه الدنيا سوى الفشل والفهم (الأنعام - ١٥٣) (٣) فالإنسان عند الله هو الإنسان الذي يمضي على

(١) يشير المؤلف إلى قوله تعالى في الآية ١١ من سورة فصلت : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها ، قالتا أتينا طائعين » .
(٢) يشير إلى قوله تعالى : « ثم كلى من كل الشرات فاسلكى سبيل ربك ذللاً » .
(٣) يشير إلى قوله تعالى : « انا عدينا السبيل اما شاكرًا واما كفورًا » .
١٥٣ يشير المؤلف إلى قوله تعالى في الآية ١٥٣ من سورة الأنعام : « وان هذا صراطنا مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

الصراط المستقيم . ومن يحدد عن الصراط المستقيم فهو ينحدر إلى
مقام الحيوانية .

« أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمن يمشى سوياً على صراط
مستقيم . قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة
سيد ما تشكرون » . (الملك ٢٢ — ٢٣)

ويفهم من معنى المضى على الصراط المستقيم ان يستخدم
الإنسان إمكانياته وكفاءاته ، سمعه وبصره وفؤاده ليعيش حياته .
ما هو السمع والبصر والفؤاد !! هذه هى الأشياء التى يتميز بها
الإنسان عن بقية المخلوقات . هذه هى الأشياء التى تنقل أى كائن
« حى » من هذه المنزلة إلى منزلة كونه « إنساناً » . وعلى العكس
من هذا تكون الحيوانات : فرغم أنها تمشى وتتحرك إلا أنها حرمت
نعمة السمع والبصر والفؤاد : تلك النعمة التى خص الله بها الإنسان
فقط . ومن هنا فمن يمتلك هذه النعم الإنسانية ولا يستفيد منها فهو
كمن ينحدر بنفسه من مقام الإنسانية إلى مقام الحيوانية وقد ذكر
القرآن أنه كالكلب (الأعراف — ١٧٦) (١) كالحمار (الجمعة —) (٢)
كالأنعام (الفرقان — ١٤٤) (٣) وأكثر من هذا فهو فى منزلة القردة
والخنزير (المائدة — ٦٠) (٤) بل أسوأ :

« إن شر الدواب عند الله الصم والبكم والذين لا يعقلون » .
(الأنفال — ٢٢)

(١) يشير الى قوله تعالى : « فمثلته كمثل الكلب ان نحمل عليه يلهث او تتركه يلهث »

(٢) يشير الى قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار
يحمل اسفارا » .

(٣) يشير الى قوله تعالى : « ام تحسب ان اكرمهم يسمعون او يعقلون ان هم الا
كالانعام بل هم اضل سبيلا » .

(٤) يشير الى قوله تعالى : « قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنة
الله وغضبه عليه وجعل منهم القردة والخنزير وعبد المفاوت » .

فالأمور التي تفهم بالعقل ، يحدث إلا يفهمها الإنسان وكأنه لا يمتلك عقلاً ، وهذا الإنسان هو في نظر الله اعمى ولا يسمع ، وقد ورد في القرآن الكريم في سورة رقم ٩٥ أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم رده أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (التي ٤ - ٦) (١) فالمراد بالأمر الأول هو مقام الإنسانية والأمر الثاني مقام الحيوانية ، فإله قد خلق الإنسان على مقام الإنسانية ثم وضعه في مقام الحيوانية ، والآن يختبره ويمتحنه حتى يخرج الإنسان نفسه من مقام الذل إلى مقام الرفعة .

« ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه »

(الأعراف - ١٧٦)

وهذا للقسم من الآيات التي ورد فيها ذكر هؤلاء الناس العمى والعمى الذين لا يعقلون ، ليسوا عمياً أو صماً بالمعنى العضوي بل هم كالمجانين في الواقع انقلبوا على وجوههم في الهاوية .

كان هؤلاء أناساً اعتبروا أئمة العلم في زمانهم ، وكانوا قد بنوا القصور والقلاع ، كانوا علماء خبراء في التجارة والزراعة والبستنة ، كانوا يقودون الأمم والدول ، وهكذا ذكر أمية بن أبي الصلت العربي الذي اشتهر ليس فقط بإمارته وكرمه بل أيضاً بشعره وبحكمته (الآية السابقة من سورة الأعراف - ١٧٦) ثم هناك شخص آخر ولد في آخر زمان موسى عليه السلام ويدعى بلعام بن بعور ، اشتهر بين أهل زمانه بالعراق وذاع صيته بسبب علمه وزهده ، كما يروى عن عبادة بن الصامت أنه كان يعد مصداقاً لرؤساء قريش ، وقد تولى أمر الكعبة ولهذا اعتبر قائداً للعرب أجمعين (لئبجر المحيط) .

(١) - يشير إلى قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » .

... ثم ماذا تعنى عبارة عمى صم ، إن فهم هذا الأمر يستلزم التعمق في الفرق بين الإنسان والحيوان فالحيوان يملك كل ما لدى الإنسان من أشياء ظاهرة فالحيوان يمشى ويأكل ويشرب ويرى ويسمع ويشعر بالألم إذن ما هذا الشيء الذي يفصل بين الإنسان والحيوان . يقول علماء الأحياء إن الفرق يتمثل في قدرة الإنسان على الفكر التصوري Conceptual Thought . وبعبارة أخرى فهو يفكر . ولا يمكن أن يقوم بأى عمل بدون أن يقتنع بما هو موجود أمامه . مثل هذه القدرة لا توجد عند الحيوانات . ومن هنا يمكن أن نفهم الفرق بين مقام الإنسانية ومقام الحيوانية : فمقام الحيوانية يعنى أن شيئاً ما لا يمكن أن يحرك الإنسان سوى المصلحة للمادية أو الضرر المادى . وعلى العكس من هذا فمقام الإنسانية هو أن يؤمن الإنسان بالشيء ذهنياً بعد إن يتأكد من حقيقته أو صدقه وطبقاً عليه يبنى أسلوب حياته . يقول تعالى في كتابه العزيز :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب »

(البقرة - ٢)

فالقرآن الكريم ليس هداية لأولئك الناس الذين يخضعون للتأثير المادى فقط أو التفكير المادى أو النفع والضرر المادى فقط بل من يهتدى بهذا الكتاب هم أولئك الناس الذين يؤمنون بالحقائق الصادقة التى تحمل أهمية عقلية خالصة (الغيب) ، ولا وجود لقوة تلك الحقائق التى يؤمنون بها في هذه الدنيا ، وكأنما الإيمان بالمشاهدة هو مقام الحيوانية والإيمان بالغيب هو مقام الإنسانية .

يروى فيما يتعلق بإسلام أبى بكر رضى الله عنه أن الرسول

ﷺ قال : (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبره وتردد ونظر إلا أبا بكر ، ما عنكم (١) عنه حين ذكرته ولا تردد فيه) .
(للبدايه والنهيه مجد ٣ ص ٢٧) *

وهذه هي أعلى درجات مقام الإنسانيه التي ساهبا أبو بكر الصديق ، فقد كان في إمكانه أن يفهم قدر وقيمه أي شيء على أساس جوهره الذاتي وهذا يتأثر الإنسان بالتشخصية العاليه لرسول الله وينون مسما * او يتأثر بالمعجزات او بالقران الكريم او بالبركات الماديه لازسلام ويكون مسما ، إلا ان أبا بكر وصل إلى مقام من رفعة الفخر لدرجة انه يتمكن من قبول الشيء على أساس الحسن والقبح المجردين ، وهذا حين أوصى أبو بكر ، أثناء مرض موته بوصيه الخارفة وعهد بها إلى الفاروق عمر ، ظهر في للناس قلق شديد :

« فدخل عليه طلحة بن عبيد الله فقال أنا رسول من ورائي إنيث يقولون : قد علمت غلظة عمر علينا في حياتك فكيف بعد وفاتك إذا افضيت اليه امورنا والله سئلك عنه فانظر ما انت قائل » * إلا ان من وصل إلى هذه الدرجة العاليه من مقام الإنسانيه قد عبر مرحلة الظاهر إلى مرحلة الباطن ، لقد رأى أبو بكر ان شدة عمر هذه ليست خاصه بذاته هو بل من أجل الدين ، وأن القلب الخاشع في داخل صدره هو أكبر ضمان لأن يظل عمر على الحق ، قال عثمان : لا تأخذوا على ظاهره فباطنه احسن من ظاهره (سريره خير من علانيته) وهذه هي عبارة أبي بكر بالفاظ أخرى ، فالشخص الذي يقوم على الصراط المستقيم تنبت فيه بذرة المعرفة ، لقد سمعت قريش للقرآن على لسان محمد ﷺ ، فقالوا : « هذا كلام شاعر » فكلمة شاعر هنا لم تكن كلمة كبيرة وهي عند الله تدل على ثقل الإيمان « ثليلاً ما تؤمنون »

(الحاقة - ١٤١) (١) . فلم يكن إيمانهم إيماناً كلياً ، فقد قالوا عن القرآن : كلام شاعر لأنهم أرادوا أن يعلنوا أنه مجرد عمل أدبي . يضم التعاليم القديمة للمة إبراهيم * وهكذا اكتفى هؤلاء الناس بالاعتراف بالحق الأدبي للقرآن بينما الحق الأساسي للقرآن هو أن يفهم على أنه الصدق الأعلى . وأن يسلم به على أنه « حق اليقين » . وحين طلب رسول الله ﷺ من أبي سفيان أن ينطق بشهادة الإسلام قبل دخول مكة بيوم قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمت وأكرمك وأوصيك . هذه والله كان في النفس منها شيء حتى الآن ، وبعدها حين شعر عمه العباس بدقة الموقف نطق بالشهادة ، وكان من السهل على أبي سفيان أن يعترف بعظمة النبي وأخوته لأنه بعدها حصل على هدوء نفسي إذ شعر بأنه إن كان هناك فرق فالفرق فقط فرق أخلاقي وليس فرقاً خاصاً بصحة أو خطأ نظرية النبي ﷺ . ولا شك أنه من الصعب على أي إنسان أن يعترف بالنظرية بالمقارنة بالاعتراف الأخلاقي .

الصراط المستقيم في السلوك الفردي :

ما هو الصراط المستقيم الذي تم إيضاحه في القرآن الكريم بطريقة واضحة ، فيما يتعلق بالحياة الفردية (الشخصية) وبالحياة الاجتماعية .

جاء في القرآن الكريم في السورة السادسة (الأنعام) :
« قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياكم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي

(١) يشير المؤلف إلى قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر ، ظهلاً ما يؤمنون » م ٦ - واقعنا ومستقبلنا

حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون وان هذا صراطى مستقيماً فانبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . (الأنعام ١٥١ — ١٥٣)

هذا هو الصراط المستقيم الخاص بالحياة الفردية . وخلاصة التوحيد : حسن السير والسلوك مع الآخرين ، الاعتماد على الله ، البعد عن الفواحش ، احترام النفس ، البعد عن الظلم . التعامل بالحسنى إقامة العدل في جميع الأحوال . الوفاء بعهد الله . اتباع التقوى في جميع الأمور ، وأولئك للناس الذين يمضون على الصراط المستقيم هم أولئك الذين أنعم الله عليهم (الفاتحة) ، الذين خرجوا من الظلمات إلى النور (إبراهيم — ١) (١) ، الذين نالوا فضلاً من الله ورحمة (النساء — ١٧٥) (٢) حتى أتم الله عليهم نعمته (الفتح — ٢) (٣) ، ومن الواضح أن حياة الناس الذين يتصفون بهذه الخصائص لا يمكن أن تكون كحياة عامة الناس ، ومن الضروري أن يظهر أديهم هذا الإدراك — في حياتهم — بأشكال مختلفة :

١ — وأول ما يتعلق بهذا الأمر هو أن ينالوا أعلى الكيفيات الإيمانية . يروى أن عبد الله بن رواحة قال لرجل : تعال تؤمن ساعة . فسمعه رجل فجذبه إليه وقال : « أولسنا بمؤمنين ؟ » فأجاب ابن رواحة :

-
- (١) يشير إلى قوله تعالى : « الر كذب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد .
 (٢) يشير إلى قوله تعالى : « فلما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم من رحمة منه ومنه فضل » .
 (٣) يشير إلى قوله تعالى : « ليقدر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً » .

« أجل ، نحن مؤمنون ، ولكن حين نتذكر الله فاننا نزداد إيماناً على إيماننا » ، وبعد ذلك ذهب ذلك لرجل إلى رسول الله ﷺ وشكى مما قاله ابن رواحة الذي ترك إيمانه واتجه ليؤمن ففترة ، فقال النبي ﷺ :

« یرحم الله ابن رواحة أنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة » (رواه أحمد عن انس بن مالك) •

وكان ما قاله ابن رواحة من جملة للكيفيات الإيمانية العالية ، لكن الشخص الذي وقف عند حد الإسلام دون « الإيمان » لا يمكن أن يفهم هذا المستوى •

٢ — يعنى الإيمان لئىل هؤلاء الناس انهم قد أسلموا نفوسهم تماماً لله ، وهذه الفكرة تجعلهم يرتجفون وتخضع قلوبهم خوفاً من أن يقضى الواحد منهم حياة تكون بعيدة عن صراط الله المستقيم ، وحين نزلت الآية القرآنية « **الذين يكتزون الذهب والنفضة** » (التوبة — ٣٤) ، قال رسول الله ﷺ : « تبا للذهب ، تبا للنفضة » ، وكان هذا الأمر من الصعوبة على أصحابه لدرجة أنهم قالوا فيما بينهم : فأى مال نتخذ ، وحمل عمر هذه القضية وذهب إلى رسول الله ، فقال :

« ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً ، وقلبا شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على إيمانه » •

(تفسير ابن كثير مجلد ٢ صفحة ٣٥١)

٣ — أن تولد بداخلهم بذرة الاعتراف بالذنب بدرجة كاملة •
ركب أحد الصحابة ويدعى جابر بن الأزرق على ناقته ، وكان يمضى مسافراً مع رسول الله ، وفى الطريق حط الرسول رحاله ودخل إلى

خيمته . وكان هناك زحام شديد على باب الخيمة . قال جابر بن الأزرق :
لقد دفعني شخص وأراد أن يبعدينى عن الباب . فقلت له : لقد دفعتنى
وسوف أيدفعك وإذا ضربتني ضربتك . وسمع الرجل هذا فقال له :
يا سر الرجال . فقال له : بالله أنت سر منى . فقال له الرجل : كيف
هذا ؟ . فقال : لقد جئت من أطراف اليمن لاسمع شيئا من رسول الله
واعود لأخبر الناس الذين من خلفى . وأنت منعتنى . وسمع جابر
بن الأزرق العاشرى هذا وهذا . وقال على الفور : صدقت نعم والله
لأنا سر منك . (كنز العمال) .

٤ - أن يشعر بمسئوليته تجاه الناس أكثر من شعوره بحقوقه .
يروى عن أم سلمة في مسند الإمام أحمد أن رجلين اختصما . فجاءا إلى
رسول الله ﷺ . يحتكما إليه في نزاعهما على إرث . وكان كل واحد
منهما يقول : هذا حقى . ولم يتمكن احدهما من إثبات حقه بطريقة
بينه . فقال رسول الله ﷺ : (إنكم تختصمون إلي . وإنما أنا بشر .
ولعل أحدكم ألحن من الآخر بحجته فأحكم له . فمن حكمت له بشيء
من حق أخيه فإنما أعطيته جمرة من النار يوم القيامة) . وسمع الرجلان
قول رسول الله ﷺ فبكيا وصار كل منهما يقول : « حتى لأخى حتى
لأخى » .

٥ - أن يوجد في الإنسان سمو النظرة وارتفاع النفس ، فيرى
الصغير كما يرى الكبير ، وقد أرسل الأمير معاوية في زمان حكمته
إلى أنصارى مبلغ خمسمائة دينار . فرأى الأنصارى أن هذا المبلغ
قليل ، فقال لابنه خذ هذا المبلغ واذهب لمعاوية وألق به في وجهه وعد ،
واستحلف ابنه على أن يقوم بما أمره به ، فأخذ الابن المبلغ وذهب
إلى معاوية وقال : يا أمير المؤمنين : لقد أمرنى أبى وأنا لا أقدر على
مخالفته ، فوضع معاوية يده على وجهه وقال له : افعل كما أمرت أبوك .

ولكن تصرف بلين مع عمك • فخجل الابن وترك المبلغ وذهب فضاء
معاوية المبلغ وأرسله إلى الأنصارى • (تاريخ الفخرى)

٦ — أن تظهر بداخلهم معرفة الحقيقة ، التي تجعل الرجل العادي
ينطق بأمر تصع كبار الناس في حيرة . ففي زمان خلافة عمر رضي الله
عنه حين انتصر سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية (فارس) ،
تبادل مع رستم قائد جيش الفرس (الرسل) وفي تلك الأثناء ، حين
وصل أحد الرسل بعتاده وملابسه العادية إلى بلاط رستم صاحب
الفخامة والهيئمان استحضره ، وقال له مشيراً إلى رمحه : ما هذا
الذي في يدك كالمعزل ، فقال له الرسول بهدوء مجيباً عليه : « لا يقل
من شأن قطعة الفحم أن تكون صغيرة » • (تاريخ الفخرى)

٧ — أن تظهر في الإنسان « بصيرة » تمكنه من رؤية أدق شبك
العدو وفخاخه : فقد كان من بين المهاجرين مع عمر رضي الله عنه شخص
يدعى عياش بن ربيعة ، وحين عرفت قريش أنه وصل إلى المدينة ، وصل
وراءه كل من أبي جهل بن هشام والحارث بن هشام وكانا من بين أقابه.
وقال عياش بن ربيعة عد معنا إلى مكة فأمك أضيبت بصدمة كبيرة من
جرا ذهابك ، فأقسمت بأنها لن تمشط شعرها ، ولن تستظل بظل طالما
لم تشاهدك ، ووصل الأمر إلى عمر ، فقال لعياش بن ربيعة إنها مؤامرة
تستهدف عودتك لا تطلق لكلامهما • فوالله لو قد آذى أمك القمل
لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت » •

(البداية والنهاية مجلد ٣)

إلا أن عياش بن ربيعة لم يفهم ذلك ، وعاد إلى مكة ، وهناك ابتلاء
الناس بالامتحان والعذاب والقتل •

هؤلاء هم للناس الذين بشروا بالأجر العظيم (الطلاق - ٥) (١) والذين تتبدل سيئاتهم حسنات : (الفرقان - ٧٠) (٢) ، فالحقيقة أن هذه الأخطاء يتعرض لها الجميع ، المؤمن وغير المؤمن إلا أن من وصل إلى مقام العبودية حين تصدر عنه سيئة يتجه إلى الله بشدة تضاعف ما كان عليه من قبل ، وهكذا تصبح هذه السيئة التي ارتكبها سببا في أن يستعيد حالة إيمانه بأشد مما كانت عليه ، وعلى العكس من هذا فمن يضل طريقه وسط ظلمات السيئات ، فإن سيئاتهم بدلا من أن تعطيهم غذاء إيمانياً متجدداً تضيف إلى قساوتهم •

« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان ، تذكروا ماذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم في الفى ثم لا يقصرون » •
(الأعراف ٢٠١ - ٢٠٢)

الصراط المستقيم الاجتماعى :

كما وصلتنا الصلاة وكما وصلنا الصوم عن طريق النبی فقد وصلنا منه أيضا كيف يمكن للحركة الإسلامية أن تضي على الطريق ، وكيف يمكن أن ينتشر الإسلام فى الدنيا ، وبعبارة أخرى فكما يوجد صراط مستقيم للحياة الفردية يوجد أيضا صراط مستقيم للحياة الاجتماعية فصلح الحديدية (٦٢٦ م) هو من أهم أحداث الكفاح الاجتماعى الإسلامى وتقول سورة (الفتح) عن هذا الصلح :

« ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » •

(الفتح - ٢٠)

(١) يشير الى قوله تعالى : « ومن يتق الله يكفر الله عنه سيئاته ويمطم له اجرا »
(٢) يشير الى قوله تعالى : « الا من تاب وآمن وعمل صالحا نأولئك بيد الله سيئاتهم حسنات » •

وهذه الآية التي تتعلق بصلح الحديدية توضح أنه كما يوجد صراط مستقيم للعبادات وللأخلاق فهناك أيضا صراط مستقيم لأمر الصلح والأمن والقتال .

فالشخص الذي يمضي على الصراط المستقيم وبعبارة أخرى الذي يمضي على مقام الإنسانية حيث تكون القرارات كلها قائمة على أساس السمع والبصر والفؤاد ، وليس على أساس للعناد ورد الفعل ، فهو ينال بصيرة خارقة ، ويتخلص من جميع الدوافع العاطفية والجوانب الإضافية والثانوية ويبدأ في إدراك جوهر الحقيقة مباشرة ، وطبقا لهذه الحقيقة فخطئه تكون صحيحة وقاطعة، وإصابته تكون صحيحة لاتخطيء أبدا ولهذا جاء في الحديث :

« اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

وفي الوقت الذي يذكر فيه للقرآن الكريم أن المؤمن يغلب عشرة أمثاله ، فإنه يحدد أن سبب الهزيمة هو أن هؤلاء رغم كثرة عددهم لا يفقهون شيئا .

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يعطوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون »
(الأنفال - ٦٥)

وصلح الحديدية مثال بارز على هذا الأمر ، فمن الواضح أن هذا الصلح تم تحت ضغط ، فالعقل الغرائزي لم يكن مستعدا لأن يوقع ألف وخمسمائة من الفدائيين المسلمين مثل هذا الصلح الذي كتبت مسودته في معظمها بناء على مطالب العدو ، إلا أن العقل الإنساني البصير الذي وهب القدرة على أن يميز بين الحقائق في شكلها النقي الصافي قد استشرف أن هذه هي قضية « الفتح المبين » (الفتح - ١) (١)

(١) يشير إلى قوله تعالى : « أنا فتحنا لك لنعا مبيتنا » .

وهكذا فقد ذكر الصراط المستقيم أو سبيل الله من أجل شئون الحياة جميعها ومن أجل قضايا الدنيا والآخرة، وجميع الكائنات تمضى على هذا الصراط، وهذا هو سبيل نجات الإنسان ووسيلة نجاحه وتوفيقه، ومع هذا الفرق فإن الكائنات ملتزمة بالمضى على هذا الصراط المستقيم طوعا وكرها (فصلت - ١١) (١) والإنسان يمضى عليه باختياره .

وكما جدد القرآن خطوط الصراط المستقيم الذى ينطق عليه الفرد في رحلته الذاتية فقد أهتم أيضا ببيضاح الصراط المستقيم في المعاملات الاجتماعية ، فمن ناحية قدم لنا أمثلة في شكل تجارب حقيقية كبيان حكم صلح الحديدية ، يقول تعالى : « ويهديك صراطا مستقيما » (الفتح - ٢) ، ومن ناحية أخرى يذكر القرآن الكريم بعض الأصول الأساسية التي تحيط بمعظم المعاملات العملية فإذا ما سما الإنسان بنفسه عن مقام الحيوانية ، ووصل إلى مقام الإنسانية فإنه لا يمكن أبدا أن يخطيء في فهم الأسلوب أو السلوك الذى يجب أن يتبعه فيما يتعلق بأى أمر اجتماعى خاص يأخذ بيده إلى طريق النصر الإلهي والفتح .

١ - إن أول الأصول الأساسية فيما يتعلق بهذا الأمر هو عدم اتخاذ أى إجراء أو عمل بتفكير سلبى ، يجب أن يضع المرء هدفه الأساسى أمامه بطريقة إيجابية ، ثم يحاول بعد ذلك أن يطبق جميع خططه الاجتماعية طبقا لهذه الأهداف الإيجابية .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

(المائدة - ٨)

(١) يشير إلى قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائبىا طوعا أو كرها ، قالتا أئبنا بلطفين » .

٤ - وهناك أصول لوضع العمل الاجتماعي على قاعدة (الصراط المستقيم) عن طريق استعمال الفرص التي تأتي في وقتها ، وليس اتخاذ قرارات كبيرة على أساس تفاؤلات المستقبل . وصحيفة المدينة التي أرسى الرسول دعائمها في السنة الأولى للهجرة هي مثال من أمثلة العمل الاجتماعي فحين هاجر النبي ﷺ من مكة ، وذهب إلى المدينة كان بها بالإضافة إلى المؤمنين جماعة كبيرة من المشركين واليهود أيضاً . ورغم أنه قدير للمشركين واليهود أن تكون نهايتهم - فيما بعد - في المدينة - إلا أنه في المرحلة الأولى رأى رسول الله ﷺ أن يتبع معهم أقل درجات المواجهة فاصدر صحيفة اعتراف فيها بوجودهم . وأعلن أن (اليهود دينهم وللمسلمين دينهم) بهذا الاعتراف الذي هداه إليه اليهود - أو بتعبير آخر المهادنة الإسلامية - كان يعد شيئاً من « الدرجة الثانية » إلا أن الرسول ﷺ امتنع بهذا الأمر في المرحلة الأولى ، ودات النتائج فيما بعد على صدق هذه الكلية التاريخية ، فالشخص الذي يقتنع في المرحلة الأولى بأن الأمر الثاني هو الأفضل سيفوز في النهاية بالشيء الطيب الأول وعلى العكس من هذا فمن يجرى منذ اليوم الأول وراء الشيء الأول فلن يناله ولن ينال ما هو أقل منه أيضاً .

٥ - يجب تجنب مواجهة العدو في حالة وجود عملية ردع بشعة ، وذلك إلى آخر حد ممكن فالبرنامج المستقبلي أمام المسلمين كان هو السيطرة بقدر الإمكان على المواقع الحيوية ادرجة أن الفريق للثاني كان يضطر إلى إخلاء الميدان بعد أن يضيق عليه ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال :

« وألجئهم إلى مضائق الطريق » (رواء الترمذي)

وهذه هي الحقيقة التي عبر عنها القرآن بقوله :

« أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أنهم الغالبون »
(الأنبياء)

فهذه الآية تشير إلى أن الإسلام انتشر دوماً عن طريق عملية التبليغ التي تتم في صمت . وهكذا أسلمت أهم الشخصيات في مكة ودخلت قبائل (غفار وهزينة وجهينة) وبقيّة أطراف مكة في الإسلام . كما أسلمت قبيلتنا المدينة (الأوس والخزرج) . وهكذا دخل معرضو الإسلام إلى حظيرة الإسلام تدريجياً . وأخذت تتسع دائرة الإسلام . وقريباً يأتى الوقت الذي لا يكون فيه أمام أهل مكة من مخرج سوى أن يحاصروا من جميع الأطراف فيسلموا أسلحتهم ويستسلموا أمام الإسلام .

لقد أمر الإسلام بإعداد القوة . تكن ليس من الضرورة الاستخدام السريع لها بل هي قوة لأرهاب اعداء الإسلام « ترهبون به عدو الله وعدوكم » . ولهذا يقول نبي الإسلام :

(نصرت بانرعب مسيرة شهر) ويريد الرسول أن يقول : إننى أخبرت بأسلوب للعمل أقوم فيه بالاكتماء باظهار القوة بدلاً من استعمالها . ويتم النصر عن طريق مجرد الإرهاب والتخويف . وكان من نتيجة هذا الأسلوب انه رغم قيام النبي بنحو ثمانين غزوة وسرية . فإن الغزوات التي حدث فيها قتال لم تتعد التسع غزوات فقط . أما الغزوات الأخرى فقد حصل فيها النصر على الأعداء بالإرهاب والتخويف .

ولقد أدى انتشار العلم والرقى الصناعى في العصر الحديث إلى وجود فرص جديدة لا حصر لها لهذا الأسلوب من العمل ، فقد قامت اليابان بعد الحرب العالمية الثانية باستعمال طريقة كان من نتيجتها أن

ضاقَت الحياة بأمرِكا في اليابان مما اضطرها إلى ترك اليابان ، بينما اليابان لم تستعمل أية قوة عسكرية أو سياسية ضد أمريكا .

٦ - والأصل الأخير بل الأهم في هذا الأمر هو الميل إلى الواقعية والحقيقة ، ومعروف أن تقبل الحقيقة أمر صعب على النفس البشرية ، إلا أن الله قد أرشدنا عن طريق رسوله ﷺ إلى أساليب عملي من أجل الجهاد الاجتماعي .

وهنا لابد لنا أن نسأل : ما معنى الواقعية وقبول الحقيقة . . ؟
معناه اللجوء إلى تحكيم العقل في اتخاذ الأمور بدلا من اتخاذها في حمية رد الفعل العاطفي . وإدراك الأسباب والعوامل الحقيقية بدلا من الانسحاق وراء الرغبات والميول الظاهرية والغمل طبقا لها .

إن قبول الحقيقة يقتضى رسم خطط العمل بناء على الفرص البعيدة بدلا من الحصول على انتصارات فورية سريعة . ويجب وضع القوى الحاسمة كهدف يمكن بعد تحقيقه أن يصبح العدو بلا تأثير وبلا حول ولا قوة .

لا يمكن أن نجد كلمة أكثر تعبيراً من « الواقعية » (وحب الحقيقة) نصف بها المنهج الذى أمضى عليه ﷺ الدعوة الإسلامية ، كان أمامه في مكة ، بل في حرم مكة (٣٦٠ صنماً) (وفي بعض الروايات أكثر من هذا) . إلا انه لم يجر أية عملية سريعة أو عنيفة لإخراجها من الكعبة ، وكان على بينة من (الفوايا الاستعمارية) للعرب المحيطين بها ، ومع هذا لم يصدر « أى بيان » ضدهم ، ولقد حاك أهل مكة المؤمرات لقتله ، إلا أنه لم يتصرف كقائد (ثورى) فيقدم نفسه لهم ليروح شهيداً بل ترك مكة وخرج فى صمت، وحين قدم وفد الانصار إلى مكة وتمت البيعة قال قائدهم :

« يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى
عداً بأسياقنا » (تهذيب سيرة ابن هشام مجلد ١ ص ١٠٩)

فقال له الرسول : (نحن لم نؤمر بهذا ، عودوا إلي دياركم) .
وكانت خبير بصفة دائمة مركزاً لإحاطة المؤتمرات ضد النبي . إلا أنه
لم يتخذ ضد أهل خبير أى عمل عدواني مثل أن يعقد معاهدة مع أهل
مكة حتى لا يشتركوا مع أعدائه ويحاربوه . واثناء صلح الحديبية تار
قادة قيش ثورة عارمة لدرجة أن جميع الصحابة غضبوا وثاروا ما عدا
« أبا بكر » إلا أن النبي ﷺ قام بصبر وتحمل بإثبات (خاتمه الشريف)
على معاهدة الصلح .

فقد أعطى القرآن الكريم أهمية كبيرة لأسلوب العمل هذا الذى
يتصف بالواقعية والحقيقة والصبر .

وقد جاء فى آخر سورة هود إرشاد للمسلمين بالألا يغرنهم النجاح
العارض لبعض الناس فيظنوا أن أسلوبهم فى العمل أفضل من الأسلوب
المقدم لهم فيسلكوا سبيل أولئك الناس . إن مثل هذا البلاء ابتلى به
اليهود ، فظهرت بينهم الفرقة . وحددوا عن الطريق المستقيم إلى
طرق معوجة : فلا تفعلوا هذا وإلا فاحشوا أن تمسكم النار فتحرموا
من عون الله . وهذا هو الفلاح الحقيقى (١) .

أسس النصر وقواعده

وعد الله الإنسان الذى يمضى على الصراط المستقيم أن ينال
النصر :

« ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

(الفتح - ٣)

(١) يقصد المؤلف قوله تعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم (الس قوله تعالى)
الس قوله تعالى) وانظروا أنا منظرون !

وبقدر ما يكون النصر الالهي مؤكدا بقدر ما يكون هذا الامر مؤكداً ايضاً وهو أن أجدا لن ينال نصر الله بدون حق ، وهذه سنة الله ولا تبديل لسنة الله^(١) ، (فاطر ٤٣) أما اذا كان هناك إنسان وصل لخاله الاضطرار ، فانما يكفيه الدعاء للينال النصر شريطة أن يكون قد بذل كل جهده البشري .

« أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » .

(النمل - ٦٢)

وكأنما شرط استحقاق الإنسان المضطر للنصر هو أن ينطق فقط بكلمات الدعاء ، فينال نصر الله ، إلا أن الإنسان أو الجماعة التي لا تكون في مقام الاضطرار ، فيلزمها بالاضافة إلى الدعاء ، شرطان آخران : الأول : أن يعمل الإنسان وأن تعمل الجماعة طبقاً لهذا الدعاء :

« اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

(فاطر - ١٠)

ويستعين بهذا الدعاء الإنسان الذي يطلب النصر في أمر ما . فاذا ما دعا شخص ما أن يهبه الله معرفة اسرار ولحكام القرآن فعليه أن يعمل بما يتناسب هذا الدعاء ، أي عليه أن يتدبر ويتفكر في كتاب الله . واذا ما قام شخص ما بطلب النصر والتوفيق في أمور المعاش فعليه أن يبذل ما أمكنه من جهد على طريق الكسب والمعاش^(٢) . ولو طلب الانتصار والتوفيق ضد اعدائه فعليه أن يتحد مع إخوانه :

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . (الأنفال - ٤٦)

(١) يقصد قوله تعالى : « فلن تجد لسنة الله تبديلاً وإن تجد لسنة الله تحويلاً » .

(٢) يقصد المؤلف قوله تعالى : « ماذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض » .

وإذا أريد الدعاء بالنصر على أعداء الإسلام فإن الطريقة هي القيام بدعوتهم إلى الله . ومحاججتهم بشتى الطرق : سنة الله هي ألا يهلك جماعة ما دون أن يختبر سلوكهم اطلاقاً كاملاً (١) .

(الأنعام - ١٣١) .

والضرورة الثانية لإثبات استحقاق فضل الله هي الصبر أمام المعارضين : أى للصبر على ايدائهم (٢) : (إبراهيم - ١٢) : وهذا الصبر هو الجانب السلبي من العمل الايجابي سابق الذكر . والهدف من هذا هو عدم اتخاذ أى إجراء انفعالى ضد المعارضين . فبدلاً من الخضوع له تتفوق عليه : وبدلاً من تقديم الخدمات له نتحمل المصائب والمتاعب التى يسببها : وبدلاً من أن نسأله ونقف على يابه . نتبع طريق المقاومة الصامتة .

وقد وعد الله بتحقيق النصر العظيم : اذا تحققت هذه الشروط : وحتى لو كان المسلمون عشرين فيسلبون من أهل الباطل مائتين « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » ، ويمكن أن تنقل النسبة عن هذا . كما أثبتت الأحداث والوقائع المتعددة فى التاريخ الإسلامى ، إلا أن الأساس هنا هو أن الفرق بين الجماعتين هو فرق باعتبار الكمية وليس النوعية : فما لدى أهل الباطل اذا كان يساوى (مائتين) فيجب أن يساوى لدى أهل الحق (عشرين) من الشئ ذاته وليس من شئ آخر : أى أن أهل الباطل إن سلحوا بمائتى (بندقية) فيجب أن يكون لدى المسلمين أيضاً عشرون بندقية . وعلى العكس من هذا فإذا وجد لدى طرف مئتا بندقية ولدى طرف آخر عشرون سيفاً ، فإن هذا الوعد لن يتحقق : لأن الفرق فى هذه الحالة لم يعد فى الكمية بل فى النوعية .

(١) بقصد المؤلف قوله تعالى : « ذلك ان لم يكن ربك . تلك القرى بظلمة » .

(٢) بقصد قوله تعالى : « والصبرين على ما ألبسونا » .

وهكذا فإذا كان لدى المسلمين علم تاريخي أدبي ، ولدى أهل الباطل علم تقني فني أو إذا كان المسلمون مسلحين بالعاطفة بينما يحمل أهل الباطل خزائن العقول والفكر (١) ، وإذا كان لدى المسلمين جهل بالتاريخ واطلع أهل الباطل على التاريخ والموا بدلالاته وإذا كان لدى المسلمون ثروة من الاختلافات بينما أهل الباطل متحدون متكاتفون . وإذا كان لدى المسلمين فوضى واضطراب ، وتمتع أهل الباطل بالتخطيط . وإذا امتكأ أهل الإسلام للقوى القديمة كلها بينما امتكأ أهل الباطل القوى الجديدة . فلا يجب حينئذ أن يتوقع المسلمون استحقاق النصر من الله ضد أعدائهم ، لأنه في الحالات السابقة جميعها فإن الفرق (فرق نوعي) (٢) ، وإذا ما وجد الفرق النوعي ، فلن ينزل أي نصر من الله على أي عدد مهما كان ، وهكذا فعلى المسلمين أن يقضوا على هذا (الفرق النوعي) إن وجد ، حتى يرتفعوا على مستوى الفرق الكمي ، وبعدها يستحقون النصر الإلهي ، فالشأن فيمن يثبت على الصراط المستقيم أن ينال نصر الله ، وليس معنى هذا أنه لن يصاب بأي ضرر . فلا شك أنه أثناء الكفاح والجهاد سيتعرض لأنواع من المصائب والمتاعب ، ويتعرض لهزيمة مؤقتة تماماً مثله مثل الفريق التالي ، إلا أن النصر النهائي سيكون مع ذلك الفريق الذي تمسك بصراط الله المستقيم وظل قائماً عليه لا يحيد عنه !!

لقد تعرض المسلمون عبر التاريخ الإسلامي إلى العديد من الأضرار والمصائب ، ونال المسلمون هزيمة ثتيلة في غزوة أحد (شوال سنة ٣ هـ) نظراً لتصرفهم المنحرف ضد الأوامر النبوية العسكرية ، وفي

(١) هذه مقارنة مشابهة من المؤلف نستحق التويه بها (المراجع) .

(٢) أشع متعمداً أقواساً حول مصطلح (الفرق النوعي) حتى يتأمله القارئ الكريم .

فهو أمر معسرى في نقبنا لسنة الله (المراجع) .

غزوة حنين (سنة ٨ هـ) لم يكن نظام المسلمين في التجسس قد اكتمل بعد ، فحين نزل الجيش الإسلامي إلى الوادي قام العدو الذي كان يختفى خلف الجبلين بامطار جيش المسلمين بوابل من السهام ، ولم يكن أمامهم من سبيل للنجاة •

وفي حصار الطائف (لذي القعدة ٨ هـ) اضطر المسلمون إلى فكه والعودة منه بعد أن أصيبوا بخسائر جسيمة لمدة ثلاثة أسابيع •

وفي مؤته (جمادى الأولى سنة ٨ هـ) وهي الغزوة التي استشهد فيها سبعمائة من بين ثلاثة آلاف مسلم ، ورأى القائد العسكري المسلم خالد بن الوليد أن يعود إلى المدينة وينجو ببقية الجيش ... في تلك الغزوات . لا يمكن تقدير الأمر على أنه كان في نوعية استعدادات العدو ... بل هو لمحض اختبارات من الله !! •

وقد آمن الناس - طبقاً لوعده القرآن الكريم أن هذه الهزائم هزائم وقتية يتعرض لها الجهاد الإنساني وملاهم اعتقاد عظيم عام ساد بين المسلمين فحواء أن ما يصيب البعض منهم ليس خسارة ، لأن من يستشهد يذهب إلى الجنة بعد استشهاده ، وتضحيته هذه تعطى للأحياء منهم حق النصر الإلهي ، الذي يفتح لهم باباً جديداً من الانتصار •

وفي أيام خلافة عمر الفاروق رضي الله عنه حين ذهب ربعي بن عامر إلى بلاط رستم وعرض عليه الإسلام قال لرستم : اننا سوف نجاهد حتى نزال وعد الله ، فقال له رستم : ما هو وعد الله ؟ أجاب ربعي بن عامر : « الجنة لمن مات على قتال من أبي والظفر لمن بقي » •
(البداية والنهاية)

ولا شك أن معيار العزم والفداء الذي أظهره أصحاب رسول الله ، لو ظهر في جماعة أخرى ، فإن نصر الله يصبح يقيناً ومؤكداً ... فسنة الله تحكم الجميع .

لقد كان هؤلاء الذين نصرُوا الإسلام هم الرجال الذين رأوا وهم يبايعون رسول الله أن معنى وضعهم أيديهم في يد الإسلام (بيعتهم) إنما يعنى أداء فرائض ومستلزمات هذه البيعة إلى آخر مدى : حتى لو اضطروا إلى الفناء تماماً على هذا الطريق ، فالبيعة تعنى بالنسبة لهم الموت .

فكان معنى الطاعة في داخلهم يعنى استعدادهم الفوري لتنفيذ ما يطلب منهم .

عن أبي ثعلبة الخشني رضى الله عنه قال : كان الناس إذا نزلوا تفرقوا في الشعاب والأودية ، فقال رسول الله ﷺ : إن تفرقةكم في الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان فلم ينزلوا بعد ذلك منزلاً إلا انخس بعضهم إلى بعض حتى لو بسط عليهم ثوب لوسعهم .

و حين دخل كل صحابي الإسلام لم يكن يبق لخط نفسه شيئاً فخط الإسلام هو الخط الذي لا خط لسواه !!

و حين سأل النبي ﷺ الناس رأيهم قبل غزوة بدر قال سعد بن معاذ الذي كان يمثل الانصار : يا رسول الله خذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت .

إن هؤلاء هم الناس الذين حرروا أنفسهم وخلصوها من جميع أنواع العقد النفسية ، ومن جميع التحفظات ثم دخلوا دين الله ، ومثل هؤلاء الناس إذا اجتمع منهم عدة مئات ، أمكنهم ان يحركوا التاريخ الإسلامى حركة لا ينتهى تأثيرها إلا إذا انتهى — في عالم العقول والنفوس — ذلك المنهج الذى كانوا قد قاموا على هديه بحركتهم !!

منهج الدعوة إلى الإسلام

يقول عز وجل في محكم آياته :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وهوسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » (الثورى — ١٣)

وهكذا لم تقل الآية القرآنية (أقيموا الدين واقضوا على الباطل) بل جاء فيها « أقيموا الدين ولا تتفرقوا » هذا فيما يتعلق بإقامة الدين. فالحالة التي جاء فيها الأمر بالإيجاب والحالة التي جاز فيها الأمر بالمنع والنهى هما — طبقاً لما ورد في الآية الكريمة — حالتان تتعلقان بالدين ذاته ، وقد جاء الأمر بترك حالة واتباع أخرى وكأن الأمر الذى جاء فى الآية لم يكن إقامة الدين فى مواجهة إقامة الباطل بل جاء الأمر بإقامة الدين فى مواجهة التفريق فى الدين .

لقد كتب المفسرون أن المقصود بالدين فى هذه الآية هو الدين الأساسى ، لأن الدين الأساسى كان واحداً بين جميع الأنبياء ، وفيه يمكن أن تكون التبعية المشتركة للجميع ، أما الشريعة المفصلة فيوجد فيها اختلاف طبقاً لتصريح القرآن الكريم « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ، ومن هنا فلا يمكن اتباع جميع الأنبياء فى وقت واحد فيما يتعلق بالشريعة المفصلة ، ولم يكن الفرق الموجود بين الأنبياء بالنسبة للشريعة المفصلة قائماً على أساس أى تطور تشريعى بل كان قائماً على أساس الفرق بين الظروف ومراحل الدعوة . وهذا الفرق موجود الآن أيضاً بين مختلف الفرق الإسلامية وسوف يظل على الدوام ، ويمكن أن نعبر عن هذا الأمر بعبارة أخرى

وهي أن الدين ينقسم إلى قسمين : قسم مطلوب بحالة واحدة على الدوام ، وآخر يكون تابعاً للظروف ، والأول يتعلق بالتعاليم الأساسية وقد جاء ذكره في القرآن الكريم باسم « الشورى » والقسم الثانى الشريعة أو المنهاج أى القوانين الفرعية وأسلوب العمل ، والقسم الأول عبر عنه القرآن بكلمة « سبيل » والقسم الثانى من الدين ذكر باسم « سبل » ولهذا فالقسم الأول يظل باقياً على الدوام واحداً ويظل دعوياً به لجميع الأزمنة وسيظل السبيل الواحد ، وعلى العكس من هذا فإن القسم الثانى من الدين يتعلق بالظروف ، ويمكن أن يكون فيه احتمال أكثر من شكل واحد ، والحكم هو : أقيموا الدين ، دعوة الدين ، ولا تقيموا سبلاً متفرقة ، انشغلوا بإقامة الدين المتفق عليه . ولا تندفعوا وراء لدين المختلف فيه فتتفرقوا •

ويخاطب القرآن الكريم المؤمنين فى عدة مواضع فيقول :
« إن الله قد حدد لكم صراطاً أو سبيلاً فامضوا عليه ولا تتبعوا سبلاً أخرى متفرقة ، وإلا ضللتكم وابتعدتم عن الصراط المستقيم •
وعبر القرآن الكريم عن هذا السبيل بأنه الدين القيم (١) ، حبل الله (٢) سواء السبيل (٣) الصراط المستقيم (٤) وغيرها ، وفى سورة الأنعام وبعد تقديم بعض الأحكام الأساسية ، يقول تعالى :

« وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذاكم وصاكم به لعلكم تتقون » (الأنعام — ١٥٣)
وليس المقصود بالسبل فى تلك الآية طرق الكفر والشرك بل تلك السبل التى تخرج فى الدين باسم الدين ، (قال مجاهد : السبل البدع — القرطبي) •

(١) البينة .

(٢) آل عمران .

(٣) المائدة .

(٤) الأنعام .

فما يريد الله تبارك وتعالى من عباده جاء ذكره بوضوح في القرآن الكريم ، أما كيف يتم تطبيق التعليمات القرآنية بصورة عملية في الحياة فهذا موجود في حياة الرسول وأصحابه ، فيجب على الإنسان أن يقوم على الدين الثابت من ناحية العقيدة والعمل الذي صح عن رسول الله . . أما إسقاط الآراء والأهواء على الدين فهذا أمر لا يقبل إسلامياً بلا خلاف بين المسلمين الفقهاء بدينهم . . وهو من الضلال والتفريق على سبيل مختلفة ، وثأته أن يبعد الإنسان عن الصراط الإلهي الأساسي ، فالإنسان نفسه يعتقد أنه يمشى على هدى الدين بينما هو لا علاقة له بالدين الإلهي الأساسي .

الفرق بين الدين والشريعة

ما الدين ؟

الدين هو التوحيد وجوهه عتراف المخلوق بخالقه ومالكة . وجعله محوراً لجميع اهتماماته فهو كل شيء بالنسبة له ، يسلم له نفسه . ويخضع له . . . هذا هو أصل الدين ، فمن ملكه ملك كل شيء ومن أخضعه أخضع كل شيء ، وعندما يضع دين الإنسان الحقيقي فلا يبقى للإنسان أي شيء حتى ولو زعم بشكل تمثيلي أو بأسلوب جدلي أنه متدين . والأمر الذي جاء في القرآن الكريم بإقامة الدين يتعلق بذلك الدين ، وما جاء في بعض سور القرآن عن هدف إقامة الدين إنما يعنى في الأصل إقامة التوحيد أي أن يلجأ العبد إلى الله وحده لجوءاً حقيقياً ، وأن يعبد وحده لا يشرك به أحداً فيعبده .

بالتالي — حتى عبادته ، فإذا قامت جماعة ما باثارة نزاع فقهي حول جزئيات العبادة أو المسائل المختلف عليها ، أو راحت تقيم جبهة سياسية تخدم الجماعة الحاكمة حتى ولو كانت معادية للإسلام باسم إقامة الدين فهذا لا يعنى أبداً « إقامة الدين » بل هو — بالعبرة القرآنية —

(اتباع للسبيل التفرقة) وهو أمر ممنوع تماماً في الدين وإن اثاره الممارك حول الأمور الثانوية أو القضايا المختلف فيها إنما يقضى على وحدة الأمة فالأمة حين تتفرق إلى فرق مختلفة فهي تحرم من نصر الله الاجتماعي ، وإقامة الدين إنما هو اسم للجهاد من أجل القضية (المتفق عليها) وهي قضية عبادة الله حق عبادته . وليس اثاره جدل ونزاع بين المسلمين في المسائل المختلف فيها .

فإذا كان المراد أصلاً من الدين التوحيد فسوف يضم بداخله دوماً جميع المسائل المتفق عليها في القرآن والسنة والتي لا تشمل وجود آراء أخرى .

وعلى سبيل المثال فإن قضايا (وجود الله) ووحديته . والدعوة إلى ربوبيته بين الناس ... مثل هذه الأمور ليس فيها اختلاف بين الأمة ؛ لأن هذه العقائد ثابتة بحكم الآيات والأحاديث ، وعلى العكس من هذا فإذا ما أخرجت لحلبة الصراع أبحاث مثل : هل لله جسم أو لا ؟ أين عرش الله ؟ هل الله قادر على خلق نظير أم لا ؟! (١) وغيرها من الأمور التي لا يمكن أن تتفق فيها الأمة كلها على رأى واحد ، لأن جميع هذه الأمور أمور استنباطية والخوض فيها يجعل البعض يأخذ اتجاه ما طربقاً لاستنباط شخص آخر بينما يأخذ البعض الأخر اتجاه آخر . وهكذا تظهر نتائج مختلفة ، وتتجمع حول كل (نتيجة) جماعة من المؤمنين بها ، لدرجة أن يتحول الدين الواحد إلى عدة أديان .

وهكذا يبدو لنا أن الجهاد في مجال المعتقدات (المتفق عليها) سابقة الذكر ، إنما هو وحده (الإقامة للدين) وعلى العكس من هذا فالقسم الثانى (أى المعتقدات الجدلية) سوف يوجد شقاقات وشروخاً

(١) لم يضيع المسلمون في تاريخهم ولم يبدو ملانهم الا الانشغال بهذه الجدليات الضاربة

القائلة التي نهن رسول الله عن الانشغال بها (المراجع) .

كثيرة في المعتقدات ، وهو ما يسمى بالمصطلح القرآني « التفريق في الدين » والشئ الأول مطلوب والشئ الثاني غير مطلوب .
هذا هو أسلوب معاملة تلك الأمور التي يقال لها عبادات . فمثلا :
الوضوء من أجل الصلاة مسألة متفق عليها ، إلا أن الآراء المتعلقة بعدد أركان الوضوء وشروطه آراء كثيرة ، وبصرف النظر عن عدد السنن والمستحبات هناك اختلاف في الرأي بين الفقهاء فيما يتعلق بفرائض الوضوء . فعند الحنفية فرائض لوضوء أربعة وعند المالكية سبعة وعند الشافعية والحنابلة ستة (١) ، فإذا ما جعل تحديد تعداد هذه المسائل المختلف فيها موضوعاً للبحث والمباحثة فلا يمكن أن تتفق الآراء فيما يتعلق بعددهم . وهذا سيكون سبباً في ظهور الاختلافات والفرقة ، وسوف يقسم الأمة الواحدة إلى عدة أمم ولهذا صدر الحكم في جعل مدار الدعوة قائماً على الأمور المتفق عليها ، وعدم جعل مدار الدعوة من الأمور المختلف عليها .

هذه المعاملة هي السياسة الإسلامية ، فإذا قام شخص فدعا الله أن يصلح الحكام ، والتقى بهم لقاء فردياً ونصحهم أن يعبدوا الله ويتعظوا بالآخرة . ثم أوضح جوانب السياسة الإسلامية عن طريق الكتابة والخطابة بأسلوب واضح مترن . فلن يكون هناك أي تفريق أو إشاعة للفتن بين رجال الأمة . وعلى العكس من ذلك ، إذا رفع بعض الناس راية الاحتجاجات والمطالبات وكونوا جبهة سياسية وقاموا بحركة تهدف إلى تنحية الحكام عن السلطة . فإن النتيجة الواجبة هي أن تصبح الأمة جماعات متفرقة ، إذ تنحاز فرقة إلى الحكام بينما هناك فرق أخرى ستعمل على تنحية الحكام عن السلطة ، وهكذا تنقسم الأمة إلى جبهتين تحارب إحداهما الأخرى ، وهكذا يظهر التفريق في الدين باسم إقامة الدين .

(١) راجع الفقه على المذاهب الأربعة .

أما فيما يتعلق بآداب الوضوء وقواعده فهذه مسألة استنباطية ، وهذا هو السبب في وجود آراء مختلفة لدى أهل العلم وذلك بالنسبة لتحديداتها ، وهذه الحالة هي حالة الرسالة السياسية للأمة الإسلامية . وهي كلها أيضاً معاملة استنباطية ، لأنه لا يوجد في القرآن والحديث نص يحدد صراحة نوعية المهمة السياسية وكانت النتيجة ظهور عدة آراء متعددة لدى أهل العلم في هذا الباب . وترى جماعة من جماعات وقتنا الحاضر - بإصرار - أن الهدف الأساسي للأمة المسلمة هو الجهاد لتأسيس حكومة إسلامية ، بينما يرى آخرون أن الحكومة أمر وعد لله المسلمين به أي أنها منحة من عند الله وليست هدفاً يبذل من أجله الكفاح والجهاد (١) ، وترى جماعة ثالثة أن أساس العمل هو إصلاح المجتمع وليس إصلاح الحكومة . فإذا ما أصلح المجتمع ظهرت تلقائياً الحكومة الصالحة ، وبالإضافة إلى هذه الاختلافات النظرية يوجد أسلوب يضم أموراً عملية حساسة جداً بالنسبة للحكومة وذلك حين تتم محاولة تنحية جماعة تسيطر على الحكم وسلبها لحكم ، فهي بالضرورة ستستخدم قوتها ضد معارضيها السياسيين . ونتيجة لذلك سيحدث سفك للدماء بين المسلمين ، وتنتج عن محاولة « إقامة الدين » « تفريق في الدين » وهكذا تكون نتيجة إقامة الدين (لتفريق في الدين) وهناك أمر يتعلق بالشرعية أيضاً إذ يحتمل وجود أكثر من وجهة نظر واحدة تتعلق بأمر واحد من أمور الشريعة . وتكون نتيجة محاولة تجميع الناس تحت راية واحدة ظهور العديد من الرايات ، ولهذا صدر الحكم دائماً بالأناجيل الأمور الإختلافية أساساً للحركة الإسلامية بل يجب أن تقوم حركتنا على أساس الأمور المتفق عليها فقط .

(١) يقصد المؤلف أن الله يعاقب من يملك المسنون مؤهلات العبادة والخلافة في

الأرضي ويكونوا في مستوى الخلافة (المراجع) .

ونتيجة لهذه الأسباب تحول نظام الخلافة إلى نظام ملكي في الصدر الأول ، وظلت على هذا الحال لمدة ألف عام إلا أن مسلمي الأمة الصالحين لم يخرجوا على هذا النظام . فقد قاموا بتقديم نصائح فردية للحكام إلا أنهم لم يقوموا بحركة انقلاب لتنحيتهم عن السلطة . فهذا فقط هو دين الحركات المنظمة في العصر الحاضر ، إذ ظهر بين المسلمين بعض الناس يتعاونون بأن الثورة السياسية هي أصل مهمة الأمة الإسلامية . . وكانت النتيجة أن أصبح المسلمون في كل بلد مسلم منقسمين إلى جبهتين : جبهة الحكام وجبهة المعارضين لثوار ، وتدور رحى الحرب السياسية بطريقة لا نهائية بين مجموعتي المسلمين . ولا تقدم لهم من هدية سوى هلاك البشر على المستوى الإسلامي العام ، وكل ما يحدث - الأسف - يحدث باسم « إقامة الدين » .

وفيما يتعلق بنوعية المهمة السياسية توجد آراء عدة بين علماء الأمة ، وهذا دليل على أن قضية الحركات السياسية هي قضية فرعية « للسبل المتفرقة » وليست مسألة فرعية (الدين) ولهذا فيحق للمصلح أن يقوم باصلاح حال الحكام المسلمين بالنصيحة إذا ما شاهد فيهم اعوجاجاً ، إلا أن لصدام السياسي مع الحكام باسم إقامة الدين يعني الانحراف عن كتاب الله وهو اتباع للسبل المتفرقة وليس إقامة الدين في حقيقة الأمر .

وليس معنى هذا التقسيم أن المطلوب من الدين هو الكليات فقط وأن الجزئيات ليست مطلوبة فالهدف فقط هو ملاحظة الفرق بين المطلوب الحقيقي والمطلوب الاضافي ، واتباع أسلوب التسامح في الأجزاء الاضافية مع التشديد على الأجزاء الحقيقية . ويمكن أن نفهم هذا من خلال مثال محدد ، فهناك قضية تتعلق بالطعام : ما هو الفرق بين الحرام والحلال . فالمؤمن يجعل من الحلال غذاء له ولا يدخل إلى حلقه

أى طعام حرام : والقضية الثانية هي مسألة آداب الطعام : فمثلاً هل يتناول الطعام بيده أو بالمعلقة ؟! هل يتناول الطعام جالساً على الأرض أو يتناوله جالساً على الكرسي إلى النضدة ؟! هل يتناول الطعام منتعلاً حذاءه أو خالِعاً إياه ؟! إلى غير ذلك : فالمسألة الأولى تدخل في كليات الدين فالنطق باسم الله يوضح بطريقة محددة ما هو الحلال وما هو الحرام بالنسبة للعبد : ولكن بالنسبة للأمر الثاني فلا يوجد بالنسبة له أى تحديدات فهناك أكثر من نموذج في سيرة النبي ﷺ وفي حياة الصحابة الكرام : ففي مثل هذه الحالة إذا ما قام رجل بالتشدد في مسألة الحلال والحرام المنصوص عليها : وجعل منها هدفاً يركز عليه : فلن تنقسم الأمة لأن التأكيد والتشدد هنا إنما يكون على نفس الأمور التي يتفق عليها علماء الأمة ولا توجد فيها أى خلاف فيما يتعلق بالأراء المختلفة . وعلى العكس من هذا لو تم التشديد على قضايا آداب الطعام فلن يكون هناك أى اتحاد في الرأي على أى مسلك تنتهجه الأمة كلها : وعلى سبيل المثال سيقول البعض أن هذه ليست مسألة انعدام شرعية لأمر جائز بل هي مسألة يمكن فيها اتباع الأمر السنه . لأن الحديث يقول : « اخلعوا نعالكم فانها اروح لاقدامكم » ومن هنا فالمنهج الصحيح هو « كلوا من الخبيبات واعملوا صالحاً » (١) وعليه يتم التشديد والتأكيد ولكن يجب اتباع التسامح في الأشياء المتعلقة بنوعية آداب الطعام .

وحركة « أهل الحديث » هي في شكلها الأصلي والأساسي كانت خاصة بهذا الفهم المتمسك بالجزئيات : ومع أنها لم تقدر على البقاء على هذا المسلك : إلا أنها كانت - على الأقل - هي الحركة التي انتشرت على مستوى العامة بهذا الفهم !!

الدين الكامل كيف يتحقق ؟

إن الصراع الذي يدور بين مختلف البلدان بين حاملي لواء الثورة الإسلامية الشاملة « وبين حملة الدين المرحلي » هو في الحقيقة قائم على أساس لفهم الخاطيء « للدين الشامل » فالناس يرون إن الإسلام دين كامل على أساس القوانين الحضارية ، ومن هنا فإن إقامة الدين تستلزم إقامته كنظام حضارى كامل ، فإذا كان معنى الدين الشامل هو هذا ، فإنه يعنى إن دين إبراهيم عليه السلام كان ديناً ناقصاً ، فمن المعروف انه لم يقدم جميع القوانين والضوابط الحضارية ، وهكذا الأمر بالنسبة لمعظم الأنبياء بينما نص القرآن الكريم صراحة بقوله :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (١)

فالأصل إن الدين إنما جعل ، ليكون الإنسان موحداً بجميع المعانى ، وكمال الدين هو فى الأصل كمال التوحيد ، فالإنسان بقدر ما يعبد ربه بقدر ما يجعل من دينه ديناً كاملاً ، وبقدر ما ينسى ربه بقدر ما يكون دينه ديناً ناقصاً ، ومهما كتبت من مواد قانونية فلن تستكمل هذه المواد معنى « الدين » وعلى سبيل المثال فإذا أدرجت جميع الأحكام المتعلقة بعالم القرن السابع الميلادى فى القرآن الكريم ، فستظل هناك أمور قانونية كثيرة لم تستكمل مثل القوانين البحرية والقوانين الخاصة بالفضاء وغيرها ، وذلك لأن هذه القضايا لم يكن لها وجود فى ذلك الزمان .

والحقيقة ان الدين الكامل إن اخذ على هذا المعنى فإن الإسلام لا يبدو أيضا ديناً كاملاً .

الأمير همداني (نموذج للمسلم المثالي)

هناك مثال على المنهج الإسلامي سابق الذكر . نجده في تاريخ كشمير . وكشمير منطقة مشهورة بجمال طبيعتها ، إلا أن فيها ما هو أجمل وأعظم من جمال طبيعتها وهو نموذج المنهج الإسلامي الذي نجده في حياة الأمير سيد علي همداني (١٣١٤ - ١٣٨٤ م) وقد اشتهر في كشمير باسم « أمير كبير » وقد ترك بسيرته نموذجاً قابلاً للاحتذاء قل أن نجد له مثالا في القرون الحالية . فشمير هي كالجنة بطبيعتها الخلابة وهي (بأمير كبير) قدمت منهاجاً للدعوة الإسلامية ، وهذا المنهج اعظم كثيراً من جناتها ، وقد قال محمد اقبال (١٨٧٧ - ١٩٣٨ م) عن الأمير همداني :

« إن في يده منهج بناء الأمم » .

وهذا الرأي صحيح مائة بالمائة : فشمير المسلمة اليوم إنما هي نورة جهاده . الذي لم يتبع فيه أسلوب « السيف والرمح » أو « انتصايم مع الزمان » بل أتبع فيه أسلوب الهداية المحببة لدى معظم انقادة المسلمين في الوقت الحاضر . لقد حقق الأمير همداني النجاح والفلاح بعد أن ترك « السيف والرمح » وكان اعظم درس قدمه في حياته هو قوله : « ان اردتم بقاء الإسلام حياً فادعوا إلى الأبد فكرة التصارع والتناحر ، وتجنبوا تماماً إثارة الصراعات المذهبية والسياسية : وبعدها ستغالون نصر الله وتوفيقه ، وسيتحقق للإسلام العزة والرفعة ويعز الله المسلمين بإسلامهم » .

كان (الأمير سيد علي همداني) - من سكان ايران - معاصراً لتيمورلنك (١٣٣٥ - ١٤٠٥ م) وقد غضب عليه شاه تيمور لسبب

ما . وأصدر حكماً بنفيه من إيران ، ولم يكن إمام الأمير همدانى من سبيل إلا إعلان الجهاد ضد تيمورلنك والعمل على إقامة حكومة صالحة في إيران . حتى ولو كانت النتيجة الاستشهاد ، ولكنه (أمير كبير) أتبعه في أسلوبه - عن التصادم السياسى ، بل أخذ رفاقه الأربعة وخرج من وطنه (همدان) ، ووصل بهذه القافلة إلى كشمير سنة ٧٨١ هـ ماراً بأفغانستان ، وكان قد زار كشمير للسياسة من قبل في سنة ٧٦٢ هـ

ووصل إلى كشمير فواتته فرصة لإعلان حركة سياسية هناهضة للشاه تيمور ، وكان هناك أناس في زمان تيمور يكرهونه لأسباب سياسية ، كان يمكن للأمير كبير أن يقيم معهم تحالفاً للقضاء على السلطة التيمورية ، إلا أنه تجنب لأقصى حد أى نوع من هذا العمل ، وهكذا فتح الطريق أمامه ليمتلك زمام القيادة ، وكانت هناك قضية تتعلق بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية لمسلمى ذلك الوقت ، ومع أن أمير كشمير كان من أسرة مسلمة إلا أن مسلمى كشمير كانوا يمثلون أقلية فقيرة مستضعفة حتى قيل أنهم كانوا يضطرون إلى دفع نذور المعابد الهندوكية ، وكان يمكن للأمير همدانى أن يتوود حركة الزعامة التى تهدف إلى المطالبة بحقوقهم ، ويتمكن من أن يصبح قائداً للمسلمين إلا أنه لم يهتم بهذا النوع من السياسة الطائفية !!

وهكذا اتجه (همدانى) إلى الطريق الذى ارتضاه وهو أن يبلغ رسالته باسم « الإنسانية » وأن يقدم عظاته وخطبه بطريقة سلمية لجميع فرق كشمير المختلفة ، وتمكن بسرعة كبيرة من أن ينال مكانة محبة لدى الفريقين المتصارعين في كشمير ، لأن الفريقين أعجبوا به ، فقد راح يعمل على إيجاد وحدة بين الفريقين دون إثارة مسألة الحق والباطل ، وبطريقة لا يشعر فيها أى من الفريقين أنه خاضع لضغط ما .

وجدير بنا أن نقول في مجال المقارنة بين أسلوب همداني والأسلوب الثوري السياسي - إن النوع الثوري من الحركات مهما بدا ناجحاً على مستوى الاجتماعات والخطب (والشعارات) فإنه قد أثبت بصورة عملية وعلى الدوام أنه أسلوب فاشل ، بالإضافة إلى أن هذا الأسلوب ليست له علاقة مباشرة بالدعوة الإسلامية . وهو أسلوب من العمل رغم ما يبدو فيه من جانب ظاهر طيب إلا أنه يركز على قضايا الدنيا فقط بينما هدف الدعوة الإسلامية هو توجيه الناس إلى قضايا الآخرة .

وبرنامج « همداني » لم يكن قائماً على عملية رد فعل مضاد للشاه تيمور أو رد فعل متأثر بالظروف الوقتيّة لمسلمي كشمير الذين كان يحكمهم في ذلك الوقت حاكم مسلم هو (سلطان قطب الدين) وكان يؤمن بالعديد من الاعتقادات الفاسدة ويرتكب الكثير من الأعمال السيئة ، لكن همداني أرسل إلى السلطان رسائل عديدة مليئة بالنصح والارشاد واهتمت بضرورة اصلاح الأحوال . وهكذا لم يؤسس همداني حركة ثورية تهدف إلى عزل السلطان عن الحكم ووضع حاكم صالح مكانه ، بل ارتفع « همداني » فوق هذه العوامل واقام برنامجه الاصلاحى على أساس فكر ثابت ، ولم يكن لهذا البرنامج ميثاق (!!)

فقد كان برنامجه برنامجاً عملياً . لقد انتشر هو ومن معه من اخوانه في نواحي منطقة كشمير وبدأوا يبلغون الإسلام لأهالى هذه المناطق، تعلموا لغة الكشميريين وتأقلموا مع ظروف المنطقة . وتحملوا المتاعب الناتجة عن استيطان بلد غير بلدهم .

وهكذا عاش (أمير كبير) حياة الصبر والتحمل . وقام بحركته الاصلاحية في صمت وهدوء .

الإسلام في كشمير

مع أن دخول الإسلام في كشمير بدأ على يد محمد بن القاسم الثقفي (٦٦ - ٩٦ هـ) فإن انتشار الإسلام بدأ بصورة واضحة في كشمير أيام (سيد بلبل شاه قلندر التركستاني) ، وقبل سبعمائة سنة كانت كشمير إمارة خاضعة لأمير بوذي يدعى (رنيجن شاه) وقد أسلم هذا الأمير البوذي على يد سيد بلبل شاه ، ولما كان الناس - في ذلك الزمان (١) - على دين ملوكهم ، أسلم عدد من الكشميريين ، وكان بلبل شاه تابعا للمذهب الحنفي ، وهكذا اتبع المسلمون الكشميريون آنذاك المذهب الحنفي في عبادتهم ، وحين قدم (الأمير سيد علي همداني) إلى كشمير وبدأ الناس يسلمون على يديه ظهرت مسألة خلافة تتمثل في أي المذاهب يسلكون في عبادتهم ، فقد كان (همداني) نفسه شافعي المذهب بينما كان مسلمو كشمير على مذهب أبي حنيفة !! فإذا ما قام (أمير كبير) بتلقين هؤلاء المسلمين الجدد المذهب الفقهي الشافعي فالنتيجة الحتمية هي انقسام المسلمين إلى جماعتين من حيث المذهب : الجماعة التي أسادت على يده ثم بقية مسلمي كشمير ، فقد كان الخلاف بين الحنفية والشافعية يتعدى انفصال مدارسهما ومسجديهما إلى أصل عملية التبليغ ، في محاولة كل منهما اثبات صحة وأفضلية مذهبه الفقهي ، فإذا ما أصبح المسلمون في كشمير جماعتين منفصلتين ، بدأت كل جماعة تتحارب مع الأخرى فتضيع فيما بينهم تلك القوة التي كان يجب أن تبذل في سبيل نشر كلمة « الحق » وتمضي الأجيال ويستمر الاختلاف الذي لا ينتهي أبداً .

(١) ولا زالوا (المراجع) .

ولهذا قام (الأمير سيد علي همداني) بتبليغ أسس الدين فقط . ولم يثر أبداً أي بحث يتعلق بالمذاهب الفقهية . ولقد احتاط حتى إنه أخفى عن متبعيه مذهبه الشافعي وكان يصلى مع المسلمين جميعاً بالطريقة الحنفية . وكان يندح زملاءه بأداء العبادات طبقاً للمذهب الحنفي ، وكانت النتيجة أنه وجد فرصاً مناسبة ليؤدي — دون نزاعات جانبية — رسالته في كشمير ، ففاز بتعاون جميع الطبقات ، وظل في أمن . بعيداً عن الدخول في مناهات القضايا الفرعية . وقد نجح في نشاطه في سبيل الدعوة الإسلامية حتى أصبحت كشمير منطقة تضم أغلبية مسلمة حتى الآن ، ولو قام (أمير كبير) بإثارة جدل حول المذهب الحنفي والمذهب الشافعي لما حالفه النجاح في تلك المنطقة : ولو حقق بعض النجاح فسيكون على حساب انقسام مسلمي كشمير إلى فريقين متصارعين .

وليس معنى هذا ان الناس الذين يمشون على هذا الطريق لا يفتشاً بينهم اختلاف . وأحوال « أمير كبير » نفسه تدل على هذا . فحين كان في الثالثة والسبعين قدم له بعض الأشرار من منطقة (بكهلي) (بكشمير) السم فكانت وفاته إلا أن هذا النوع من الاختلاف إنما يكون نتيجة لأسباب شخصية ، تهدف إلى الأضرار الشخصية بالداعية فقط ، بينما إنشاء فرقة دينية عن طريق تحويل مسألة غير دينية إلى مسألة دينية يعد جرمًا كبيراً ، إذ يسلب الجماعة المسلحة جميع النعم التي قدرها الله لها كجماعة تحمل كتابه وتستمسك بصراطه المستقيم .

وحياة (أمير كبير) إنما هي مثال عملي ناجح تماماً لاسلوب العمل الاسلامي ، فالشيء الذي ركز عليه في كتابه ونشاطه من أجل الدعوة كان قضية (التوحيد والآخرة) ، ولم يثر على الإطلاق أية

قضايا أخرى كالقضايا السياسية أو الاقتصادية أو الفقهية فقد كان يركز أساساً على أصل الدين ، وليس على فرعيات الدين • وليس معنى هذا أن السياسة والاقتصاد عنده أمور خارجة عن الدين ، أو أنه كان يعدها أموراً غير ضرورية من ناحية الآداب والمناسك • فقد كان يعرف أهمية كل منها ، واتبع كل شيء اتباعاً عملياً إلا أن الشيء الذي ركز عليه كأساس لعمله هو الدين المتفق عليه وليس « السبل المتفرقة » !!

كان « أمير كبير » يصلى مراعيًا جميع شروط الأحكام الفقهية ، ولم يسع أبداً وراء الاختلافات الفقهية أو اثبات خطأ مذهب ما وترجيح مذهب آخر ، وقد اتخذ أيضاً منهجاً اقتصادياً ، والا فكيف كان يمكنه ورفاقه أن يعيشوا ، ولكنه لم يجعل حل القضايا الاقتصادية أو العمل على وحدة الأمة كلها قضية يقيم عليها أساس حركته ، وهكذا ورغم أنه لم يرفع شعار السياسة إلا أنه كان يتبع سياسة عميقة وراسخة، ولو لم يتبع هذا الأسلوب لما كانت لكشمير اليوم هذه المكانة ، فهي الولاية الوحيدة بالهند التي بها وزارة مسلمة ، ولا مجال لقيام أية وزارة من أديان أخرى • وهذه الهيئة السياسية التي نتمتع بها كشمير إنما هي نتيجة لدعوة « أمير كبير » •

ومع أنه لم يمض حياته كلها على أي برنامج سياسي بالمعنى المعروف ، ولم يعترف به أحد « كقائد سياسي » ومع أنه لم يسع وراء شيء كهذا ، وقام فقط بالاستمسك بالحقيقة المطلقة • فإن كل الأشياء قد سعت إليه بعد ذلك ، ونال كل ما أراد أن يحققه من نشر دين الحق بين أهل منطقة كشمير !!

والخلاصة أن أهمية الدين تكمن أساساً في نجات الإنسان كلية من الشرك ، وتركيز جل اهتمامه على الله الواحد فقط ، وهكذا تدين له الحياة بأكملها • ومن الضروري لنا أن نؤكد قبل كل شيء على هذا

الأمر . وأن نجعل من هذا الأمر أساساً للدعوة والتبليغ . وبعدها يلزم اتباع طريقة ما فيما يتعلق بالمستلزمات الدينية المطلوبة في المعاملات التفصيلية . تتطابق مع الظروف . وبالتالي لا يجوز أن نتخذ من تلك الأشياء أساساً لحركة الدعوة . فالإنسان حين يتخذ من مسألة ما أساساً لحركة الدعوة فهو يجعل للمسألة الفرعية نفس مكانة المسألة الأساسية . ومثل هذا النوع من العمل من شأنه أن يصيب نظام الدين بالاضطراب . ويدخل عليه الفوضى — فإذا أعجبك مذهب فقهي خاص أو رأى ما فلتتخذه مذهباً أو رأياً لك . ولكن لا يجوز أن تقيم على أساسه مسجداً أو مدرسة . وإذا كنت تحترم طريقة ما فليكن لك ما تشاء ، ولكن لا تجعلها أساساً أو ميزاناً إسلامياً تقيس به الآخرين . فإذا أقام حاكم مسلم نظاماً على أساس الملكية أو الجمهورية . ورأيت أنت أن النظام الصحيح هو أي نظام آخر فلا تجعل من تلك المسألة محل نزاع سياسي في البلاد . وإذا كانت لديك بحسيرة ، ورأيت حقوق أمنك الاقتصادية والاجتماعية قد سلبت فاعرض لدى أفراد الأمة العاطفة التي تمكنهم من القيام بالدفاع عن حقوقهم بقوة وأمانة وحل قضيتهم ؛ ولكن لا تشر فيخانات الاحتجاجات والمطالبات ضد من تفترض أنت أنهم ظلمة . فمثل هذا النوع من السلوك إنما هو ابتعاد عن سبيل الدين الواحد ، وهو سعى وراء السبل المتفرقة . ومثل هذه المحاولات مهما كانت تحمل من حسن النوايا فهي تنتشر — في الواقع — الفساد فقط ، إذ هي لا تبعد الإنسان عن عبادة الله الحقيقية فقط ، بل تصبح سبباً في تمزيق الأمة وتفريق الجماعات ، والله لا يحب بث الفرقة بين أهل أمته ، ولا يمكن لمن نالوا نصر الله — إن فعلوا هذا — أن ينالوه مرة ثانية ، كما أن الفرقة لا يمكن أن تعيد للأمة وحدتها السابقة ؟

(١١) هذه المحاضرة القيت في الاجتماع السنوي لجمعية أهل الحديث ، جمون وكشمير ، في سربنكر ٣٠ يوليو ١٩٧٨ م .

السيرة النبوية النموذج الاعلى للحركة الإسلامية

ان كتب السيرة التي تناولت حياة النبي ﷺ هي من حيث المجموع تتحدث عن نبي الاسلام كشخصية من الشخصيات المعجزة — فهذه الشخصية — كما تصورنا معظم هذه الكتب قامت بأساليب فوق النطاق البشرية للسيطرة على العرب جميعا .

وكتب السيرة تتحدث عن قصص الكرامات والمعجزات التي لا نجد لها مثيلا في التاريخ الانساني وقد بولغ في هذا الأمر لدرجة أن الناس اضافوا خيالات لتلك الأحداث التي لا توجد فيها جوانب تتسم بالاعجاز . وعلى سبيل المثال فإن ما جاء في أمر هجرة صهيب بن سنان الرومي رضى الله عنه حين تحرك من مكة فاعترضه بعض شباب قريش ، فقال صهيب : اذا ما أعطيتكم مالي وعتادي تركتموني ، فقلوا له : فأعطاهم صهيب بعض ما كان عنده من ذهب ووصل إلى المدينة سالما . وتنسب هذه الرواية إلى البيهقي اذ يقول : « فلما رأى (أى الرسول) قال : يا أبا يحيى : ربح البيع فقلت يا رسول الله ما سبقني اليك أحد . وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام » .

إلا أن (ابن مردويه) (وابن سعد) ينقلان نفس الواقعة هكذا :

« فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب » (مما يوحى بأن النبي كان قد بلغته القصة !!)

فالحقيقة أن حياة النبي ﷺ بأكملها كانت في الواقع حياة انسانية بسيطة ، ولهذا فهو مثال يحتذى للمسلمين ، ونموذج رائع ننتهج نهجه ،

فهو إنسان يمشی على الطریق ، ویتعثر أيضا کثیره من عامة الناس ،
ولهذا كان الناس یتعجبون : « فانك تقوم بالأسواق وتلتصم للمعاش
كما نلتصمه » • (البداية والنهاية)

والحقیقة ان عظمة حياة النبی ﷺ تتمثل في الجانب الانسانی
لهذه الحياة وليس في قصص إعجازه المليئة بالأسرار وتوفيقه کامن في
نصر الله له ، ومن هذا الجانب فهو بلا شك شخصية معجزة • ومن هنا
فان ظهور هذه المعجزة الالهية انما كان على مستوى « التبشير بالرسول »
وليس على مستوى الكرامات الشخصية •

وتتطلب صورة رسول الله في القرآن مع صورته الحقيقية على
ظهر هذه الأرض •

بداية الدعوة

حين نزل الوحي على رسول الله ﷺ وهو في غار حراء • وكان
في الأربعين من عمره ، ترك لديه رد فعل قوى ، وهو رد فعل كان يمكن
ان يحدث لأي « انسان » عادي ، فقد عاد إلى بيته خائفا مرتعدا •
حيث تقيم زوجته خديجة ، وكانت هي نفسها بصرف النظر عن حادثة
الوحي في وضع يمكنها من أن تقيم رأيا محايدا ، فقالت للنبي ﷺ :
« كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب
المعدم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق »
(متفق عليه عن عائشة) •

وفيما يتعلق بحركة الدعوة ، فقد كان ما حدث للنبي شيئا طبيعيا ،
وتعرض لما يتعرض له أي داعية في بيئة جديدة ، فقد استلزمت
الظروف أن يبدأ دعوته سرا •

« ذكر ابن اسحاق أن علي بن أبي طالب جاءهما وهما يصليان ، فقال علي : يا محمد ما هذا ؟ قال : دين الله الذي اصطفى لنفسه ، وبعث به رسوله فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له . وإلى عبادته وان تكفر باللات والعزى فقال علي : هذا أمر لم اسمع به قبل اليوم فليست بقاض أمراً حتى أحدث به أبا طالب . فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره . فقال له : يا علي إذا لم تسلم فاكتم . فمكث علي تلك الليلة ثم إن الله أوقع في قلب علي الإسلام . فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال : ما عرضت علي يا محمد ؟ فقال له . رسول الله ﷺ : تشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد . ففعل علي وأسلم . ومكث يأتيه علي خوف من أبي طالب . وكنتم على إسلامه ولم يظهره (١) .

وحين عاد المسلمون الأوائد من الأوس والخزرج إلى يثرب كانت هذه أيضاً هي طريقتهم . في القيام بالدعوة سرا . (فرجعوا إلى قومهم يدعونهم سرا — الطبراني) .

لقد اهتم النبي ﷺ طوال حياته اهتماماً شديداً بالأيتخذ أي اجراء قبل أن تنتهيا له القوة اللازمة لاتخاذ هذا الاجراء . تقول عائشة رضي الله عنها : إنه تجمع لدى النبي ﷺ ٣٨ صحابياً . فطلب أبو بكر رضي الله عنه من النبي ان « يظهر » وأصر علي ذلك : (أي أن يأتي أمام الناس ويبلغهم دعوته جهراً) فما كان من النبي إلا أن قال : « يا أبا بكر إنا قليل » وهكذا حين اسلم عمر في السنة السادسة للبعثة قال للنبي : يا رسول الله لم نخفى ديننا ونحن على الحق ؟ فدين الآخرين ظاهر بينما هم علي باطل ؟ • فأجابه النبي : « يا عمر إنا

(١) البداية والنهاية مجلد ٢ ص ٢٤ .

قليل » ، وظل هذا هو أسلوب النبي ﷺ حتى كانت الهجرة ، ونظمت القوة الإسلامية ، وتركزت في مكان واحد . وقدمت قريش بجيشها لاستئصال هذه القوة . وهت مدر الأذن بالواجبة . وفي غزوة بدر حين بدأ أصحاب الرسول في مواجهة أعدائهم قال لهم النبي ﷺ : « هذا يوم له ما بعده ، وكان وقت اتخاذ الإجراءات العملية قد حان . ودنك حين أصبح المسلمون في وضع يمكنهم من تشكيل مستقبل جديد للدين للحنيف عن طريق اتباع هذه الإجراءات العملية التي بدأوها آنذاك . وقبل ذلك لم يسمح لهم باتخاذ مثل هذه الإجراءات العملية .

ونحن نعرف من الروايات ان النبي ﷺ حين كان يكف بمهمته ما تتعلق بالدعوة العامة ، كان يشعر بضخامة هذا العمل وعظمته . فكان ينصرف إليه انصرافا كاملا لقد أراد ان يتكفل به أهل بيته من الناحية الاقتصادية حتى يتمكن من ان يدير الأهور بطريقة طيبة . فجمع في بيته أسرة عبد المطلب وكانت تضم في ذلك الوقت أربعين شخصا تقريبا وطبقا لاحدى الروايات تجمع ثلاثون شخصا . فأعلن أمامهم ان الله بعثه اليهم ومطلب منهم ان يتعاونوا معه حتى يتمكن من أداء هذه المهمة . قال :

« يا بنى عبد المطلب ، انى بعثت إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة فأيكم يبإيعنى على ان يكون أخى وصاحبى ، ووارثى . ويكون معى فى الجنة ويكون خليفتى فى أهلى » (أخرجه أحمد عن عائشة)

لم تكن عائلته على استعداد لتحمل مسئوليته الاقتصادية . كان عمه العباس بن عبد المطلب من الناحية الاقتصادية فى وضع يمكنه من تحمل المسئولية ، إلا أنه سكت أيضا ، « فسكت العباس خشية ان يحيط ذلك بماله » ، إلا أن الله تعالى نصره ، فقد أعانه اقتصاديا

في حياته المكية أولا بمال زوجته خديجة — رضى الله عنها — وبعد ذلك بأبى بكر الصديق .

لقد كان النبى حريصا حرصا شديدا في تبليغه دعوة الحق للناس :
فينقل ابن جرير عن عبد الله بن عباس أن بعض كبار أهل مكة تجمعوا
حول الكعبة بعد غروب الشمس وطلبوا الحديث مع رسول الله فبعثوا
إليه — كما تقول الرواية — ان اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك،
ثم تقول الرواية :

« فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا وهو يظن أنه قد بدا لهم فى
أمره بدء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويغز عليه عنتهم » .
(ابن جرير عن ابن عباس)

إلا أن الذين دعوه كانوا قد فعلوا ذلك رغبة في الجدل فقط
لا للاقتناع ، وهكذا عاد رسول الله ﷺ بعد حوار طويل : (ثم انصرف
رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا آسفا لما فاتته مما كان يطمع به من قومه
حين دعوه ولما رأى من مبادئهم إياه) .

(تهذيب سيرة ابن هشام مجلد ١ ص ٦٨)

وهكذا حين تجمع الناس حول أبى طالب فى مرض وفاته فقالوا :
لقد كان لنا مع ابن أخينا قبل موتك أمرا (فخذلنا منه وخذله منا ،
ليكف عنا ولنكف عنه ، فدعاه أبو طالب وسأله : ما تريد من القوم ؟
فقال : « تقولون لا اله الا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه » الا أن
القوم لم يكونوا على استعداد للإيمان بما جاء به ، وبعد أن انصرف
القوم قال أبو طالب (طبقا لرواية ابن اسحاق) : (والله يا ابن أخى

ما رأيتك سألتهم شططا) . (فطمع رسول الله ﷺ فيه) فجعل يقول له : (أى عم ! فأنت فقلها استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة) .
(البداية والنهاية)

لقد كان ﷺ يتحمل ثورة المدعوين وعيجانهم إلى آخر حد ، بعد فتح مكة حضرت هند بنت عتبة بن ربيعة لقبائع رسول الله . وكما هو متبع في مثل هذا الموقف . وحين كان النبي ﷺ يقرئها كلمات البيعة قال : « لا تقتلوا أولادكم . فقالت له هند : أو هل تركت لنا أولادا نقتلهم » (ابن كثير)

إلا أن هذه الجملة الساخرة لم تترك لدى النبي أى أثر . وأخذ منها البيعة منشراها مسرورا .

لقد اتجه رسول الله ﷺ بكل قوته العقلية والجسدية ، وكرس كل وقته في سبيل الدعوة ، بل ضحى بكل ما يملك من أجلها إذ قبل النبوة كان الرسول قد تزوج من سيدة غنية نال بزواجها دالا كثيرا .
ومن وقائع الدور المكي الأول أن قادة قريش أرسلوا عتبة بن ربيعة ممثلا عنهم إلى رسول الله . وصل عتبة إلى رسول الله فأصابه الخوف وملأته الرهبة . وعلاه الرعب ولم يخرج إلى أهله ، واحتبس عنهم . فقال أبو جهل :

« والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا حبا إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته . . . انطلقوا بنا إليه ، فأتوه ، فقال أبو جهل : والله يا عتبة ما جمعنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره فإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ، فغضب واقسم بالله لا يكلم محمدا أبدا » .

(البداية والنهاية مجلد ٣)

وهكذا يحكى عن عبد الله بن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إليه فأسمعه رسول الله ﷺ القرآن فتأثر بالقرآن كثيرا ، وعرف أبو جيل أن الوليد بن المغيرة تأثر بكلام الرسول ، فقال له : « ان كنت تريد أن يجمع الناس لك مالا جمعوا لك لأن بك رغبة في ما محمد » .

وهكذا كانت حالة النبي المالية جيدة في بداية عهد النبوة ... ولكن في السنة الثالثة عشرة حين هاجر إلى المدينة لم يبق معه شيء حتى انه اقترض من أبي بكر ليعد متاع السفر .

لغة الدعوة :

مع أن النقاط الأساسية للدعوة الإسلامية محددة على أساس منطقي ، إذ أنها تتسم بالتماثل الشديد ، فإن كلمات الدعوة حين تخرج من لسان الداعي فهي تضم شيئا آخر ، وهي ذات الداعي نفسه ، وتعد هذه إضافة تسجل للمضمون المحدد للدعوة وتجعله عملا خالدا ، ورغم كونه عملا واحدا إلا أنه يبدو بأشكال متنوعة لا يمكن أن يوضع لها فهرس محدد ، ففي صدر الداعي قلب يرتجف من خشية الله وهو يتمنى بكل إخلاص أن يتقبل المدعو الإيمان ، ويحمل الداعي بداخله عاطفة تجعله يود لو أستطاع جذب عباد الله إلى دين الله لينال بذلك رضا الله . هذه الأمور لا تضيف تأثيراً خاصاً فقط إلى طبيعة الكلمات التي تنطلق من لسان الداعي بل تمنح الدعوة تنوعاً كبيراً من الناحية الشكلية لأن عاطفة الشوق التي تؤثر في المدعو تجبر الداعية على أن يراعى عقلية كل شخص مراعاة تامة وهو يعرض عليه دعوته .

ويتضح هذا الأمر بجلاء في حياة النبي ﷺ ، لقد انشغل بتبليغ الدعوة ليل نهار ، إلا أن أسلوبه لم يكن متمثلاً في ترديد عدة ألفاظ محددة أمام كل شخص بل كان يعرض حديثه مرآعياً نوعية المخاطب .

غفى العصر المكي الأول قام بدعوة أبي سفيان وزوجته هند ،
وطبقا لرواية ابن عساکر ، قال :

« يا أبا سفيان بن حرب ويا هند بنت عتبة والله لثموتن ثم
لتبعثن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيء النار » .

وينقل ابن خزيمة ان الرسول ﷺ خاطب شيئا يدعى حصين
فقال : « يا حصين ! كم تعبد من إله ؟ قال : سبعا في الأرض وواحد
في السماء . قال فاذا أصابك الضر فمن تدعو ؟ قال الذي في السماء .
قال فاذا هلك المال فمن تدعو ؟ قال الذي في السماء . قال فيستجيب
لك وحده وتشركهم معه ؟ » (١) .

وينقل الامام أحمد عن أبي أمامة ان رجلا من إحدى القبائل
قدم إلى رسول الله ﷺ ليعرف بماذا يأمرهم به . فقال له الرسول :
« بأن تصل الأرحام وتحقق الندماء وتؤمن السبل وتكسر الأوثان
وتعبد الله وحده لا تشرك به شيئا » .

وبعد وصول النبي إلى المدينة أرسل إلى أهل نجران كتابا يدعوهم
فيه إلى الإيمان جاء فيه :

« إني أدعوكم إلى عبادة الله ونبذ عبادة العباد وأدعوكم إلى
ولاية الله ونبذ ولاية العباد » .

لقد كان القرآن الكريم على الدوام هو الوسيلة الهامة
للدعوة والتبليغ ، فكان الرسول ﷺ إذا ما قابل شخصا أسمعه بعض
آيات القرآن الكريم . وجاء في معظم الروايات ما يلي : (ثم ذكر
الاسلام وتلا عليهم القرآن) ، وفي رواية أخرى : (فعرض عليهم

(١) الاسامة : المخذ الاول .

الاسلام وقرأ عليهم القرآن) • وكان لجاذبية القرآن وقع في نفوس العرب لدرجة أن بعض مخالفي الاسلام العتاة كانوا يخرجون بالليل، ويختفون بجوار بيت الرسول فيسمعون القرآن وهو يتلوه ••

لقد كان للأدب السماوي القرآني تأثير لا حد له على العرب • حين قدم الوليد ابن المغيرة ممثلاً لقريش إلى النبي ﷺ تلا عليه النبي آيات من القرآن ، فارتجف ، ولما رجع قال لقريش : إنه كلام يفوق كل كلام : (ولنه ليعلو ولا يعلى عليه وانه ليحطم ما تحته) • وتلاوة القرآن من أجل التبليغ كانت الطريقة المعروفة في ذلك الزمان ، فحين وصل مصعب بن عمير إلى المدينة مبلغاً كانت طريقته أن يتحدث مع الناس ويتلو عليهم القرآن (يحدثهم ويقص عليهم القرآن) وقد اشتهر بالمقرئ نظراً لأقراءه الناس القرآن (وكان يدعى المقرئ) (١)

وفي مكة استمرت دعوته بأسلوب ثابت متزن في ظل الأدب القرآني الرفيع ، ولم يكن لدى المعارضين من شيء سوى السب والشتم حتى انه بدأ يقال بين جماعات مكة المتزنة أنه لا يوجد لدى معارضى محمد من جواب دافع يمكن أن يجيبوا به عليه ، وقد قام أشرف مكة في اجتماع خاص بدعوته ، وأعدوا خطة للحديث معه ، والسبب طبقاً لرواية ابن جرير هو أن يبرئوا ذمتهم ، أمام قومهم (ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه) (٢) •

كفاية العرب وصلاحياتهم :

فيما يتعلق بقبول الدعوة ، كان أمرها يعتمد على صدق الدعوة ، وجهاد الداعي ، وفوق هذا كان أمرها يتوقف على ظروف المدعو ،

(١) حلية الاولياء ، المجلد الاول ،

(٢) الطبرى •

وكان للعنصر الانساني الذي تجمع في بلاد العرب قيمة عظيمة ، فمن ناحية احتفظ العنصر العربي بالاضافة الى ما لديه من جاهلية عربية قديمة وبداعة وخرافة احتفظ ببساطة الفطرة ، فقد ضمت مساحة الثلاثمئة ألف كيلو من الأرض المسطحة الساخنة • أعلى وأسمى المثل الانسانية فالعربي الذي جعل من ناقته الوسيلة الوحيدة لمعاشه يقوم بذبحها ليقدمها طعاما لضيوفه حتى لا يجوعوا ، وكان اذا ما لجأ مظلوم إلى خيمة عربي ، حمل هذا العربي سيفه وقام بحمايته ، فلا يتمكن أحد من قتل المظلوم قبل قتل صاحب الخيمة ، وكان الأشرار اذا ما قاموا بعمليات السلب والنهب ، وأرادوا الاستيلاء على ملابس أو مجوهرات النساء لم يتمكنوا من تجريد النساء من ملابسهن • وما كانوا أبدا ليلمسوهن ، فقد كانوا يرون أن من الضروري سلب المجوهرات حين تكون المرأة في كامل ملابسها ، وكان المهاجمون والمغيرون يحولون أنظارهم حتى لا تقع على النساء العاريات •

وليس من الصحيح القول بأن عرب البادية كانوا أصحاب عقول بسيطة قليلة الادراك ... لا ... لقد كانوا على درجة عالية من الادراك والوعى وكان يمكنهم الوصول إلى ادق معانى الكلمات بل إلى بطون الكلمات •

لقد قدم سبعة من المسلمين الجدد من احدى القبائل إلى رسول الله ﷺ ، وأثناء حديثهم معه قالوا : لقد تعلمنا من الجاهلية خمساً سنظل عليها حتى تمنعنا إياها :

(قال وما الخصال التي تخلقتم بها في الجاهلية ؟ قالوا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والصدق في مواطن اللقاء والرضا

بمر القضاء . وترك الشماتة بالمصيبة اذا حلت بالأعداء ، فقال رسول الله ﷺ . فقهاء أدياء • كادوا أن يكونوا أنبياء (١) •

وكان (ضماد) رجلا من قبيلة (أزدشنوءه) ، وكان يقوم بأعمال السحر والشعوذة ، وقدم ذات مرة إلى مكة ، فأخبره الناس أن النبي ﷺ . حل به أثر من الجن ، فذهب ضماد إلى النبي وفي نيته أن يعالجه بما لديه من معلومات . ولكن حين سمع (ضماد) كلام النبي قال : « بالله لقد سمعت كلام الكهنة والسحرة ، ورأيت كلام الشعراء ، إلا أنني لم أسمع مثل هذا الكلام أبدا فمد يدك أبايعك » •

وكالعادة لم يخطب النبي خطبة طويلة بل قال فقط ما كان يقول في هذه المناسبة الإسلامية :

« إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له ، أشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له » •

إلا ان (ضمادا) وجد في هذه الكلمات المختصرة كنزا من المعاني (فقال له ضماد) أعد على كلماتك هؤلاء ، فلقد بلغن قاموس البحر (٢) •

ولم يكن هناك أي فرق بين قول العربي وفعله . لقد كان ﷺ صادقا قولاً وعملاً ، وكان يرى الآخرين أيضا هكذا . فما يراه مصدقا عقلا يؤمن به على الفور ، يروى ابن اسحاق عن عبد الله بن عباس أن قبيله بنى سعد أرسلت ضمام بن تعلبة ممثلا لها عند رسول الله ﷺ . فقدم إلى المدينة فأناخ ناقته على باب المسجد وربطها ، ودخل المسجد بعد ذلك ، وكان رسول الله ﷺ جالسا مع أصحابه في ذلك الوقت ،

(١) كثر العمال ١ — ٦٩ •

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٦ •

وكان ضمام رجلا شجاعا عاقلا وقف أمام مجلس النبي وقال : « أيكم ابن عبد المطلب ؟ » فقال رسول الله ﷺ : « انا ابن عبد المطلب ، ففان ضمام : يا محمد ، قال رسول الله ، نعم . قال : يا ابن عبد المطلب أريد أن أسألك وسوف أشتد في سؤالي فلا تتأثر من هذا ، فقال رسول الله ﷺ : أنا لا اتأثر بهذا ، أسأل وأخرج ما في قلبك ، قال ضمام : استخلفك بمعبودك ، وبمعبود أولئك الناس من قبلك ، وبمعبود من بعدك (آله بعثك الينا رسولا ١٤) فقال ﷺ : نعم . قال ضمام : استخلفك بمعبودك وبمعبود أولئك الناس من قبلك وبمعبود من بعدك هل قال الله لك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به أحدا وان نترك هذه الأصنام التي كان يعبدها ويقدسها آباؤنا وأجدادنا ؟ قال ﷺ : نعم ، قال ضمام : استخلفك بمعبودك وبمعبود أولئك الناس من قبلك وبمعبود من بعدك هل أمرك الله أن نصلى الصلوات الخمس ؟ قال رسول الله : نعم ، يقول الراوى وهكنا ذكر الزكاة والصوم والحج وجميع أحكام الاسلام كان يستخلفه بالطريقة السابقة ، ويسأله عن كل فريضة حتى اذا ما فرغ قال :

« غاننى أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد ان محمدا رسول الله .
وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا
أنقص » (١) .

ثم ركب ناقته وعاد . ووصل إلى قومه وأخبرهم بالأمر كله
— وطبقا لاحدى الروايات — لم تغرب شمس ذلك اليوم حتى أسلم
جميع من كانوا في مجلسه رجالا ونساء .

لم يكن في العرب نفاق ، لم يعرفوا شيئا ثالثا بين الاقرار أو
الانكار ، فحين يقولون قولا يطبقونه على كل حال ، حتى لو قدموا

(١) البداية والنهاية المجلد الخامس .

الروح من أجله . وقدموا أغلى التضحيات . ومن خطب قبائل يثرب (الأوس والخزرج) ما يدل على أخلاق العرب ، وهي الخطب التي قالها ممثلو تلك القبائل بمناسبة بيعة العقبة الثانية . .
لقد ورد في بعضها :

« إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ . قال العباس بن عباد بن نضلة أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعونه ؟ على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه من الآن فدعوه . فوو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة وان كنتم ترون أنكم وانتم بما دعوتهم اليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فاثبتوا . . فقاتلوا . . فما لنا بذلك يا رسول الله أن نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قالوا : أبسط يدك . فبسط يده فبايعوه !!

وأثبتت الأحداث أن هذا لم يكن مجرد كلام . بل تم تنفيذ هذا العهد بحذافيره !! . وحتى حين ساد الاسلام وانتصر ، ظلوا أيضا مقدمون التضحيات دون مطالبة بأي تعويض سياسي بل ارتضوا تسليم الخلافة للمهاجرين . ومضوا من الدنيا على هذا الحال . . واحدا واحدا .

شمولية الدعوة الاسلامية :

يروى ابن اسحاق عن عبد الله بن عباس أن أشراف قريش تجمعوا عند أبي طالب ذات مرة ، وكان من بينهم بعض قادة قريش من أمثال عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة . وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف . وأبي سفيان بن حرب ، وسأل هؤلاء الناس — بواسطة أبي طالب — النبي ﷺ ماذا يريد منهم بعد كل هذا ؟ فقال ﷺ :
م ٩ - واقفنا ومستقبلنا

« كلمة واحدة ، تعطونهاها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » (١) .

فكلمة التوحيد إن كانت في الظاهر كلمة عقائدية إلا أنها تحمل بين طياتها سر جميع أنواع الفتوحات الانسانية : أنها صوت الذطرة الانسانية ولهذا فهي تصل إلى اغوار النفس البشرية . وتحول أكار المعارضين لها إلى أقوى المدافعين عنها . أسلم خالد بن الوليد قبل فتح مكة بفترة ، إلا أن صدق الاسلام كان قد وصل إلى قلبه قبل ذلك . وقد أعلن هو نفسه عن هذا الأمر بعد إسلامه . فذكر أن هذا الأمر وقع في قلبه قبل ذلك بكثير وهو ان الحق لم يكن في جانب قريش بل كان في جانب محمد . ويجب عليه (على خالد) ان يكون معه . . . قال : (لقد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ . فليس في موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أنني موضع في غير شيء) (٢) .

وهكذا يروى عن الكثير من الناس أن الاسلام كان قد دخل في قلوبهم قبل أن يعلنوا اسلامهم حتى أنهم بدأوا يشاهدون في أحلامهم أنهم على وشك أن يسقطوا داخل حفرة من نار . وهناك من يود أن يدفعهم ليسقطهم فيها ، وبينما هم كذلك إذا نبي الاسلام يأتي وينقذهم من السقوط في النار .

ورغم انه لا صلة بين الدعوة والاقتصاد في الظاهر إلا أن الدعوة هي في ذاتها عملية اقتصادية بطريقة غير مباشرة لأن الانسان حين يقبل الاسلام تصبح جميع وسائله ومصادره تابعة بالتالي للاسلام . ففي الزمن المكي الأول أفادت ثروة خديجة رضي الله عنها الاسلام ، وبعد

(١) البداية والنهاية المجلد ٢ ص ١٢٢ .

(٢) البداية والنهاية مجلد ٤ .

ذلك آمن أبو بكر الذي كان يربح من تجارته أربعين ألف درهم ، فساعد رأس ماله في دفع الحركة الاسلامية اقتصاديا ، وفي أثناء الهجرة أخذ ستة آلاف درهم وخرج من البيت وهي التي غطت جميع تكاليف السفر ، وفي غزوة تبوك ، قدم عثمان رضى الله عنه عشرة آلاف دينار كانت بمثابة ثلثي ما كان يحتاجه الجيش ، وقدم عبد الرحمن بن عوف في مناسبة واحدة خمسمائة فرس للجهاد ، وهكذا قدم هؤلاء الناس الذين أسلموا أموالهم مع أرواحهم لتصبح جزءا من خزانة الاسلام .

ونظرية التوحيد نظرية مكتملة لا مجال فيها لتقسيمات اجتماعية أو امتيازات طبقية . ولهذا فحين تمضى أية حركة على أساس هذه النظرية ، فإنها تؤثر في عامة الناس بطريقة مذهلة لأنهم يشعرون بأنه في ظل التوحيد يمكنهم أن يصلوا إلى المقام الحقيقي للمساواة . والعظمة الانسانية انما تكون في ظل التوحيد .

ولقد كان لخطبة مغيرة بن شعبه حين قدم بلاط فارس أعظم الأثر في نفوس أهل البلاط ، يروى ابن جرير :

« فقالت السفلة : صدق والله العربي . وقالت الدهامتين : والله لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينزعون اليه قائل الله أولينا ما كان احقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة » (١) .

وحل النبي ﷺ مع أبي بكر إلى المدينة في السنة الثالثة عشرة للبعثة ، فتنجم هناك حوالي خمسمائة رجل من سكان المدينة واستقبلوهما فقالوا : (انطلقا آمنين مطاعين) (٢) .

فكيف تمكن النبي ﷺ من قيادة المدينة؟! إن الاجابة هي أنه

(١) تاريخ الطبري مجاد ٣ ص ٢٦ .

(٢) البداية والنهاية مجلة ٢

تمكن من ذلك عن طريق الدعوة فان اول من دعاه النبي إلى الاسلام من سكان يثرب هو في الغالب سويد بن الصامت الخزرجي . ذكر له الاسلام فقال : (نعل لديك ما هو لدى) فقال صَاحِبُ : « ماذا لديك ؟ فقال : حكمة لقمان ، فقال صَاحِبُ : اوضح . فأسعاه بعض الأتعار فقال النبي : لدى القرآن أفضل منها ، وبعد ذلك تلا عليه القرآن . فأسلم على الفور . وحين رجع إلى يثرب حمل رسالة الاسلام إلى قبيلته فقتلوه » (١) .

وبعد ذلك قدم أحد زعماء يثرب ويدعى أبا الهيثم أنس بن رافع إلى مكة مع جماعة من شباب بنى الأشهل ، وكان هؤلاء الناس قد قدموا إلى مكة ليتعاهدوا مع قريش لحماية قبيلة الخزرج . فعلم النبي صَلَّى بقدمهم فذهب إليهم وقال : « ألا ادلكم على أمر أفضل مما جئتم له ؟ » وبعد ذلك عرض عليهم التوحيد : فقال شاب منهم يدعى إياس بن معاذ : يا قوم والله إن هذا لأفضل مما جئتم له : إلا أن الوعد لم يفهم هذا الأمر ، فقالوا : « دعنا منك قد جئنا لغير هذا » وعادوا إلى يثرب . وبعد ذلك بغقرة قحيرة اشتعلت نيران الحرب بين الأوس والخزرج : تلك التي اشتورت باسم « بعث » .

ويقول حبيب بن عبد الرحمن أن شخصين من يثرب قدما إلى مكة وهما (سعد بن زرارة وذكوان بن قيس) فأقاما عند عتبة بن ربيعة . وسمعا عن النبي فأرادا أن يلتقيا به فدعاهما الرسول صَلَّى إلى الاسلام وتلا عليهما القرآن ، فأسلما ثم لم يعودا إلى مضيفهم عتبة بن ربيعة ، بل عادا مباشرة إلى يثرب . وكان هؤلاء هم الرجال الذين بلغوا أهل يثرب الاسلام في البداية . وهذا الواقعة كانت في السنة العاشرة للهجرة .

وفي السنة الحادية عشرة للبعثة خرج ستة رجال من قبيلة يثرب للحج وبايعوا النبي واعدوا إلى بلادهم حيث بدأوا تبليغ الاسلام ، وفي السنة التالية (سنة ١٢ من البعثة) بايع اثنا عشر رجلا النبي واشتهرت بيعتهم في التاريخ الاسلامي باسم بيعة العقبة الاولى (٦٢١ م) * وفي السنة الثالثة عشرة للبعثة زاد هذا العدد وحضر إلى مكة ٧٥ من أهل يثرب . ثم كانت بيعة « العقبة الثانية » *

وعلى العكس من مكة اتسمت يثرب بأمر خاص ، اذ أسلم في المرحلة الأولى عظماء المدينة وأشرافها ، وكان هذا هو العصر القبلي ، وكان من الشائع في القبائل أن تكون القبيلة على دين رئيسها ، ومن هنا بدأ الاسلام ينتشر في يثرب بسرعة (حتى لم تبق دار من دور الانصار إلا وفيها رهط من المسلمين) ، وهكذا حين أصبح المسلمون أكثرية بين سكان يثرب كان من الطبيعي أن تكون هذه المدينة ذات تأثير كبير (فكان المسلمون أعز أهلها وصلح أمرهم) (١) *

إرهاصات الدعوة :

في كل زمان هناك أناس يتعدون بأنفسهم عن تأثيرات الزمان ، يعيشون على الفطرة * وفي المجتمع العربي وجد عدد من الناس يبحثون عن الصدق والحق ولم تعجبهم عبادة الأصنام ، وكان وجود هؤلاء الناس نتيجة للبيئة النجارية ، ولبقايا تأثير الأمة الابراهيمية ، وعرف هؤلاء « بالحنفاء » * ومنهم على سبيل المثال : «قيس بن ساعدة» «وورقة بن نوفل» وغيرهما . وكان هناك حنفي يدعى جندب بن عمرو الدوسي ، كان يقول في زمان الجاهلية :

(١) أخرجه الطبراني عن عمرو * .

« إن للخلاق خالقا لكن ما أدري من هو » (١) .

و حين علم بخبر بعثة النبي ﷺ قدم بخمسة وسبعين رجلا من أهل قبيلته وأعلنوا الاسلام جميعهم ، وكان أبو ذر الغفاري من بين هؤلاء الناس الباحثين عن الحق . علم بخبر النبي ﷺ فأرسل أخاه إلى مكة ليأتيه بالخبر فعاد الأخ وحمل اليه تقريرا جاء في إحدى فقراته : « رأيت رجلا يسميه الناس الصابيء هو أشبه الناس بك » (٢)

مثل هؤلاء الناس لم يواجهوا أية صعوبة في فهم دعوة النبي ﷺ ، وحين تبدأ الدعوة في أي مجتمع فان بذورها تنبت في أماكن لا يمكن حتى للداعي نفسه أن يتوقعها . ولم يكن معنى قبول من أسلم « مؤخرا » من العرب . أن الاسلام قد انبثق امامهم نجاة . فالواقع أن حياة النبي ﷺ الأخلاقية السامية . وانوماكه في دعوته وتبليغه ليل نهار . بالاضافة إلى المعارضة التي واجهته وذيرع صيته وذيرع رسالته كل هذا جعل من وجوده مثار تساؤل الجميع . ومثل هذه الأمور غرست بذرة الاسلام في أذهان العديد من العرب .

ونتيجة للعصبية القبلية كان الشك من يصاب بالعناد الظاهري إلا أنه لا يستطيع أن يوقف تغلغل الاسلام ونموه في داخله ، فقد اشتهر بالنسبة لاسلام عمر رضي الله عنه أن حادثة مفاجئة كانت سببا في إسلامه في النهاية . ولا شك أن هذه الحادثة كانت سببا مباشرا في إسلامه إلا أن بذرتها الأولى كانت قد وقرت في قلبه قبل ذلك بكثير .

أخرج ابن اسحاق عن عبد العزيز بن عبد الله بن عمار بن ربيعة عن أمه أم عبد الله بنت أبي حنيفة رضي الله عنها قالت . والله إنا لنترحل

(١) ابن عبد البر في الاستيعاب ج ٢ .

(٢) أخرجه مسلم عن طريق عبد الله بن الصامت .

إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا ، إذ أقبل عمر ،
فوقف على وهو على شركه ، فقالت وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة
علينا قالت فقال : انه الانطلاق يا أم عبد الله قلت نعم ، والله لنخرجن
في أرض من أرض الله إذ آذيتمونا وقهورتمونا حتى يجعل الله لنا
مخرجاً . قالت فقال : سبحانه الله ، ورأيت له رقعة لم أكن أراها ثم
انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا (١) .

ففى كل زمان توجد أفكار تتغلغل فى أذهان عامة الناس فإذا لم
تتحطم جدران هذه الأفكار فلا يمكن لأى صوت أن يجد صدى لديهم
على أساس من الحقائق الفلسفية فقط ، ولم تكن مظاهر الاختلاف
التي ظهرت بين العرب فى الزمان الأول قائمة على أساس المصلحة
والعدوان ، بل كانت قائمة على أساس عدم قدرتهم على فهم إمكانية
وجود دين صحيح أو حق غير ما وجدوا عليه سدنة الكعبة ، وقد ظلت
القبائل العربية المجاورة لليهود بعيدة عن مثل هذا التعقيد العقائدى
لأنهم كانوا يسمعون من اليهود أنه مكتوب فى كتابهم أن نبيا سيظهر
من العرب .

« فلما سمعوا قوله أنصتوا واطمأنت أنفسهم إلى دعوته ،
وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من ذكرهم إياه بصفته
وما يدعوهم إليه فصدقوه وآمنوا به » (٢) .

وفى سوق عكاظ حين قدم عليه السلام إلى خيام بنى كندة ، عرض
عليهم الاسلام ، فوقف شاب وقال :

« يا قوم اسبقوا إلى هذا الرجل قبل أن تسبقوا إليه فوالله إن
أهل الكتاب ليحدثون أن نبيا يخرج من الحرم قد أظل زمانه » .

(١) البداية والنهاية مجلد ٢ ص ٧٩ .

(٢) الطبرانى .

(٣) أبو النغم فى الدلائل .

والسبب في إقدام قبائل المدينة من الأوس والخزرج على الإسلام هو وجود هذه الفكرة الذهنية لديهم . أما بالنسبة لأهل مكة ومعظم قبائل العرب فقد كانت سلطة الكعبة هي معيار الحق عندهم ، وكانت مكانة الكعبة بين العرب قديما مثل مكانة « التاج » بين الأنظمة الملكية؛ وبالإضافة إلى مكانة التاج فقد كان أمر الكعبة مرتبطا أيضا . بتصوير السلطة السياسية فقط . وتزيد مكانة الكعبة درجة أخرى . فبالإضافة إلى السلطة كانت هناك تقاليد مقدسة تماما . إذ كان العرب يفهمون بعقائدهم البسيطة أن من بيدء أمر الكعبة هو نفسه بيده الحق والصدق؛ يحكى ذو الجوشن الضبائي من بنى عامر ما جرى بينه وبين رسول الله :

(قال يا ذا الجوشن ألا تسلم فتكون من أول هذا الأمر ؟ فقلت لا . قال لم ؟ قال قلت رأيت قومك قد ولعوا بك قال : كيف بلغك عن مصارعهم ببدر ؟ قلت قد بلغني ؛ قال فانا نهدي لك . قلت إن تغلب على الكعبة وتقطننا ؛ قال لعلك إن عشت ترى ذلك . . . قال فوالله إني بأهلي بالغور إذ أقبل راكب فقلت ما فعل الناس ؟ قال : والله قد غاب محمد على الكعبة وقطنها ؛ قلت هباتني أمي ولو أسلمت يومئذ ثم أسأله الحيرة لأقطعنيها) (١) .

وهذا هو السبب في أنه حين فتحت مكة دخل الناس في الإسلام أفواجا !! .

رد أهل حركة الدعوة :

بدأ رسول الله ﷺ حركة الدعوة . وبدأت الأحداث التي تظهر عادة في حالة ظهور صوت جديد في أي مجتمع ؛ تحير بعض الناس حول ماهية هذا الشيء ؟

(١) الطبراني .

وينقل ابن حميد في مسنده ان قادة قريش اختاروا ذات مرة عتبة بن ربيعة ليهثلهم عند رسول الله ﷺ فوصل عتبة إلى النبي وألقى خطبته الطويلة التي عارض فيها النبي ﷺ وحين انتهى قال النبي ﷺ : (فرغت) فقال نعم فقال النبي ﷺ : (بسم الله الرحمن الرحيم وقرأ عليه من (خم فصلت) ثلاث عشرة آية . فسمع عتبة ولم يحر جوابا . وقال : احسبك ما عندك غير هذا ؟) فقال النبي : لا ، وتحكى الرواية بعد ذلك . . . (فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك ؟ قال ما تركت شيئا أراكم تكلمونه فيه إلا كلمته . قالوا فهل أجابك ؟ فقال نعم . ثم قال : ألا والذي نصبها بينه ما فهمت شيئا مما قال غير أنه اندركم صاعقة) (١)

وقد رأى بعض الناس الذين ألفوا الأطار التقليدي للدين أن في دعوته ﷺ تحقير للسلف . فلقد نقل أبو نعيم في (دلائل النبوة) كما نقل النسائي والبيهقي وغيرهم أن ضمادا قدم إلى مكة ليعتمر فجلس ذات يوم في مجلس كان فيه أبو جهل وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف . . . فقال أبو جهل :

هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وسفه أحلامنا وأضل من مات منا وعاب آلهتنا فقال أمية : الرجل مجنون من غير شك (٢) .

ودعا عمرو بن مرة الجهني أهل قبيلته « جهينة » إلى الاسلام فقال رجل :

« يا عمر بن مرة ، أمر الله عيشك أتأمرنا برفض آلهتنا وأن نفرق جمعنا وأن نخالف دين آبائنا الشيم العلى ، إلى ما يدعوننا إليه هذا القرشي من أهل تهامة — لا حبا ولا كرامة » (٣) .

(١) التوبتي .

(٢) الاصابة مجلد ٢ ص ٢١٠ .

(٣) البداية والنهاية مجلد ٢ .

وبعد ذلك أنشد ثلاثة أشعار ، كان آخرها :

ليفسه الأثياخ ممن قد مضى

من رام تلك فلا أصاب فلاحا

وكان الحسد مانعا لبعض الناس من أن يسلموا . لأنهم كانوا يريدون اعلان نبوتهم ، وبالفاظ أخرى يرى هؤلاء الناس أن لديهم علم الحقيقة ، ويصبح من أصعب الأمور على الانسان أن يعترف بأن الله قد أعطى علم الحقيقة الذى يدعيه لشخص آخر . ينقل البيهقي عن مغيرة بن شعبه أن أبا جهل بن هشام انفصل عنه ذات يوم قائلا :

والله أنى لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعنى شئ - أن بنى قصى قالوا : فينا السقاية فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا الندوة فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا اللواء فقلنا نعم . حتى قالوا منا نبى والله لا أفعل (١) .

وبعض الناس عارضوا النبى لأنهم رأوا في دعوته وفي ايمانهم بدعوته خطرا على اقتصادهم ، فقد كانت الكعبة من أكبر بيوت الأصنام قبل الاسلام ، وضعت فيها أصنام جميع المعتقدات حتى انه وضعت بها صور للمسيح ومريم أيضا . وهكذا كانت الكعبة مزارا لأهل الأديان جميعا ، وكان هذا هو الهدف من الأشهر الأربعة الحرم ، ففيها كان ينفذ على مكة أتباع جميع الأديان آنذاك ، فاذا ما رفعت الأصنام من الكعبة فلن يأتى أحد لزيارة الكعبة ، وسيغلق سوق مكة الذى كان ينعقد لمدة أربعة أشهر ، ولهذا شعر أهل مكة بخطر دعوة النبى ﷺ واعتقدوا أن دين التوحيد لو انتشر فان المنطقة (وهى غير ذى ذرع) سوف تنتهى تماما ، كما أن ولاية الكعبة أيضا كانت تجعل لقريش مكان الصدارة بين القبائل المختلفة .

يكتب أحد المؤرخين فيقول : « كانت أموالها وتجاريتها تسافر في الشرق والغرب في ظلال معاهدات تجارية بينها وبين أمم وثنية مثلها كفارس وأمم مسيحية كالحبشة وكمثل بيزنطة وكانت قريش تتصور أن تأييدها لرسالة محمد إنما يعنى شيئاً واحداً هو أن تتحلل الأمم المجاورة لها بل وقبائل العرب نفسها المقيمة على الوثنية من تعهداتها بحماية تجارة قريش وقوافلها وإذا حدث ذلك فهذا يعنى موت قريش تجارياً واقتصادياً وانتهاء عصر سيادتها على العرب . وكما جاء في تفسير آية من سورة الواقعة (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أى تجعلون الكذب غذاء لكم : أى انكم تعتقدون أن انكار التوحيد الذى يدعو اليه نبي الاسلام إنما يمكن أن يحفظ اقتصادكم وأموالكم .

وكانت نتيجة دعوته أن أصبح حديث الناس تساؤل ، ويسأل الناظر للشخص الآخر قائلاً : « أهو هو ؟ » .

(ويمض بين رجالهم وهم يشيرون اليه بالاصابع) (١) .

وكان اذا ما جاء شخص إلى مكة عاد ليخبر رفاقه بأخبار رحلته، ومعها يخبرهم بأن محمداً بن عبد الله تنبأ ، وقد تبعه ابن أبي قحافة ، وقد وضعت قريش اسم (مذمم) بدلا من محمد (اسم النبي ﷺ) فقد اتهموه بتحميق الأسلاف وتسفيه الآباء ، وفي الليل كانوا يلقون القاذورات في طريقه ، وذات مرة رآهم النبي ﷺ ، فقال : يا بني عبد مناف أى جوار هذا ؟ (٢) .

وحتى في حياة أبي طالب لم يكن أحد يجرؤ على اتخاذ أى إجراء عدائى تجاه النبي ﷺ وذلك طبقاً للتقاليد القبلية ، فان قتاله يعنى قتالا

(١) رواه أحمد عن جابر .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام .

مع قبيلة بنى هاشم ، وحين أخذ عمر بن الخطاب — قبل أن يسلم —
السيف • وخرج عازما على قتله ، كانت الجملة التي أطلقها أحد الناس
كافية لتهدئته ، إذ قال له : (ويحك كيف تأمن بنى هاشم إذا قتلت
محمدا) وكان هذا هو ما يواجهه أى شخص يعزم على اتخاذ أى عمل
عدوانى ضد النبى ﷺ ، وكان هذا هو السبب فى أن المظالم والاعتداءات
التي حدثت فى مكة كانت فى معظمها ضد العبيد والاماء •

ينقل الامام أحمد وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود أنه فى الدور
الأول كان هناك سبعة أفراد مسلمين فى مكة هم (رسول الله ﷺ ، أبو بكر ،
عمار ، سعيد ، صهيب ، بلال ، ومقداد) •

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعنه وأما أبو بكر ممنعه الله بقومه
وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم دروع الحديد وصهروهم فى
الشمس (١) •

يروى الامام البيهقى عن عبد الله بن جعفر انه حين توفى أبو طالب
زعيم بنى هاشم قام أحد رجال قريش السيئين بالقاء التراب على النبى
ﷺ ، فعاد إلى بيته ونظفت إحدى بناته التراب من فوقه فقال ﷺ
حينئذ : « لم يحدث أن اصابنى مكروه من قريش حتى الآن ، لقد مات
أبو طالب فبدأوا يفعلون هكذا ، وفى رواية لأبى هريرة : « لما مات
أبو طالب تجهموا بالنبى ﷺ فقال يا عم ! ما أسرع ما وجدت بعدك » (٢)

فبعد وفاة أبى طالب بدأت قريش تستشير أهلها فى أمر قتله ،
فنصح أبو جهل بأن يضعوا سيفا فى رأسه ، ورأى عقبه بن معيط أن

(١) رواه أحمد •

(٢) أبو نعيم — العلية ٨

يلاقوا بساطًا على رقبته ويسحبوه ، فمن الواضح أن الطريق صار ممهدا لارتكاب الأعمال العدائية ضد النبي بعد وفاة أبي طالب ، ولقد ظلت هذه الأحداث نوعا من العار والخجل لأنها كانت الوحيدة من نوعها في تاريخ العرب بالاضافة إلى أن بعض المشركين كانوا يقولون بحمايته بوازع من ضمائرهم . فمثلا حين قام أبو جهل بالضغط على رأسه ورقبته عليه السلام ليخنته علم أبو البختري بذلك فحمل السوط وقدم إلى الكعبة حيث كان يجلس أبو جهل مع رفاقه جلوس المنتصر ، وحين عرف أبو البختري بصحة الواقعة (بعد بحث وتحقيق) ضرب أبا جهل على رأسه بالسوط ضربات جماعته يصرخ !!

ويخبرنا تاريخ الأديان أن الشرك يكون دائما حساسا لأقصى درجة لسماع أي نقد يوجه ضده ، ولما كان أساس النظام الاجتماعي قائما على الشرك قديما فلقد تجمعت الوسائل السياسية أيضا مع هذه الشدة وعظمتها وسانديتها ، وهكذا استلزامت دعوة التوحيد في بيئة مكة من النبي عليه السلام الكثير من الصبر والمثابرة ، وفي السنوات الثلاث الأولى لم يؤمن بالرسول إلا عدد قليل من الناس ، وكما أنه لا يمكن لشجرة واحدة أن تظل مكة التي بلغت مساحتها حوالي كيلو مترين مربعين فإن رفاقه كانوا أيضا لا يجدون من يظلمهم ... فقد كان بجوار عليه السلام أربعة أشخاص فقط ، (خديجة وعلى وزيد وأبو بكر) ، ومع أن عائشة بنت أبي بكر كانت معهم أيضا إلا أنها كانت أول من يولد مسلما ، وهكذا كانت جبهته عليه السلام تتكون من خمسة أفراد فقط .

ومضى الأمر على هذا الحال لمدة ثلاث سنوات فكان إذا خرج من بيته أستقبل من أناس كالمجانين .

ومرة خرجت جماعة خطط لها أبو جهل لتسبه وتشتمه ، وكان هذا سلوكا لا يمكن قبوله من أشراف مكة ، ومر شخص منهم فرأى هذا

الموقف فذهب إلى عمه حمزة وقال له : أين غيرتك ؟ إن الناس يسبون ابن أخيك وأنت لا تساعد . وامتلأ حمزة بن عبد المطلب بالغيرة والحمية العربية ، فوصل إلى أبي جهل فضربه بقوسه الحديدى على رأسه وقال : منذ اليوم أنا على دين محمد فافعلوا ما شئتم (دينى دين محمد فامنعونى ذلك إن كنتم صادقين) .

وكان حمزة من أبطال العرب المشهورين . فزادت همه الناس ، ووصل عدد المسلمين إلى أربعين شخصا . وفى ذلك الوقت كان فى مكة شخصان من أصحاب النفوذ والأثر . الأول عمر بن الخطاب والثانى أبو جهل ، فدعا رسول الله ﷺ بدعائه المشهور (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام) وتقبل الله دعاه لأول من نطق باسمه . وفى السنة السادسة للنبوته كان لإسلام عمر أثر كبير فى إسلام الكثير من الناس ووصل عدد المسلمين إلى أربعين . . كان هذا فى وقت اتخذ فيه المسلمون من دار ابن الأرقم مركزهم السرى ، وذكر صاحب البداية والنهاية أن عدد المسلمين الذين كانوا يتجمعون فى دار ابن الأرقم كان تسعة وثلاثين مسلما إلا أن أولئك الناس الذين كانوا مع النظام السائد كانوا بالتالى يمتلكون القوة ، وهكذا وبعد توقف عارض بدأت سلسلة من المظالم من جديد ، ورغم محاولات إيذاء النبى بشتى الطرق إلا أن احدا لم يتمكن من قتله ، لأن التقليد القبلى يعنى أن قتل أحد افراد القبيلة هو بمثابة حرب مع القبيلة كلها ، كانت هذه هى القضية التى على أساسها قيل لشعيب : (ولولا رهطك لرجمناك) (١) .

ولقد طالبت قريش زعيم بنى هاشم وعمه أبا طالب بن عبد المطلب أن يخرجاه من القبيلة حتى تتمكن قريش من قتله إلا أن حمية أبى طالب

لم تجعله يفكر أو يكون على استعداد لهذا . وذات مرة قال أبو طالب للرسول بعد شكوى قريش له : لا تعيب آلهتهم • فظن النبي أنه سيسلمه لقريش (فظن أنه قد بدا لعمه فيه وأنه مسلمه) إلا أن أبا طالب قال يظلمتنه : والله لا أسلك بسوء أبدا (١) •

وتجمعت قريش ونفذت معاهدة اجتماعية تقاطع بمقتضاها بنى هاشم وأعلنت المقاطعة . وكان ذلك في السنة السابعة للبعثة ، وبعد هذا أخذ أبو طالب وأخذ معه أسرته وخرج من مكة . وأقام في مكان يطلق عليه (شعب أبي طالب) وهو هضبة وعرة لا يوجد فيها سوى بعض الأنسجار التي تنمو طبيعيا . وظلوا على هذا الحال لمدة ثلاث سنوات . يقناتون على أوراق الشجر وجذورها . هذا باستثناء الأشهر الحرم الأربعة حين كان أهل أسرته يذهبون إلى مكة ويحماون معهم لحم الغرابين فيجففونها ويتناولونها لفترة طويلة .

وبعد ثلاث سنوات وفي السنة العاشرة للبعثة انتهت المعاهدة إلا أنها أثرت على أبي طالب نظرا لقسوتها وشدتها . وبعد أن تولى أبو طالب أصبح أكبر أفراد القبيلة هو عبد العزى (أبو لهب) من بنى هاشم ، فعين زعيما لها ، وهكذا يجلس الآن العدو على كرسی القاضى فأعلن عن براءة القبيلة منه وأعلن إخراجه منها •

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، مجلد ١ ص ٦٠ .

الإخراج من القبيلة

إن إخراج فرد من قبيلته هو في حياة الصحراء كمن يلقي بشخص في بحر : ففي النظام القبلي حين لا تكون هناك حكومة تتحمل المسؤولية في البلاد : فأى شخص يمكن أن يعيش حياته في ظل حماية أية قبيلة .

وأثناء إقامة النبي ﷺ في منى قام بعرض دعوته على إحدى القبائل . ورفضت القبيلة التسليم بدعوته : رغم أنه يتضح من كلام أحد أفراد القبيلة ويدعى ميسرة بن مسروق العيسى أنه تأثر بدعوة النبي ولاحظ النبي ذلك (فطمع رسول الله ﷺ في ميسرة فكنمه فقال ميسرة : ما أحسن كلامك وأنواره ولكن قومي يخالفونني وإنما الرجل بقومه) (١) .

وكانت حادثة إخراجه ﷺ من القبيلة من أصعب الأمور على نفسه : وهكذا لم يعد له ظل يظله في بلده . وكان أمامه حل واحد وهو أن يبحث عن قبيلة أخرى تحميه : وكانت أولى محاولاته في هذا المجال هي خروجه من مكة : وذهابه إلى الطائف : وقال رسول الله ﷺ عن هذا السفر لعائشة :

« إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال » .

ويقول عروة بن الزبير :

« ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله ﷺ شدة

فعمد إلى ثقيف يرجو أن يؤوده وينصروه (١) » .

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٣ .

(٢) أبو نعيم في دلائل النبوة .

إلا أن الناس هناك سلكوا معه سلوكاً وحشياً همجياً فدعا الله وهو عائد من الطائف بقوله :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين » (١) •

وقال لأهل الطائف وهو يعود منها : « لا تبلغوا أهل مكة ما صنعتم بي وإلا ازدادوا جساراً » (٢) •

عاد النبي من الطائف وأقام مرة ثانية خارج مكة وأرسل إلى الناس يطلب منهم موافقة أحدهم على حمايته حتى يتمكن من البقاء في مكة . وفي النهاية قبل مطعم بن عدي حمايته ، ودخل مكة في ظل سيوف أولاده •

ووضع النبي خطة للذهاب إلى القبائل التي تسكن أطراف مكة ، والتي كانت تقف عليها في الأعياد والأسواق وذلك ليجوز هذه القبائل ويهيئها لقبول حمايته ، قال لعنه العباس :

« لا أرى لي عندك ولا عند أخيك منعة فهل أنت مخرجي إلى السوق غدا حتى نقر في منازل قبائل الناس » (٣) •

فكان النبي ﷺ يذهب إلى موقع كل قبيلة ويسألهم : (كيف المنعة فيكم ؟) ويعرض عليهم نفسه ويقول لهم إن قبيلته كذبتة وأخرجته ويسألهم حمايته وإيواءه حتى يبلغ عند الله عز وجل ما أرسله به ، ويروي المؤرخون أن النبي ﷺ اتصل بخمس عشرة قبيلة ، قابل أفرادها فرداً فرداً •

(١) البداية والنهاية مجلد ٢ •

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٩٨ •

(٣) البداية والنهاية ، مجلد ٣ •

إلا أن القبائل كانت تعرف مدى خطورة قبول شخص أخرجته قريش من حمايتها ، وهكذا رفضت القبائل كلها إيواؤه وحمايته ، وهناك قبيلة أظهر أهلها تسامحا إلى حد ما ، قال أحد أشرافها : (أخرجته عشيرته وتوؤونه !! أنتم تحملون حرب العرب) (١) . فحماية شخص أخرجته قبيلته تعنى فى العرف العام إعلان الحرب على تلك القبيلة . فإذا حدث ذلك مع قبيلة قريش التى تملك السيادة على البلاد كلها فإنه يكون أمرا بالغ الصعوبة . وكما تقضى التقاليد العربية فإنه من الأمور الشائنة جدا أن يطلب شخص الحماية ثم لا يجدها ، فهذه هى أول حادثة واضحة من نوعها فى التاريخ العربى ؛ أن يظل عليه الصلاة والسلام يدور بين القبائل طالبا الحماية لعدة سنوات ، فلا يجد أحدا على استعداد لحمايته ، لا أهل الطائف ولا أهل القبائل العربية الأخرى . والسبب هو أن أمر النبى هذا كان يحمل نوعية خاصة ؛ فالقبيلة التى (طردته) كانت قبيلة قريش زعيمة العرب قاطبة ، وتقديم الحماية للشخص الذى تطرده قريش يعنى إعلان الحرب على العرب قاطبة .

كانت هذه هى الخلفية التى على أساسها قال أبو الهيثم بن التيهان رضى الله عنه لأصحابه وهو يأخذ البيعة من الأنصار :

« فاعلموا أنه إن تخرجوه رمتكم العرب عن قوس واحد » (٢) .

وعلاوة على ذلك فهناك سبب آخر للأحداث السابقة وهو أن القبائل التى كانت تسكن أقاليم الحدود كانت تربطها مع جيرانها من غير العرب معاهدات أخرى ، وكانت تخشى أن تؤوى هذه الشخصية المتنازع عليها فتبدأ مشاكل ونزاعات مع تلك الحكومات .

(١) أبو نعيم فى دلائل النبوة .

(٢) الطبرانى .

جاء في البداية والنهاية أنه ﷺ ذهب إلى سوق في « منى »
وتحدث مع زعماء بني ثيبان ابن ثعلبة ، فاستحسنوا رسالته ، ولكن
هانئ بن قبيصة عقب قائلاً : نحن نعيش على حدود كسرى (ملك
فارس) وبيننا وبينهم معاهدة •

(ولعل هذا الأمر الذي تدعو إليه تكرمه الملوك) (١) •

ويمكن تقدير الحلة التي وصل إليها رسول الله ﷺ في ذلك
الزمان من تلك العبارة التي وردت في إحدى الروايات حين ذهب ذات
مرة إلى قبيلة يقال لها (بنو عبد الله) :

« فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى إنه ليقول : يا بني
عبد الله إن الله قد احسن اسم أبيكم ، فلم يقبلوا منه ما عرض
عليهم » (٢) •

وهكذا قضى النبي ﷺ السنوات الثلاث الأخيرة في الحياة
المكية باحثاً عن الحماية بين القبائل ، ورغم محاولاته وكفاحه إلا أن
أية قبيلة لم تكن على استعداد لحمايته ، لدرجة أن بعض القبائل
قالت :

« أما أن لك ان تياس منا ؟! » وأخيراً وفق الله قبائل يثرب
(المدينة) الأوس والخزرج إلى هذا الأمر ، وكان وراء استعداد كل
من الأوس والخزرج لحماية النبي خلفية نفسية ، فهاتان القبيلتان
كانتا تسكنان بجوار قبائل اليهود ، وكان يهود خيبر يسيطرون على
أخصب الأراضي بالمنطقة ، وكانت التجارة في أيديهم أيضاً ، وهكذا
كان اقتصاد عرب (الأوس والخزرج) يثرب في معظمه في يد

(١) البداية والنهاية ج ٣ •

(٢) البداية والنهاية •

اليهود : ومما هو جدير بالذكر أنه بعد الهجرة قام النبي وأصحابه بتعمير المسجد النبوي بأيدي أجراء اليهود . فورد هذا البيت على لسانه ﷺ :

هذا الحمال لا حمال خبير هذا أبر ربنا وأظهر (١)

وكانت نتيجة التفوق الاقتصادي اليهودي والسيطرة العربية حدوث عدة حروب بين الأوس والخزرج وكانت اليهود تقول إن كتابنا بخبرنا بظهور بنى من العرب قريبا ، وحين يأتي سنكون معه وسنحاربكم ونقضى عليكم تماما ، وقد أشار القرآن إلى قول اليهود هذا في الآية الكريمة : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) (٢) .

سمع أهل الأوس والخزرج دعوة النبي فقالوا : بالله هذا هو النبي الذي حدثتنا اليهود عنه فلنؤمن به قبل أن يسبقنا اليهود إليه ولنصبح من جماعته ، وبالإضافة إلى هذه الخلفية كانت هناك أسباب أخرى تاريخية واجتماعية جعلت عشائر الأوس والخزرج قادرة على فهم كلام النبي ﷺ والايمان به بسهولة أكثر من بقية القبائل العربية وجعلتهم يمدون أيديهم لمبايعته .

والآن جاء الوقت الذي كان ينتظره من سنوات : فقد وجد قاعدة يمكن أن ينطلق منها كفاحه ونشاطه بشكل مؤثر وتحت حماية القبائل ، وأن يجمع مسلمي مكة وأطراف مكة في مكان واحد يجعل منه مركزا إسلاميا . وقبل عدد كبير من أهل يثرب الدين الجديد ودخلوا في الإسلام مما جعل من الممكن أن تتجمع الطاقات الإسلامية

(١) البداية والنهاية ج ٢ ،

(٢) البقرة ٨٩ .

المتفرقة في مركز واحد حتى يمكن لنشاط دعوة الحق أن يستمر بتأثير أكبر وهكذا يذكر المؤرخون عن مبايعة الأوس والخزرج للنبي ﷺ :
« قال : فلم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً حتى خرج إلى أصحابه فقال لهم : احمداوا الله كثيراً فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأهل فارس (١) » .

أعد ﷺ عدة الهجرة : ورغم الحذر الشديد في إخفاء الخبر إلا أن قريشا عرفت بالأمر . ينقل الطبراني عن عروة :

« ان مشركي قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم حين ظنوا أن رسول الله ﷺ خارج وعلوموا أن الله قد جعل له بالمدينة مأوى ومنعة وبلغهم إسلام الأنصار ومن خرج إليهم من المهاجرين فأجمعوا أمرهم على أن يأخذوا رسول الله ﷺ فيما أن يقتلوه وإما أن يسجنوه وإما أن يوثقوه وإما أن يخرجوه » (٢) .

وبعد إيمان الأوس والخزرج بالنبي قام ﷺ فرسم خطة محكمة وبعدها خرج في صمت من مكة .

الهجرة :

والمساعدة التي قدمتها قبال المدينة (الأنصار) للنبي ﷺ وللمسلمين تمثل حادثة تاريخية محيرة في الواقع ، فالناس إذا أعطوا شيئاً أعطوه نظير مقابل أو نتيجة لخوف أو نتيجة لوجود « بركة » معينة ، وهناك بعض الناس (أحياء أو أموات) يفترض فيهم « العظمة » ، والإنفاق عليهم أو الإغداق عليهم — طبقتا لهذا التصور —

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٢ ، ص ١٤٥ .

(٢) أخرجه الطبراني عن عروة بريل .

إنما يكون مصدرا لوجود بركة تحل بالأولاد أو تختل الأموال إلى آخره مما هو وارد في هذا الباب ، إلا أن ما حدث من الانتصار كان أول مثال بارز في التاريخ الإنساني على الإيثار والتضحية ، فلم يحدث أن قامت أمه بأكملها بفتح أبوابها كذمة للمهاجرين على أسس الأخوة الخالصة ، فالأنصار لم يقدموا للمهاجرين بيوتهم فقط بل أقاموا بينهم وبين المهاجرين مؤاخاة واعتبروهم كأشقائهم ، فقسموا بينهم ممتلكاتهم ، فعلوا كل هذا وهم يعرفون أن هذا العون المقدم للمهاجرين ليس مجرد عون اقتصادي بل هو إعلان للحرب ضد العرب والعجم ، وتصور العبارة التي قالها « على » هذا الأمر تصويرا دقيقا :

(كانوا صدقاء صبراء) (١) •

حين ترك المهاجرون وطنهم ووصلوا إلى يثرب كان كل واحد من الأنصار يود أن يحصل على ثرف استضافة أحد المهاجرين حتى أنهم اقتنعوا على ذلك (ولقد تشاحوا فينا حتى أن كانوا ليقترعون علينا ثم كنا في أموالهم أحق بها منهم) ورغم هذا الإيثار الخاص قاموا بمبايعة الرسول كما هو متبع وعلى أن يتم ترجيح الآخرين عليهم في تقسيم العهد (أثرة علينا) على (أن لاننازع الأمر أهله) (٢) •

وهكذا فبعد الهجرة لم تكن حياة المدينة حياة هدوء بالنسبة للنبي ، فقد ظهر العداء العربي المتحد في أسوأ مظاهره • يقول أبي بن كعب :

« لقد قدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة وآوتهم الأنصار ،

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٣ •

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ، مجلد ١ ص ١١١ •

فى الأهمية لم يسبق له نظير ؛ فضرورات الإنسان الفعلية تزايدت اليوم لدرجة أن الحياة بأسلوب بسيط خرافى على الطراز القديم أصبحت أمراً غير ممكن .

فإذا كانت مسئولية المسلمين الأساسية هى الدعوة والتبليغ فإن الأسباب السابقة تستلزم الكفاح والاجتهاد أيضا بكل قوة ليتمكن المسأهون من المشاركة بنصيب مشروع فى الاقتصاد الحديث . وذلك بصورة فردية وبصورة قومية أيضا .

ومع أن أسس مهمة أهل الإيمان في هذه الدنيا هو الدعوة والنبيغ إلا أن الواقع أن هذه الدنيا مادية ، ووجود الجماعة المعارضة للحدق هو وجود مستهر . ومن الضروري لأهل الإيمان أن يجتهدوا ويكافحوا بقدر استطاعتهم لامتلاك جميع الوسائل المادية . لقد هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة في السنة الثالثة للبعثة بلا متاع لكن بعد عشر سنوات حين تحرك لفتح مكة كانت الدعوة قد انتشرت لدرجة أن ركبته كان يضم عشرة آلاف رجل ، ومن ناحية أخرى فقد كانت الاستعدادات تجرى لإعداد ألفى رجل في الخفاء (لا يرى منهم سوى الحدق) الطبراني .

والعمل طبقا لهذه السنة تتأكد أهميته البالغة في ضوء ظروفنا الحاضرة ؛ فأهمية الآلة في حروب اليوم تزيد كثيرا على استخدام العضلات لدرجة أن التصور القديم للأجناس العسكرية أصبح خرافة الزمان الغابر ، وهكذا أصبح للوسائل الاقتصادية تأثير في زماننا انحالى حتى أن الحياة الإنسانية كلها أصبحت تابعة لها . وفي الزمان القديم لم تكن لعملية الدعوة والتبليغ أية علاقة بالاقتصاديات ، إلا أنك اليوم إن أردت أن تستخدم « القلم » في الدعوة والتبليغ فإنك لن تستطيع أن تستخدمه بتأثير بدون وسائل اقتصادية عظيمة ومؤثرة ثم حين نشاهد الأديان الأخرى تنتشر عن طريق الطائرات والإذاعات ، فإن الضرورة الاقتصادية تصبح أشد من ذي قبل مئات المرات .

وهكذا فإن أهمية الوسائل الاقتصادية تكون أكثر مئات المرات ، ثم إنها في ضوء الضرورة الشخصية في عالم اليوم تصل إلى مدى

أرض العدو بينما القواعد الأمريكية قريبة من حدودها لدرجة أنها يمكن أن تصل إلى أهم الأهداف كلها داخل روسيا في خمس أو عشرة دقائق •

والآن ماذا فعلت روسيا ؟ لقد قامت بتعيين جيش من العلماء لاكتشاف سلاح سريع يتمكن به حكام روسيا من الوصول إلى معامل ومصانع أمريكا وهم جالسون في بلادهم ، وهكذا في سبتمبر سنة ١٩٥٩ وصل الصاروخ الروسي ليونك رقم ٢ بنجاح كامل إلى القمر ، وتم إعلان ذلك في هدوء كامل أيضا بقولهم إن البحث قد نجح • ومن الجدير بالذكر أن المسافة بين الأرض والقمر تزيد على المسافة بين روسيا وأمريكا خمسين مرة ، والآن فالصاروخ الذي حمل صندوقا آليا ليصل به إلى القمر يمكن أن يسقط القنابل على أبعد البلاد مسافة، كما أن التحكم بالرادار والكفاءة التي أظهرها بالنسبة للطيران في الفضاء كان كافيا لإثبات أن القنبلة الذرية والهيدروجينية يمكن إسقاطهما بدقة على أي هدف في الأرض ، وأمام هذا الاكتشاف فإن ما قامت به أمريكا انهار كما تنهار عمارة بلا أساس فجأة على الأرض • هذا هو التحدي الروسي على الأرض وهو الذي أوجدت له روسيا حلا في السماء • وأثبتت أنه لا حدود نهائية للرقى في هذا العالم • والحقيقة أن الله تعالى قد خلق إمكانيات لا حدود لها للقوة والطاقة في هذا الكون ، وإذا أظهرنا النعمة والعزيمة أمكن ركوب كل صعب لدرجة أن كل ما يقوم به العدو يمكن أن يصبح مصداقا لقوله تعالى : « بطل ما كانوا يعملون » (١) •

أمام كل جماعة مسلمة سواء كانت تمثل أقلية أو أكثرية في البلد الذي تعيش فيه ، وسواء كانت السلطة في يدها أو لم تكن •

وهذا اقتادور له أثره فعن طريقته بدانا نلاحظ في دول أفريقية الأكثرية المسلمة وقد فقدت سلطاتها وتأثيرها في بلدها . وأصبح المسيحيون يسيطرون بصورة عملية على أمور السياسة وجميع شعب الحياة الاجتماعية الأخرى في البلاد . وذلك لا لشيء إلا لأنهم تفوقوا على المسلمين في مجال العلوم والتقنية ، وفي الصناعات والحرف . وفي النظام والانضباط ، وعلى سبيل المثال يمثل المسلمون في نيجيريا نسبة ٦٥٪ من بين السكان الأصليين بينما يمثل المسيحيون نسبة ٢٠٪ فقط إلا أنه في سنة ١٩٧٤ كان من أعضاء الوزارة خمسة من المسلمين وعشرة من المسيحيين ، وسبب هذا الفرق هو تفوق المسيحيين وتأخر المسلمين ، وفي المدارس الحكومية لا يزيد عدد الطلبة المسلمين على ٢٥٪ من المجموع الكلي للطلاب • وتتناقص هذه النسبة في مراحل التعليم العالي ، وبينما يمثل الطلبة المسيحيون في البلاد ٢٠٪ فقط إلا أن الهيئات العلمية تعج بهم •

ومثال آخر من نوعية أخرى وهو روسيا ، فبعد الحرب العالمية الثانية قامت أمريكا بمشروع ضد عدوها الاتحاد السوفيتي يقضى بعقد معاهدة مع البلاد التي تقع على حدودها حتى تقيم فيها قواعد عسكرية لها أو تكسيها إلى جانبها ، وكانت معاهدات (ناتو) و (سياتو) و (سنتو) هي الوسيلة التي تتمكن بها أمريكا تمرير سفنها العسكرية بالمحيط الأطلسي اتحل إلى أوروبا وشمال أفريقيا وآسيا وهكذا وعن طريق عدد من القواعد العسكرية أصبحت أمريكا في وضع يسمح لها بالتمكن من مراقبة العالم الشيوعي مراقبة شديدة ، وكان معنى هذا هو أن على روسيا أن تطوى مسافة سدن الكرة الأرضية لتحصل إلى

نخط بالمجتمع الإسلامى الذى يمتلك السلطة • ما معنى هاتين القوتين فى زماننا الحاضر ، وكيف يمكن الحصول عليهما ؟

حتى يتضح ذلك نقدم اليابان وروسيا كمثالين على هذا الأمر :

حين هزمت اليابان فى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٤) وتم نزع سلاحها ، واستولى الجيش الأمريكى على اليابان : تم إغلاق أبواب الأفكار العسكرية أو السياسية أمام اليابان وألقى امبراطور اليابان هيروهيتو (١٩٠١ —) خطابا قال فيه :

« علينا أن نتحمل كل ما بوسعنا لبناء الأجيال اليابانية القادمة » .

ومن هنا بدأت اليابان كلها تعمل من أجل تطوير جميع المجالات الأخرى غير السياسية ، فأعطوا لأساتذتهم رواتب الوزراء وسلموهم سلطات المحافظين حتى يمكن أن يرتفعوا بالتعليم إلى أعلى مستوى ، وتطورت الصحافة لدرجة أن أكثر الصحف طباعة فى العالم هى الصحف اليابانية ، وتطورت الصناعة والتقنية فى اليابان حتى وصلت أوج كمالها •

ورغم عدم وجود الحديد والصلب باليابان فهم الآن يقومون بصناعة أعظم الآلات فى العالم ، وقد ارتفعوا بمستوى صناعتهم ونوعيتها حتى وصل المعيب فيها إلى درجة الصفر ، وتطور الإحساس القومى والنظام والانضباط لدرجة أنه لا يوجد بين أمم العالم من يضارعها فى ذلك •

ورغم أن مجالات التطور هذه ايمت مجالات عسكرية أو سياسية فى الظاهر ، إلا أنها أثبتت قوتها لدرجة أن أمريكا قامت باستدعاء جيوشها من اليابان بدون أية مواجهة تذكر •

هذا هو مجال البناء والرقى ، وهو مجال مفتوح بكافة إمكانياته

وعاطفة إسلامية ، وواجه الاثنان « القوة الغربية » إلا أن الأول أصبح ماتحا للقدس والثاني واجه فقط العدو وهزم واستشهد . وهذا الفرق بينهما لا يرجع إلى سر « سليمان » فالحقيقة البسيطة أن السلطان تيبو واجه عدوه في القرن الثامن عشر في وقت كان فيه الغرب متفوقا في الصناعة العسكرية ؛ فقد اكتشف أنواعا من الأسلحة التي يستخدمها ضد العدو من مسافات بعيدة ، وقد أغنته هذه عن استخدام الأسلحة التقليدية الرائجة في تلك الفترة ، كما تمكن الغرب من السيطرة على القوة البحرية تماما، وعلى العكس من هذا واجه صلاح الدين عدوه في القرن الثاني عشر الميلادي حين كان المسلمون يملكون قيادة الدنيا في الصناعة الحربية ، ففي تلك الفترة امتلأت مصر والشام والعراق بالمصانع التي تنتج أحدث وأحسن الآلات الحربية في العالم ، وكان للمسلمين اليد العليا في وقف حملات الروم في العصر العباسي ؛ وفي صد الأمم الأوروبية زمان الحروب الصليبية ؛ وقد تطورت الصناعات العسكرية في هذه المنطقة بصفة خاصة في زمان الحروب الصليبية حتى أنه حينذاك وبعد عقد اتفاقيات الهدنة كان أهل أوربا يتجهون إلى أسواق مصر والشام بصفة خاصة لشراء الأسلحة ، حتى أصدر العلماء المسلمون في ذلك الوقت فتوى تقضى بأن بيع الأسلحة للنصارى حرام لأنهم سيستخدمونها ضد بلاد المسلمين^(١) . هذه هي القوة التي ورد ذكرها في القرآن باسم « القوة المرهبة » حيث قال : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)^(٢) .

والقوة المرهبة قوتان : الأولى تتعلق بجميع المسلمين ؛ وعلى كل جماعة مسلمة أن تعمل للحصول عليها على قدر ما تملك ؛ والثانية تتعلق

(١) د . مصطفى السباعي ، من روائع حضارتنا .

(٢) الأنفال ، ٦٠ .

وقائع الخلاف والنزاع التي كانت وراء جميع صور الفشل التي تعرض لها المسلمون •

يذكر القرآن الكريم ان المؤمنين بعضهم اوليا بعض : وهكذا فالكافرون أيضا بعضهم اولياء بعض . وهذا يعنى وجود اختلافات فطرية فى الطباع البشرية ؛ فإذا كان هناك شخص موزون الإرادة فإنه سوف يبحث عن عوامل الأشتراك بين أفراد البشر التي تضمهم وتجمع بينهم ، فيبدون هذه العوامل المشتركة لا يمكن لأى عمل أن يحقق أى نجاح فى هذه الدنيا ، فإن الاخلاص للهدف يجبر موزون الإرادة على أن يتغاضى عن جوانب الخلاف ليوحد أهل جنسه ؛ وأهل الكفر مهما كان بينهم من فروق واختلافات فإنهم أيضا يتفتنون على بعض النقاط : وهكذا فرغم الاختلاف الفطرى بين جماعة المؤمنين : ففى حياتهم الاجتماعية يوجد شىء يمكنهم من الاتحاد مع إخوانهم : وان حدث خلاف بينهم فإنه يحدث حين تخلو قلوبهم من الخير تماما • (إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيراً مما أخذ منكم) (١)

٣ — والأمر الثالث اللازم لبناء الأمة يمكن استخلاصه من تلك

الآية :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (٢) إن أهمية القوة المرهبة فى دنيانا هذه يمكن أن نفهم من مثال واحد :

تشابه كل من السلطان صلاح الدين الأيوبي بمصر (١١٣٧ — ١١٩٣ م) والسلطان تيبو بالهند بما يملكان من كفاءة عسكرية وشجاعة

(١) الأنفال ٧٠ •

(٢) الأنفال ٦٠ •

دخل محمد بن القاسم إلى منطقة باكستان الحالية عن طريق ملتان سنة ٧١٢ م ، ولم يدخل البلاد غازيا كما فعل محمود الغزنوي أو بابر . بل دخله بدين الرحمة وكما يقول أحد المؤرخين : « كان أعدل من أنو شيردان وكان رحيما راعيا للرعية . وهكذا وخلال سنوات قليلة انتشر الإسلام من سواحل بحر العرب إلى كشمير . واعتبره السكان المحليون ملاكاً . وبعد عودته أقاموا له مأتماً (فبكى أهل الهند على محمد وصوروه بالكيرج — البلاذري) ، وقد قام سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩ هـ) بعزل محمد بن القاسم واستدعائه إلى دمشق لسبب غير مفهوم في نفسه ، وبعدها سجنه وتوفي محمد بن القاسم على هذا الحال وهو ينشد هذا البيت :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر !

وتوقف زحف الإسلام على شبه القارة الهندية بعد محمد بن القاسم لمدة ثلاثمائة سنة ، ثم بدأ الزحف الإسلامي ثانية ، وتم بعزيمة أصحاب الهمم ثم انتهت بعد ذلك عاطفة نشر الإسلام لدى الجيل التالي من المسلمين ، تلك العاطفة التي كانت تموج بقلب محمد بن القاسم . يكتب جواهر لال نهرو :

« إن الدولة العربية التي بلغت مدى كبيرا من الاتساع والتي بدأ ظاهريا أن العرب لم يلقوا أية صعوبة في سبيل الانتشار خارجها ، لم تتمكن من التقدم إلى أبعد من السند في الهند . . . وبعد قرون على فتح السند هجم المسلمون على شمال الهند . ومن الممكن أن يكون سبب هذا التوقف الحموبات الداخلية التي واجهت العرب ؛ لأن السند (بعد محمد بن القاسم) انفصلت عن القوة المركزية لبغداد وأصبحت دولة مسلمة مستقلة » (١) وفي الفترة التاريخية التالية نشاهد هذا النوع من

(١٢٢٥) حاكما على منطقة خرسان وما وراء النهر . قام ابن خوارزمشاه بمنع ذكر اسم الخليفة في الخطبة . ووضع خطة للهجوم على العراق ليضمها إلى سلطنته . وعلم الخليفة الناصر لدين الله بالأمر وحتى يقوم بالقضاء عليه أرسل خطابا — سرا — إلى التتار ليهاجموا على ابن خوارزمشاه وكان يعتقد أن ابن خوارزمشاه سوف ينشغل بهذا بقضية الدفاع عن نفسه ، وإن يفكر في الهجوم على العراق ، واستفاد التتار من هذا الخلاف ، فهجموا على ابن خوارزمشاه وقضوا على هذه السلطنة . ثم بدأوا يتحركون بقيادة جنكيزخان (١١٦٢ — ١٢٢٧) بقلب هادئ ليهاجموا على سلطنة الناصر لدين الله . وقاموا بتخريبها وتحطيمها من أولها إلى آخرها .

وكان السبب في القضاء على الحكومة الإسلامية بأسبانيا هو أيضا الاختلافات الداخلية ، ففي الوقت الذي هزم فيه مسلمو أسبانيا على يد الأمم المسيحية كان المسلمون يتفوقون عليهم في العلوم والتقنية تفوقا كبيرا ، ولكن سبب الهزيمة هو أن المسيحيين كانوا متحدين معا بينما كان المسلمون يتصارعون معا ، وبدأ عمال الأقاليم يعلنون العصيان وينفصلون عن مركز الخلافة مستقلين بما في أيديهم ، فأقاموا إمارات صغيرة مستقلة حتى أن أحدهم لم يكن يخجل من الاستعانة بالجيوش المسيحية لقتال المساميين . لقد تهمت هزيمة المسلمين السياسية في أسبانيا في آخر القرن الخامس عشر الميلادي حين استولى المسيحيون على قلعة غرناطة واستغرق إخلاء البلاد من المسلمين قرنا من الزمان ، ورغم عمليات الإبادة الجماعية التي حدثت ثلاث مرات إلا أن آخر قوافل المسلمين خرجت من أسبانيا سنة ١٦٠٥ ، وكان السبب في هذا هو سيطرة المسلمين هناك على الاقتصاد والآداب والفنون ، ولهذا فرغم القضاء على سلطتهم السياسية ، لم يكن من الممكن إخلاء البلاد منهم على الفور ، وهكذا كانت نتيجة الخلافة . فحين عمهم الخلاف لم تكن هناك من فائدة لأي عمل يقومون به .

« عن عبادة بن الصامت قال : خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحي رجائين من المسلمين فقال : خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحي فلان وفلان فرفعت » (١) .

وبعد أن نقل ابن كثير هذه الرواية علق بقوله : « يفهم من هذا الحديث أن الإسلام ينبذ النزاع بين المسلمين لدرجة أن البركات تضع بسببه » .

والأمة المحمدية تحمل « كتاباً محفوظاً » ولهذا فلا يمكن لأحد أن يقضى عليها فؤده الأمة ستظل باقية طالما بقي القرآن على هذه الأرض ، ومعنى هذا أنه لا يمكن لأية قوة خارجية أن تصيبها بضرر حقيقي ، وإذا أصيبت بضرر فسيكرونها من جراء غفلتها الداخلية ، ويأتي على رأس هذه الغفلة النزاعات الداخلية ، قال ﷺ في خطبة حجة الوداع : « ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (٢) .

ولقد أثبت التاريخ بطريقة محيرة هذه التنبؤات ففي القرن الثالث عشر الميلادي حدث طوفان التتار الذي غطى العالم الإسلامي بالقتل والدمار وجعل منه مقبرة ، هذا بينما مر على العالم الإسلامي عصر شهد ظهور صلاح الدين الأيوبي (١١٣٧ — ١١٩٣) الذي هزم الأمم الصليبية هزيمة منكرة ، وكان لهذه الحادثة أثرها في تثبيت الكفاءة الحربية للمسلمين لدرجة أن أية ثورة سياسية لم تكن لتجرؤ بعدها على التحرك تجاه السلطنة الإسلامية : إلا أنه بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي بأقل من عشرين سنة كان هجوم التتار على العالم الإسلامي ، لقد كان السبب الرئيسي والوحيد لما حدث هو الخلافات الداخلية ، فأثناء تلك الحملة كان السلطان الناصر لدين الله (١١٥٨ — ١٢٢٥) قائماً على الخلافة في بغداد بينما كان علاء الدين محمد بن خوارزمشاه (١١٢٠ —

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ، ص ٦٢٢ .

(٢) مسند أحمد عن أبي حرة الرقاشي .

ان شخصياتنا هذه لم تتمكن من فهم فرق الزمان فقد ركزوا كل اهتمامهم في الزمن الحالى على السياسة قياساً على الماضى ، لم يبذلوا أى جهد حقيقى فى سبيل تطوير وتعزير اقتصاد المسلمين ، ثم إن الاقتصاد فى زماننا الحالى يرتبط ارتباطاً وثيقاً ببقية العلوم الجديدة ، التى تفيد فى جميع الأعمال ابتداء من الفلاحة حتى استخدام الآلة ، وهنا أيضا أثبت المسلمون غفلة محيرة ، فلم يفهموا العلاقة الجديدة بين التعليم والاقتصاد وقنعوا وظلوا على قناعتهم بالعلوم التقليدية لقرون من الزمان ، وانغمسوا فى ذلك لآخر مدى وظهرت نتيجة هذه الغفلة فى النهاية ، وجاء جيل بعد جيل حتى أصبح العالم فيهم جاهلاً إذ ما قورن علمه بالتطور العلمى فى عصره .

٢ — والثىء الثانى اللازم لبناء واستحكام الأمة هو الاتحاد :
« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » (١) ومن المعروف أن الاختلاف ينبت الجبن ويقضى على المهابة القومية ، وعلى العكس من هذا إذا ما اتحدت الأمة فإن شخصا واحد يساوى مائة ألف شخص ؛ فالاتحاد يولد لدى الناس الهمة والثقة بالنفس ويعلى من سمعة المسلمين بين الأمم وأهمية الاتحاد فى الدين أهمية كبرى حتى انه لا يستحب أن يوجد فى مسجد واحد مجلسان فى آن واحد .

رأى ابن مسعود حائتين فى مسجد الكوفة ، فقام بينهما فقال :
أيتكما كانت قبل صاحبتهما ؟ قالت إحداهما : نحن ، فقال للأخرى : قوموا إليها فجعلهم واحدة « (رواد الطبرانى فى الكبير)

وبناء على أهمية الاتحاد قدم الصحابة انعقاد الخلافة على تجهيز وتكفين النبى ﷺ بعد وفاته : جاء فى إحدى الروايات :

(١) الاتصال : ٤٦ .

العصر الحديث تغير معنى الاقتصاد تماما ، فأكبر وسائل امتلاك الاقتصاد الآن هي الصناعة والتجارة حتى أن الزراعة أيضا أصبحت في العصر الحاضر إحدى الصناعات ، لقد تدخلت التقنية الحديثة الآن في كل شيء حتى تحولت الثروة بطريقة طبيعية إلى أيدي أوائك الناس الذين يملكون التكنولوجيا ، وتتمثل القضية القومية الأساسية للمسلمين في أنهم لم يتقدموا أبداً عن عصر الزراعة التقليدية والتجارة التقليدية، والنتيجة هي أنهم أصبحوا أمة من الدرجة الثانية من الناحية الاقتصادية في العالم ، هذا باستثناء الدول التي تملك الثروة نتيجة لمخزون المصادر الطبيعية دون أن تبذل أى جهد ، وعلى سبيل المثال دول الخليج العربى وذلك بسبب البترول •

فاذا أراد المسلمون أن يعيشوا في هذا العصر الحديث فعليهم أن يفهموا المتغيرات الاقتصادية الجديدة وذلك بصورة أساسية وضرورية وأن يعملوا على مسايرة اقتصاديات العصر الحاضر وإلا ظاوا فريسة سهلة لسيطرة الأمم الأخرى ثم يصبحون في النهاية أمة منبوذة اقتصادياً بين دول العالم •

وحركات المسلمين الكبرى التي ظهرت في العصر الحاضر راحت — بدون استثناء تقريباً — ضحية هذا الخطأ ، فقد أعطت للثورة السياسية اهتماماً أكثر مما تستحق بينما الاقتصاد وماله من صلاحيات ومكانة في عصرنا الحاضر يحتل المكان الأول ويليه بالدرجة الثانية السياسة فالسياسة هي اليوم في يد أولئك الذين يمتلكون الاقتصاد ومن لا توجد في يده القوة الاقتصادية لا تكون له أية سياسة •

في فترة قريبة مضت أنبتنا شخصيات رشعناها إلى اليمالايا من الناحية السياسية ، ورغم هذا لم تحصل على المكانة التي كان يجب أن تحصل عليها مثل هذه الشخصيات العظيمة ، والسبب الوحيد هو

وتترجم كلها جميعا حرفا حرفا إلى اللغة الإنجليزية ويتم نشرها بعد ذلك .

ما هي الأسس التي توضع عليها عملية بناء واستحكام الأمة ؟
أوضح القرآن الكريم ثلاثة أصول خاصة :

— قيام الأمة

— الاتصاد

— القوة المرهبة

١ — عبر القرآن عن المال بالقيام (أموالكم التي جعل الله لكم قياما) (١) ويأتي القيام أيضا بمعنى العون والتعاضد (Support) : قام على عياله أو هو قيام أهله ، ويقال أيضا حين يكون الشخص عوناً لأهله وعياله ، وقد جعل الله المال أو الاقتصاد عوناً اقتصادياً للإنسان في هذه الدنيا ، وعن طريقه يستطيع أن يسد حاجات حياته التي يتمكن بها من الحفاظ على جسده ، ومن هنا فهو يصبح مالكا لتلك الوسائل التي توجد في هذا العالم المادي والتي تحتاج بالضرورة إلى قدر من الجهد والكفاح للوصول إلى النجاح ، وقد جاء من بين دعاء النبي : اللهم إني أعوذ بك من الفقر . . . وتعجبت عائشة وسألت الرسول : أقلت هكذا ؟ فقال نعم يا عائشة ، (كاد الفقر أن يكون كفراً) .

وقبل خمسمائة سنة كان المسلمون يسيطرون على اقتصاديات العالم ، ولكنهم اليوم حرموا من « القيام » الاقتصادي ، والسبب هو أنهم لم يفهموا اقتصاديات العصر الحديث ، ولهذا فشلوا أيضا في أن ينهضوا ويتطوروا باقتصادهم ؛ ففي العصر القديم كان الاقتصاد مقصورا على الإنتاج الزراعي (الزراعة والفلاحة والبستنة) ولكن في

الوحيد في المؤتمر الذي يرتدى القبعة وقد استقبله بقية ممثلي البلاد الإسلامية بانتفاض شديد^(١) .

ماذا فعل لينين بعد السيطرة على الحكم في روسيا ؟ لقد أنشأ لجنة للترجمة من اللغات العالمية في سنة ١٩٢٢ وأسمها *Cominit* وكان عمليا جمع كتب العلوم والتقنية المكتوبة باللغات الأجنبية . وترجمتها إلى اللغة الروسية ، واعتبر لينين هذا العمل مهما لدرجة أنه أشرف عليه شخصيا رغم انشغاله بالعديد من الأعمال الأخرى . وكانت النتيجة جمع العديد من الكتب التي مثلت ذخيرة ضخمة بروسيا وأستمر هذا العمل حتى انه اليسيم يصدر جرنال روسي بعنوان *Referativy izlurnal* يحتوى كل عدد منه على ملخص للميون مقال علمي وتقني صدرت بسبعين لغة في ١١٧ بلدا ، وحتى يتم هذا العمل تم تعيين مائة ألف خبير مترجم في هذا الجرنال ، كما يضم فريق المترجمين الخاص لاتحاد معاهد المعلومات والتكنولوجيا *All Union Institute For Scientific and technological information*

ألفين وخمسمائة مترجم بالإضافة إلى ٢٢ ألف خبير مترجم يعملون بعض الوقت ، وفي روسيا الآن أكثر من خمسة آلاف مؤسسة علمية تضم تقريبا مليون عالم من بين أعضائها ، كما تم وضع نظام تعليمي في روسيا يضمن وجود عدد ضخم من يستطيعون الكتابة والترجمة بلغتين في وقت واحد ، وكان من نتيجة هذا العمل المتواصل أن كانت روسيا أول بلد يرسل أول قمر صناعي إلى الفضاء (١٩٥٧) . وذلك في تاريخ الانسانية ، ويحتل العلم الروسي والتكنولوجيا الروسية أهمية كبيرة لدرجة أن ٢٥٠ جرنالا علميا روسيا تطلب في أمريكا

^(١) Irfan Orga Margarete, Ata tuk. Michael Joseph Ltd,

(١٩٢٢) نفي زمن واحد تقريبا . أضف إلى هذا أن مؤسس الثورة التركية مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ — ١٩٣٨) عاش أربع عشرة سنة فوجد فرصة للعمل أكثر مما وجد مؤسس الثورة الروسية فلاديمير لينين (١٨٧٠ — ١٩٢٤) إلا أن الوضع الآن هو أن الروس يرسلون بمراكبهم الفضائية إلى الفضاء ، والأتراك لم يتمكنوا بعد من تثبيت أقدامهم على الأرض .

وهذا الوضع ليس مجرد صدفة محضة إن وراءه أسبابا تاريخية عميقة ؛ فحين استولى كمال أتاتورك على السلطة في تركيا رأى بل اعتقد أن سر الرقي والمدنية يكمن في تقليد الحضارة الغربية تقليدا كاملا . فغير « الدولة الدينية » القديمة إلى دولة « علمانية » وقضى على قانون الشريعة الإسلامية وطبق في تركيا القانون الديواني السويسري . والقانون العسكري الإيطالي . والقانون الدولي التجاري الألماني . ومنع التعليم الديني وأصدر قانونا ضد الحجاب ، وطبق التعليم المختلط وقضى على اللغة التركية المكتوبة بحروف عربية واستبدل بها الحروف اللاتينية . ومنع الأذان باللغة العربية ولم يسمح بالذهاب لأداء فريضة الحج بمكة وغير الزى القومي وأصدر قانونا يلزم لبس القبعة حتى أن مسألة لبس القبعة أصبحت وكأنها حرب منظمة داخل تركيا . وأعدم العديد من الناس لأنهم رفضوا خلع الطربوش وارتداء القبعة . وأعتقل آخرون وأعدموا لأنهم استهزأوا بالقبعة أو رفضوها ، وبعد حرب شديدة نجحت مهمة إلباس الشعب التركي القبعة وأعلن كمال أتاتورك انتصاره فأرسل إلى المؤتمر الإسلامي بمكة (١٩٢٧) مندوبا من البرلمان يدعى أديب ثروت للاشتراك في المؤتمر ممثلا لتركيا . وكان أديب ثروت هو الممثل

بناء الأمة

مع ان الدعوة الإسلامية بدأت في منطقة لم يؤمن فيها بالإسلام سوى الداعي فقط فقد ظل التركيز مستمرا على حركة الدعوة الإسلامية بالإنذار والتبشير . وإذا ما وجد من آمن بالإسلام أصبح من واجب الداعي بالضرورة العمل على تجميع هؤلاء الناس وبنائهم داخل أمة ، كما نشاهد بالنسبة لموسى عليه السلام ؛ فقد صدر الحكم الإلهي له بالذهاب إلى فرعون وإلى أقباط مصر ليطلعهم على اليوم الموعود (اذهبوا إلى فرعون إنه طفي) (١) ومن ناحية أخرى ظل يقوم بعمله الأخرى وهو تخليص مسلمي ذلك الوقت (بنى إسرائيل) من العذاب الفرعوني (فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم) (٢) وهذا العمل الثاني عبر عنه الكتاب المقدس كما يلي :

(تخليص أمة من المصيبة) [الأعمال ٧ : ٣٤]

ولقد وقع تأثير ما يطلق عليه اسم العصر الحديث على المسلمين بصورة واضحة لأن الأمم الغربية - التي سيطرت على العالم بتقوتها الجديدة - كانت تمثل العالم الذي سيطر المسلمون على الجزء الأكبر منه ؛ وكان رد الفعل الطبيعي ظهور حركات تهدف إلى إعادة بناء الأمة الإسلامية . وظهرت هذه الحركات على نطاق واسع . وهدفت عليها منذ سنة الآن . ولكن لم يتمكن المسلمون حتى اليوم من استرجاع مكانتهم الشائعة ، والسبب هو أنهم لم يستطيعوا فهم أساس قضيبتهم ؛ وظلوا يبحثون عن مستقبلهم وسط تدابير سطحية وعاطفية لقد قامت الثورة الاشتراكية الروسية (١٩١٧) والثورة التركية

(١) ص ٤٣ .

(٢) ص ٤٧ .

الإسلامية رغم أنها بالطبع متعاطفة مع الإسلام إلا أنها من حيث المزاج ليست على استعداد كامل لإعلان قيام دولة دينية خالصة . ومصر وباكستان واندونيسيا أمثلة على هذا الأمر ؛ ورغم ما حققت الحركات الإسلامية في تلك البلاد في وسط القرن التحالي من شهرة ونجاح إلا أنها — للأسف — لم تنجح في تطبيق الشريعة الإسلامية . ولقد توفرت للمصلحين الفرص لأنهم في بلد إسلامي . وتوفرت لهم سبل الدعوة الإسلامية بطريقة مؤثرة . إلا أن كل هذا ضاع وانتهى نتيجة للخلافات والاحتجاجات السياسية .

لقد اختار رجاء بن حيوة مرافقة الحاكم الاموي سليمان بن عبد الملك فأعدده لينصب للخلافة من بعده عمر بن عبد العزيز (٦٨٢ — ٧٢٠) . وقد قبل القاضي أبو يوسف منصب قاضي القضاة في عهد هارون الرشيد ليوضح للناس كيف يمكن للإسلام أن يقضى في الظروف المتغيرة للزمان . والشيخ أحمد سرهندي (١٥٦٤ — ١٦٢٥) تقابل مع الامبراطور المغولي جهانكير ونجح في محاولة القضاء على بدع أكبر .

هذه الطريقة في المصالحة مع الحكام كانت وسيلة المسلمين السابقين في العمل من أجل الإصلاحات الجزئية . ولو أن مصلحي وقتنا الحاضر قد قاموا بمثل هذا واتخذوا منه وسيلة لحركات إحياء الإسلام فإنهم بذلك سيؤدون عملا عظيما من أجل رفعة الدين وغلبة الإسلام . عمل مازلنا نفكر فيه الآن ، نفكر فيه فقط ولا نفعل شيئا من أجل تنفيذه .

ولذن مفعله أكثرهم نم يكن سوى تضييع هذه الفرصة والجري وراء فرص أخرى لم تكن لتتوافر في ذلك الوقت فقد فهموا العمل على انه صراع سياسي مع اهل السلطة. كان حولهم العديد من الفرص التي تتيح لهم أهم الأعمال : الإصلاح الأخلاقي للمسلمين. إعداد أدب إسلامي يلائم العصر الجديد . بناء الأمة الإسلامية بناءً صناعياً وعلمياً ، العمل على وحدة العالم العربي . إلقاء الضوء على أهمية القوة الطبيعية الضخمة للبتروول والاستفادة منه ؛ تبليغ الإسلام في قبائل إفريقيا غير المسلمة التي تنتظر قدومنا منذ قرون ؛ العمل على رفع المستوى التعليمي والاقتصادي للمسلمين في بلاد إفريقيا المسلمة فنتيجة لانخفاض المستوى التعليمي والاقتصادي . سيطرت عليهم الأقلية المسيحية هناك . لكن هذه القيادات العظيمة رغم إخلاصها الكبير ورغم ما صدر عنها من تضحيات غالية لم تتمكن من القيام بأى عمل من تلك الأعمال السابقة على سبيل المثال .

وهناك خطأ اجتهدى لدى المصلحين المسلمين في العصر الحاضر؛ فقد اعتقدوا أن من الواجب البدء في المطالبة بتنفيذ الشريعة الإسلامية في تلك البلاد التي توجد بها أكثرية مسلمة والتي يحكمها المسلمون سياسياً . وكان هذا خطأ ما بعده خطأ ولا توجد له من نتائج عملية سوى أنهم صاروا حزباً معارضاً في بلدتهم واستقر أمرهم على هذا . وإذا كانت الظروف الخاصة في البلاد التي توجد بها أقلية مسلمة تخضع القضية على عائق الأكثرية المحلية غير المسلمة ، فإن ذات القضية في البلاد التي توجد فيها أكثرية مسلمة تتمثل في الظروف العالمية . بالإضافة إلى أن من يسيطرون على جميع فروع الحكومة في البلاد المسلمة إنما هم أولئك الذين درسوا في إدارات ومؤسسات على الطراز الغربي لأنهم هم الذين يملكون الكفاءة التي تمكنهم من إدارة البلاد في هذا العصر الجديد . ولهذا فإن الطبقة الحاكمة في البلاد

لقد وجد مصلحو الأمة في العصر الحديث فرحاً للعمل لا حصر لها ؛ فقد كان (عبد القهار مذكر) في أندونيسيا (١٩٠٢ — ١٩٧٣) من الأصدقاء المقربين للرئيس سوكارنو . وتمكن من البدء في اتخاذ إجراءات وأعمال كثيرة في سبيل رقي الدين واستحكامه في البلاد كان لها عظيم الأثر في تشكيل المجتمع في أندونيسيا حتى بعد غيابه وبعد غياب سوكارنو إلا أنه اختلف مع الحكومة في ذلك الوقت على مسألة تشكيل الدستور الإسلامي وكانت النتيجة أن انتقل من هذا العالم ولم تصدر عنه سوى الاحتجاجات والشكوى فقط .

كان هذا هو الحال بالنسبة لجميع البلاد الإسلامية في ذلك الوقت ؛ فمصر والشام حصلتا على مكانة الزعامة والقيادة الفكرية في العالم الإسلامي نظراً لما تتمتعان به من مميزات تاريخية وجغرافية ، وقد وهبهما الله العديد من الشخصيات الإسلامية ، وحين التقى جمال الدين الأفغانى لأول مرة بالأمير شكيب أرسلان صدرت منه على الفور هذه العبارة :

« أنا أهنيء أرض الإسلام التي أنبتك »

ولو قامت هذه الشخصيات العظيمة التي ظهرت في هذه المنطقة في العصر الحاضر بالاستفادة الصحيحة من الامكانيات العملية ، ولم تصدم صدامات غير ضرورية مع أصحاب السلطة لشهد العالم الإسلامي اليوم تاريخاً جديداً ، لقد كانت هذه الشخصيات قد وجدت الفرصة للعمل في المنطقة الإسلامية واستمر عملها من حيث المجموع لفترة زادت على قرن من الزمان ، وهم لم ينالوا فقط شهرة واسعة بين عامة الناس بل كان من بينهم من له تأثير كبير لدى الطبقة الحاكمة . مما كان يعطيهم فرصة كبيرة للإصلاح الديني .

مشهورة داخل تاريخ البشرية . وقد بدأ العصر الحديث من هذا المنطلق من نيوتن (١٦٤٢ — ١٧٢٧) .

ولد شاه ولي الله دهنوى (١٧٠٣ — ١٧٦٢) حين كان نيوتن حيا . وقد ظهر كتابه المشهور عن النسبية (فى ١٦٨٧م) ، إلا أنه حين حظمت الأمم المعادية للإسلام هيكل العلم التقليدى . وبدأت فى ايجاد علم جديد فإن بعض المصلحين فى ذلك الوقت ترك هيكله التقليدى ، ولم يتمكن من التوفيق أو النجاح فى شيم تضية العصر . لقد شرح بعضهم شرحا وافيا شروحات التصوف الشائخ ، ثم ظهرت فى تلك الفترة الثورة الفكرية التى أطلق عليها « الجمهورية » ، فقامت جمهورية اثورة الفرنسية (١٧٨٩) وانفصل أهل امريكا عن انجلترا وأقاموا حكومتهم القومية (١٧٨٣) ، ومع أن ذلك حدث بعد هذا العهد إلا أن العوامل الفكرية لكل هذه الأمور كانت قد اكتملت فى هذا الزمان حتى أن روسو كان معاصراً تماماً لهذا العهد ولكن الظروف السياسى كان له تأثير بعيد المدى ، فى هذا العصر . . فقد حدثت الثورات الجمهورية فى أوروبا وأمريكا . إلا أنه صعب على مصلحي هذا العصر أن يقيموا للمسلمين خطة مؤثرة لحركة اجتماعية تتلاءم مع ظروف العصر الحديث فى ضوء الدين فى وقت كانت فيه أصول الجمهورية أو بعبارة أخرى حكم الأغلبية مسلمة سياسية معترفا بها فى العالم . وضحى العلماء والمفكرون جيلا بعد جيل بالروح والمال فى سبيل قيام حكومة ذاتية على أساس القومية الوطنية ، ولم يكن من السهل أن نتوقع تمكن الأقلية المسلمة من الفوز والغلبة فى بلادنا هذه مرة ثانية حيث أعوزتهم الدراية بالمتغيرات السياسية الجديدة فى الوقت الذى وقعت فيه ثورة ١٩٤٧ ، واتخذت القرار الأخير . وأجبرت المسلمين على أن ينكمشوا ، وهم يشاهدون بحسرة أمانيتهم المقتولة ، وهكذا يمضون من هذه الدنيا .

بخارى فى سنة ١٦٩٨ م وذلك إبان حكم الأمبراطور عالمكير للهند .
وكان نموذجا للأمبراطور الذى جمع بين الدين والسياسة .

ومن ناحية أخرى كان السلطان أحمد الثالث (١٦٧٣ — ١٧٣٦)
يعتلى عرش الأمبراطورية العثمانية ، إلا أن كلا من الأمبراطورية
المغولية والأمبراطورية العثمانية كانتا بمعزل عن العالم ، فلم تعرفا
بخبر هذه الثورة التى حدثت فى موازين الطاقة . تلك الطاقة التى
انتشرت وكانت فى النهاية سببا فى القضاء على هاتين الأمبراطوريتين

وهناك حادثة أخرى لها أهمية كبيرة من وجهة النظر الإسلامية ،
وتتمثل فى اختراع المطبعة ، ويقال إن أول من نجح فى بناء مطبعة من
الخشب كان ألمانيا يدعى كوتن برك (١٣٩٨ — ١٤٦٨) وقام وليم
نيكولون الانجليزى ببناء أول مطبعة من الحديد . وحسم أول مطبعة
تعمل بالآلة ، كان هذا فى سنة ١٧٩٠ فى الوقت الذى حقق فيه بعض
المصلحين نجاحا كبيرا فى حركتهم ضد « البدع » . فى هذا الوقت
كانت جريدة التايمز أول جريدة طبعت بمطبعة تعمل بمحرك بخارى فى
٢٩ نوفمبر سنة ١٨١٤ فى وقت كانت تعيش فيه شخصيات إسلامية
كبيرة ، إلا أن العالم الإسلامى كله لم ينتج رجلا واحدا يشعر بأهمية
الأمر فى حينه ويدرك أن هناك طاقة جديدة ظهرت فى العالم اسمها
المطبعة وقريبا ستسيطر على عقول الدنيا كلها ، وأول من أدخل
المطبعة إلى مصر هو نابليون (١٧٦٩ — ١٨٢١) ومن مصر انتقلت
المطبعة إلى البلاد العربية تدريجياً .

وهناك أمر آخر يحتل مكان الصدارة من وجهة النظر الإسلامية ،
وهو ما يطلق عليه « العلم الحديث » . بدأت الإرهابات الأولى
لظهور العلم الحديث منذ فترة طويلة عبر التاريخ البشرى ، إلا أننا
نلاحظ دائما أن عصر العلوم كان ينتقل من مرحلة إلى مرحلة أخرى

أن أحداً لم يدر عن هذه الواقعة فقد كان الجميع يظوفون في عالمهم الروحاني حتى يتمكنوا من الوصول إلى اجتهادات في أبحاث معقدة عن وحدة الوجود ولينذا ظلوا لا يدرون شيئا عن هذه الواقعة التي حدثت لبلادهم . فقد طورت الأمم الغربية قواتها البحرية وسيطرت على سواحل البلاد . ثم وصلت قواتها إلى حد السيطرة على المنطقة الساحلية للهند كلها من مدراس إلى بمباى وإلى كلكتة وأصبحت « سلطنة دهملى » أمام هذه القوات بلا حول وبلا قوة . فقد كانت الامبراطورية المغولية مشغولة بفتنة أكبر ، تحاول إصلاح ما أفسدته هذه الفتنة إلا أن فتنة البرتغاليين لم تنتضح لهم وكانت من حيث نتائجها المتوقعة أكثر خطراً من فتنة أكبر ، وكان حيدر على (١٧٢٢ — ١٧٨٢) والد السلطان تيبو هو أول من شعر بأهمية القوة البحرية فحاول إقامة مصنع للسفن البحرية في جزيرة (مالديف) إلا أن الوقت كان قد ولى ، فلم يحقق أى نجاح في مشروعه .

والشئ الذى أوجد عنصر القوة والغلبة في العصر الحديث هو الآلة . وقد بدأت ثورة الآلة باكتشاف البخار ، أى الاستخدام الصناعى لقوة البخار . فقد كان اكتشاف محرك البخار عاملاً لإمكان وجود صناعة حديثة . كان الإنسان قبلها يستخدم قوته العضلية ، أو يستخدم الحيوان أو الماء والهواء في بعض الأحيان ، أما الآن فهو يمتلك هذا المحرك الذى يعمل بقوة ألف حصان ، والذى بدأ يمد المصانع بالقوة والطاقة ، وأخذ يجرى بالإنسان بسرعة فائقة على البر وفي البحر . هذه هي قوة الآلة التي مكنت أهل الغرب من هزيمة العالم التقليدى القديم والسيطرة عليه .

كان أول من اكتشف أول محرك بخارى الإنجليزى تومس سيورى (١٦٥٠ — ١٧١٥) ومن المحير أن تومس سيورى كان معاصراً لأونكزيب (١٦١٨ — ١٧١٧) وقد صمم تومس سيورى أول محرك

الدكن والكجرات ووصلوا إلى سواحل مدراس . ومن هناك وصلوا إلى البنغال الشرقية وأسام ومنها عبروا إلى الصين وانتشروا وهم في طريقهم هذا في جزر مالديب وسيلان وسنغافورة وجاوا وسومطرة وبقية الجزر المحيطة بها وأصبحت معابريهم التجارية مراكز لمحاولات نشر الإسلام . إلا أن هذه المحاولات قد انتهت مع نهاية القرن الخامس عشر . ففي سنة ١٤٩٨ م وصل فاسكو دي جاما عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى السواحل الجنوبية للهند ودخل مدينة (كالي كت) وقام البوقرق في سنة ١٥١١ م بالاستيلاء على « ملكا » وأقام قوة بحرية برتغالية في بحر الهند . ثم خضعت جاوا لسيطرة البرتغاليين . وكانت سيطرة البرتغاليين على بحر الهند في زمان أكبر (١٥٤٣ — ١٦٠٥) قد وصلت إلى حد قيامهم بسلب ونهب أمتعة الحجاج المتوجهين إلى مكة من الهند ، وكان من بينهم عادة بعض أفراد الأسرة الحاكمة والأمراء ، ويقول أحد المؤرخين : « رفرفت راية الامبراطور المغولي على الطريق البري بينما كان البرتغاليون يملكون البحر » .

سيطر البرتغاليون على بحر الهند وحرموا العرب من تجارة جنوب الهند ، ولم يعد من الممكن للعرب الوصول إلى الهند عن الطريق البحري الذي لم يكن أسهل السبل للسفر فقط بل كان أسهل السبل لنقل الأمتعة والبضائع التجارية . بعد انقطاع العلاقة بين جنوب الهند والتجار العرب توقفت عملية الدعوة إلى الإسلام ، وانتشاره في تلك المنطقة كلها ، وأصبح هذا الأمر حكاية يذكرها التاريخ .

بعد وفاة فاسكو دي جاما بأربعين سنة ولد الشيخ أحمد سرهندي (١٥٦٤ — ١٦٢٥) وكان زمانه موافقا لتلك الحادثة التي وقعت على ساحل الجنوب والتي صنعت تاريخا جديدا لهذا البلد ، إلا

عانتق « معارض الإسلام » بل إن سبب هذا الفشل هو أن الأسلوب البريء لحاملى رايات الإسلام تمثل فى محاولة إنشاء مفارقة سياسية إسلامية فى بلدهم دون تعبير الطريقة الفكرية للجماهير وذلك فيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية . وهكذا أيضا فشل الإسلاميون فى إقامة حكومة إسلامية وكان السبب فى ذلك أيضا هو أنهم افترضوا — على الرغم من مستلزمات العصر — إمكانية إقامة ثورة إسلامية على أساس نظرى فقط .

قضية جديدة :

إن ما نطلق عليه « قضية الإسلام الجديدة » بدأ منذ خمسمائة سنة حين اكتشف الملاح البرتغالى فاسكودى جاما (١٤٦٠ — ١٥٢٤) الطريق البحرى بين الشرق والغرب ، ومن ناحية أخرى عبر البحار الايطالى كرسستوفر كولمبوس (١٤٤٦ — ١٥٠٦) الأطلنطى فربط العالم القديم بالعالم الجديد برباط بحرى . بعد هذه الاكتشافات دخلت الملاحة البحرية عمراً جديداً .

وحتى القرن الخامس عشر الميلادى كان هناك طريقان للتقدم من أوروبا الى الهند : الأول طريق برى والثانى بحرى وهو المؤدى إلى الشام ومصر . وكان الطريقان كلاهما فى يد العرب . وكان التجار العرب فى ذلك الوقت يسيطرون على المناطق الساحلية لجنوب الهند ، وعلى ضوء نجاحهم التجارى انتشر الإسلام فى تلك المناطق بسرعة . وأصبح عدد المسلمين فى منطقة ما لآبار كثيرا لدرجة أن الحاكم الهندى فى ذلك الوقت عين لجم قاضيا مسلما ليفصل فى أمورهم المتنازع عليها . وكان يطلق عليه « هنرمند » أى صاحب العلم والفضيلة ، وقد قدم التجار العرب الى السند من موانئ خليج فارس ومن أشهرها سيراف والبصرة . ثم عبروا البحر ومضوا على سواحل

كيف تحطمت هذه الشاكلة ؟ إنها قصة لها تاريخ طويل يمتد إلى قرن تقريباً . استعمل مصطلح « الاشتراكية » بالمعنى الاقتصادي الحالي لأول مرة سنة ١٨٢٦ م في جريدة بريطانية تدعى Operative Magazine ، وظهر بعدها عدد من المفكرين كتبوا كتباً رائعة دفاعاً عن هذه النظرية . فأوجدوا ما عرف في دنيا الأدب باسم الأدب الاشتراكي وقد كتب ماركس كتابه بعد قراءات استمرت خمساً وثلاثين سنة . وبعدها ونتيجة لهذا الطوفان الفكري ظهرت عدة حركات كبرى تمخضت عنها حركة الاشتراكية والبلشفية ، والاشتراكية المسيحية والشيوعية وغيرها . هذا بالإضافة إلى انتشار شبكات حركات التحرير واتحادات العمال في العالم كله . وفي سنة ١٩١٧ م ظهرت حكومة اشتراكية في روسيا ، وبعدها بدأت عملية نشر الأفكار الاشتراكية على مستوى حكومة منظمة أضافت إلى قدرها ونوعيتها إضافات ضاعفت من حجمها آلاف المرات ، وهكذا أمكن نزع الملكيات الخاصة للناس في مساحة ضخمة من الأرض ، وأقيم النظام الاشتراكي واعترف الفكر العالمي بهذا العمل كإجراء اقتصادي مشروع في العصر الحاضر . وهكذا فإن تحطيم شاكلة الإلحاد يستلزم هذا النوع من الكفاح والجهاد الطويل ، وبدون هذا الأمر لا يمكن إحلال الإسلام محل هذه الشاكلة في دنيا اليوم .

لقد فشلت حركة الخلافة أو حركة الوحدة الإسلامية رغم جميع إمكانياتها ، ولم يكن السبب في ذلك حقيقة « مؤامرة » ما ، بل أن الظروف العالمية في ذلك الوقت قضت على تلك الحركة فحين يجذب طوفان الأفكار الدنيا كلها ناحية القوميات الجغرافية فلا يمكن أن تقف ضدها أية جزيرة ، إلا أنه عن طريق طوفان مضاد يمكن تغيير الأفكار العالمية . إن مسئولية فشل بعض الجماعات الإسلامية في مصر لا تقع على

الحكيم من أجل توجيه الكائنات بحسبها ومعنوياتها ، فالأسباب المعروفة تكفى لتوجيه هذه الكائنات . ورغم زيادة قوة مشاهدة الإنسان ملايين المرات عما كانت عليه قبلا وذلك عن طريق الوسائل الآلية ، إلا أنه لم يقرأ له « عالم آخر » خارج العالم المحسوس . وبعدها استقر فى الأذهان أنه لا يوجد أى عالم آخر غير عالمنا هذا ؛ ففى الزمان القديم كان القمر يعد إلهاً والآن داست أقدام الإنسان هذا القمر . . هذه الأحداث وغيرها غيرت الفكر الإنسانى تغييرا كاملا وبدأ شكل جديد من التفكير يحتل مكانه فى الدنيا وهو ما عبرنا عنه بعبارة « مشكلة الإلهاد » وكان مثل حركات التجديد وإحياء الدين التى ظهرت فى العصر الحالى راجعا الى أن من قاموا بها رأوا أنه يكفيهم المضى على أسلوب التذكير والتسويق التقليدى فقط قياسا على مجددى العصر الماضى ، وظلوا على هذا الأمر بينما الزمان راح ومضى من حيث جاء حين كان الأسلوب الأول هو استخدام القوة لتحطيم مشكلة الزمن ؛ لأنه اذا لم تتحطم المشكلة فإن الإسلام لا يمكن أن يحتل مكانه الصحيح فى الوقت الحاضر .

ماذا يجب علينا أن نفعل لتحطيم مشكلة الزمن ؟ هناك مثال على ذلك وهو الاشتراكية ؛ فقبل الاشتراكية الجديدة كانت الدنيا كلها تعترف باحترام الملكية الفردية فى جميع الأحوال ولم يكن لأحد أن يتصور سلب شخص ما ملكيته الخاصة فمن يفعل هذا من الناس فهو فى نظرهم غاصب وظالم ؛ إلا أن هذه المشكلة الاقتصادية تحطمت اليوم . وأصبح هناك ما يسمى « بالمصلحة الاجتماعية » التى اختلت أهمية تفوق الملكية الفردية ، وأصبح من المسلم به أنه من حق الحكومة أن تنزع ملكية من تشاء كما تشاء باسم المصلحة الاجتماعية .

« عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا « خلق الله الخلق فمن خلق الله » فمن وجد غي نفسه شيئاً من ذلك فليقل آمنت بالله تعالى » (١) •

كانت هذه هي التنبؤات الخاصة بالدور التالي حين تتحطم القاعدة المسلمة عن « الخالق » وبدلاً من أن يتوقف الأمر إلى حد الشرك بالله ينكر أهل الدنيا الإيمان بالله وحينئذ يكون من واجب أهل الإيمان أن يجعلوا من عقيدة الخالق حقيقة علمية مسلمة من جديد ، وأن يعملوا على هدم الأساس الفكري للإلحاد بكل مآلديهم كما انهدم أساس الشرك في القرن الأول •

بعد الثورة العلمية الجديدة بدأت فترة تاريخية تحطمت فيها الشاكلة الإنسانية مرة ثانية وحلت شاكلة جديدة محل الشاكلة القديمة ، شاكلة تقوم بأكملها على أساس الإلحاد • ومع ان بداية هذا العصر الجديد ظهرت مع النهضة الأوروبية الثانية إلا أنها كانت مملوثة بشكل واضح منذ القرن الثامن الهجري ، وهكذا مر على دور الإلحاد هذا مئتا سنة تقريباً •

وفي الزمان القديم كان هناك أناس لا يؤمنون أيضاً بالله ولا يؤمنون بالدين ، ولكن كفرهم كان كفراً ثردياً ، بينما الكفر في العصر الحديث اكتسب مقام العلوم والبحث العلمي ، واكتشفت العلوم الطبيعية أن العالم كله قائم على أصول الأسباب والعلل ، وأن هذه الأصول محكمة بقدر ، وأنه يمكن استخدامها إذا ما تعرفنا عليها ، وفي عالم العلوم رسخت في الأذهان فكرة فحواها أنه لا حاجة لإله لتحريك الكائنات وهي بذاتها تمضي طبقاً لقوانينها الذاتية ، واكتشافات التطور في علم الأحياء أرشدت الإنسان إلى أنه لا ضرورة للإيمان بالخالق

(١) صحيح مسلم : كتاب الإيمان •

وهكذا بدأ عهد جديد في تاريخ البشرية : فالعلم كله الذي تم على أساس الكفر قبل ذلك . خضع لتأثير التوحيد : وأخذت الدنيا تراهبه . بجميع أديانها ومدارسها الفكرية . وجميع حركاتها . وفي دائرة الدين انتشر العديد من البراهمة والبابوات في كل مكان وصار قادة أتدين هؤلاء أربابا . إلا أنهم أصبحوا بعد انتشار عقيدة التوحيد بشراً يساؤون جميع البشر . وهم عند الله عباده . وهكذا تم القضاء على عبادة البشر وبدأ عصر عبادة الله . وأصبحت مظاهر الكون التي يقدمونها قبلا عبارة عن مخلوقات لله ، ومن هنا ظهرت لأول مرة في التاريخ فكرة استغلالها ، وكانت البداية في بغداد وقرطبة وصقلية ، ثم وصل الأمر بعد ذلك إلى أوروبا فكان أساسا للثورة العلمية الحالية .

وفي مجال السياسة كان أفراد الأسرة الحاكمة اشخاصا مؤلّمين ، وبعد انتشار عقيدة التوحيد بدأ الناس يعتبرونهم كعباد الله : وهكذا ظهر فكر سياسي جديد ، وضع على أساس الثورى ووصل فيما بعد إلى أوروبا فلما وتطور وظهر في صورة الجمهورية وثورات التحرير .

واستمرت تلك الفترة التي بدأت مع الإسلام وامتدت حتى النهضة الأوربية الثانية لآل سنة كاملة : والمجددون الذين ظهروا في الأمة الإسلامية ابتداء من عمر بن عبد العزيز (٦٨٢ — ٧٢٠) إلى الشيخ أحمد سرهندي (١٥٦٤ — ١٦٢٥) ظهروا جميعا في تلك الفترة ، كان امامهم عالم هزمته شاكلة غير إسلامية : وكان خلال الناس في ذلك الزمان نوعا من الغفلة أو الخيال ولم يكن نوعا من العصيان ، ومن هنا فقد أثمرت محاولات المجددين بالتذكير والنصيحة العامة فقط : وحين كانوا يدعون الناس إلى الإسلام كانت شاكلة الزمان تساعدهم .

جاء في حديث شريف :

والمحاولات التي بذلها اليهود لتحطيم هذه الشاكلة توجد بالتفصيل في السور الأولى للقرآن الكريم ، ويواجه التاريخ الإسلامي الحديث قضية « الشاكلة » أيضا فكما توجد للأفراد شاكلة أيضا ، توجد للأمم شاكلة ، فالأمم تفضى على شاكلتها (على بنائها الفكرى) وطبقا لهذه الشاكلة تقرر ترك الأمور أو اتباعها .

في القرن السابع الميلادى حين بعث نبي الإسلام ﷺ . كانت شاكلة العرب قائمة على أساس الشرك ، وكانت هذه الشاكلة رائجة في كل مكان ابتداء من بناء الأسرة إلى الخطط السياسية ، وفى هذا المناخ الاجتماعى تمكنت عقيدة التوحيد من ايجاد متنفس لها حين حطمت شاكلة الشرك هذه .

لقد جاهد نبي الإسلام ﷺ جهادا عظيما ، وحطم هذه الشاكلة . وبطريقة كاملة قامت هذه الشخصية التي تمتعت بكل صفات العظمة بتوحيد جميع القوى على هذا الاساس ، فقدم مثلا عظيما على طريق الإخلاص والتضحية والجد والجهاد وهو ما كان يلزم للتأثير فى الناس ، وبعدها بدأت النتائج فى الظهور ، فقد تغيرت العقول الفردية فى البداية ، ثم قبلت بعض القبائل هذا التأثير بصورة كلية ، ثم كان يوم فتح مكة (٨ هـ) حين تحطمت أصنام جميع القبائل وجميع المعتقدات ، تلك الأصنام التي وضعت فى مركز العرب (الكعبة) ، وهكذا تحطمت بصورة نهائية الشاكلة المشركة . وكانوا يعتقدون أن محمداً كان يحقر هذه الآلهة التي كانت طبقا لاعتقادهم تسيطر على نظام الأمور ولهذا فلا بد أن ينزل عقاب تلك الآلهة عليهم وعلى العكس من هذا حين شاهدوا خاتمة أربعمائة صنم تحل ، ولم تنخبر السماء ولم تتزلزل الأرض ، تأكدوا أنه لا حقيقة لها ، وهكذا حطم الفتح هذه الشاكلة نهائيا ، وبدأ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا (١) .

الصدفة ، بل الحقيقة هي تلك التي علمها عند الله والتي أوضحها في كتابه الكريم :

« قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً » .
(الاسراء - ٨٤)

والمثال الذي نقدمه هنا يتعلق باليهود ، فاليهود يلاحظون إن الأنبياء يظهرون من نسل اسرائيل فرسخ في اذهانهم أن النبوة هي جزء من أسرة اسرائيل ، وحين بعث نبي آخر الزمان من الفرع الإسماعيلي لسيدنا ابراهيم ، لم يكن هذا أمراً مقبولاً لديهم وذلك بسبب عقليتهم ومخيلتهم وما رسخ في اذهانهم : فأنكروا الاعتراف « بالنبي الإسماعيلي » ، ولم يفهموا ذلك السر ، وهو أن النبوة ليست حكراً على أسرة ، فهذا هو دين الله يعطيه من يشاء .

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » (١) .

وهكذا فالدين الذي كان اليهود يعرفونه هو الدين الذي يعطى القرايين التي تأكلها النار ، وأم يفهموا قرايين الذبائح التي يأكلها الناس ولا تأكلها النار ، لم يكن هذا الأمر مقبولاً اشاكلتهم الدينية ولم يكن مفهوماً لديهم كيف يؤمنون بمن يدعى الرسالة ولا يعلمهم القرايين التي تأكلها النار .

« الذين قالوا إن الله عهد إلينا الا نؤمن لرسول حتى يأتيانا بقربان تأكله النار » (٢) .

(١) النساء : ٥٤ .

(٢) آل عمران : ١٨٢ .

عليه ، وهى الطاقة التى لا يمكن أن تقف أمامها البحار أو الجبال
أو البندقية أو المدفع .

وإذا ما وضعنا الحركات التى ظهرت فى زماننا الحديث على
هذا المحك ونظرنا إليها من وجهة النظر هذه ، فإن أيا منها لا يرقى
أبدأ إلى هذا المستوى الذى يجب أن تكون عليه حركة الدعوة الحقيقية،
إذ كانت هذه الحركات حركات إسلامية سياسية وليست حركات
إسلامية تبليغية تهدف إلى الدعوة للدين الحق ، فكل حركة تقريبا
جعلت من القضايا السياسية أساساً لكفاحها وجهادها ، بينما هدف
حركة الدعوة هو جعل التبليغ أساساً للكفاح والجهاد ، وبعبارة أخرى
فإن أية حركة من هذه الحركات لم تجعل بداية عملها من هذه النقطة
التى كان ينبغى حقيقة أن تبدأ منها . والسفر إن لم يتجه أولاً نحو
الوجهة الصحيحة فلن يمكن لصاحبه الوصول إلى هدفه ، والضرر
الثانى لأسلوب هذه الحركة هو أن من تأثروا بالإسلام من خلالها
ظهر لديهم مزاج سياسى يشبه مزاج الحركات الدنيوية العسامة ،
بينما الإسلام الصحيح هو أن يظهر لدى الإنسان مزاج حب الآخرة،
والنتيجة الواضحة أن الإسلام لم يظهر بطريقة حقيقية واضحة عن
طريق هذه الحركات الحديثة ، لا على المستوى الاجتماعى ولا على
المستوى الفردى .

الشاكلة :

القضية الثانية هى قضية الشاكلة ، فطبقاً لأسباب خاصة بينى
كل شخص وتبنى كل أمة الأسلوب الفكرى الذى يفكر به الشخص أو
ترتكز عليه الأمة وبناء عليه يؤمن الإنسان بصحة الأثياء أو عدم
صحتها . وينسى تماماً فى معظم الأحوال أن الحقيقة ليست هى تلك
الحقيقة المرسومة فى مخيلته والتى اتخذت شكلها الخاص بمجرد

دخل محمد بن القاسم سنة ٧١٢ م منطقة باكستان الحالية ، ويرى المؤرخون أن مؤسس الدولة الإسلامية في شبه القارة الهندية هو شهاب الدين محمد الغوري الذي فتح ملتان سنة ١١٧٥ م ، وخضعت له جميع منطقة شمال الهند في سنة ١١٩٢ م ، وبعد فترة زالت الامبراطورية المغولية التي استمرت لفترة طويلة تحكم في الهند (١٨٥٧ م) وذلك حين حاول المسلمون أن يحققوا النصر في هذا البلد . عن طريق السياسة والسيف . وحين قامت الثورة تحطم قصر عظمتهم وكأنما لم يكن له وجود من قبل .

وتاريخ اسبانيا أكثر إيلاماً من كل هذا ، فقد ظل الحكم الإسلامي قائماً بها لسبعمئة سنة (٧١١ - ١٤٩٢ م) وهناك أبداع المسلمون في النواحي المادية المتطورة ابداعاً لم تشهد الإنسانية كلها في ذلك الزمان ، حتى أن المسيحيين الذين هزموا المسلمين وأخرجوهم من اسبانيا كانوا قد تخلفوا عن المسلمين بدرجات كثيرة في الرقى المادي ، أقام المسلمون في تلك الفترة عدة مراصد لدراسة الفلك ، يقول دريبر (١٨٠٠ - ١٨٨٢) عن مرصد إشبيلية : بعد خروج المسلمين Moors من اسبانيا تحول هذا المرصد إلى برج لأجراس الكنيسة ، لأن أهل اسبانيا لم تكن لديهم دراية بطريقة استخدامه ورغم هذا التفوق المادي خلت اسبانيا من المسلمين حتى انه لم يعد لهم من أثر يذكر سوى بعض الأطلال الحزينة .

تكفي هذه التجربة التاريخية لإثبات أن الأصول الإسلامية إنما تقوم على حكمة سامية فائقة تتمثل في أن نقطة بداية الكفاح الإسلامي كانت دائماً « الدعوة » وقد أعطى للدعوة وللتبليغ مقاماً وكان الدعوة هي أصل الخيط إذا ما أمسكنا به تمكنا من تحقيق النجاح والسيطرة على الحياة كلها ، وهي مفتاح قهر العدو والغلبة

عن طريق الرقى المادى (الأندلس) * *
وظلت للإسلام الغلبة الدائمة فى المناطق التى دخلها عن طريق
الدعوة ، ولم تغير هذه الأمم العادات والتقليد فقط التى راجت فيها
قبل الإسلام ، بل اصطبغت لغتهم وحضارتهم واصطبغ المجتمع كله
بصبغة إسلامية .

يقول سير آرثر كيث * * الذى درس تاريخ مصر :

« كانت نهاية الامبراطورية البيزنطية وقيام الدولة العربية
فى مصر حين انتصر أقل من خمسة عشر ألف جندى من الجنود العرب ،
بينما كان عدد المصريين يعد بالملايين ، فالفتح العربى لمصر لم يكن
بالسيف بل كان بالقرآن ، اذ تعلم المصريون قراءة القرآن ودرسوه
وبدأوا فى تعلم اللغة الجديدة أى اللغة العربية ، لقد جعل القرآن
المصريين يتكلمون اللغة العربية » (١) .

وكتب (لوبون) عن الموضوع نفسه :

« حكم الإيرانيون واليونان والرومان وادى النيل ، إلا أنهم
لم يتمكنوا من إحلال حضارتهم محل الحضارة الفرعونية ، ولكن
العرب جعلوا من مصر بلداً عربياً مسلماً ، كان لدى الأمم الأخرى قوة
السيف فقط ، ومن هنا لم يتمكنوا من إيجاد أى تأثير يتعدى تأثير
القوة العسكرية ، وعلى العكس من هذا كان لدى العرب قوة القرآن ،
وفتحت هذه القوة أذهان المصريين حتى أنها بدلت دينهم وحضارتهم
ولغتهم وكل شئ لديهم » .

* فى الأصل إسبانيا .

* * (١٨٦٦ - ١٩٥٥)

Sir Arther Keith, Anew theory of Human Evolution. (١)

London 1950, p. 303.

« تبا لك سائر اليوم !! ألهذا جمعنا ؟! » (١) •

فأبو لهب رأى أنه لا علاقة لهذا الخطاب بالقضايا التي تتعرض لها الأمة الإبراهيمية العربية ، ولم يفهم نقطة البداية هذه كمنطلق يمكن أن يكون السبيل لتحقيق الأمل في نهضة الأمة العربية أمام الأمم الأخرى ، ونقطة البداية هذه أو الأساس الأول إنما هو بدء التبليغ : تبليغ العقيدة الصحيحة • ومن هنا فالأساس الحمدي يعنى أن عملية « الإنذار والتبشير » هي نظرية العمل الأول الأساسى لإحياء الأمة ، وأن مقام أبى لهب هو الاستماع إلى ما سبق والقول ردا عليه : (أهذا برنامج ؟!) •

ان السؤال الأساسى دائما فى طريق الجهاد هو من أين يبدأ الجهاد ؟ وهو السؤال نفسه الذى يتعلق بالبعث الإسلامى ، وللإجابة على انسؤال يلزمنا البحث عن الخيوط المناسبة التى تجمع بين الظروف المختلفة ، والتى يمكن عن طريقها أن نمسك ببقية الخيوط تلقائيا ... ولقد حدد لنا القرآن البداية الوحيدة الا وهى الدعوة ، وهذا ثابت وواضح : [يا أيها المدثر قم فأذر] وبناء على هذا كانت حياة النبى ﷺ [إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر] (٢) ، وطالما اتبع المسلمون هذا الطريق كان التوفيق حليفهم وحين عارضوه وانحرفوا عنه تعرضوا للفشل الذريع فى النهاية •

والأمثلة التى يشهدها التقدم الإسلامى فى التاريخ اللاحق يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام كبيرة :

• عن طريق الدعوة (مصر كمثال على هذا) •

• عن طريق السياسة (الهند كمثال على هذا) •

(١) المشكاة : باب الإنذار والتحذير •

(٢) الغاشية : ٢١ - ٢٢ •

فواضح من أقوال الفاروق الأعظم رضى الله عنه أن ثلاثمائة رجل يكفون لإحداث ثورة ، فإذا ما وصل هذا العدد إلى اثني عشر ألف رجل فلا يمكن أن ينهزم أمام أى فريق آخر مهما وصل عدده ، وذلك نتيجة لقلّة فى العدد ، إلا أنه فى زماننا الحاضر نشاهد فى كل جماعة إسلامية قائدا مسلما ومئات الألوف من الأخوة والزملاء ، إلا أن هذه الجماعات لم تضاف للتاريخ الإسلامى سوى الفشل ، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن هناك نقصا أساسيا بالتأكيد فى حركات تلك الجماعات أو الأشخاص وهذا النقص جعل النتيجة تأتى على عكس ما أرادوا رغم وجود الإخلاص وتوفره لديهم ورغم الاستعداد لبذل جميع التضحيات .

الأساس الأول :*

إن إدراك القضية التى تتعلق بهذا الأمر يجب أن يتم من أولها ، ويمكن أن يبدأ حل هذه القضية بالكفاح والجهاد من أجل إحياء الدين .

حين أمر الله نبي الإسلام أن يعلن على الملأ دعوة الحق ، صعد الصفا ونادى فى أهل مكة ، وكانت هذه هى الطريقة المعتادة لتقديم أى إعلان قومى خاص فى مكة .

تجمع الناس فخطب فيهم :

« إنكم لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون وإنها لجنة أبدأ

أو لنار أبدأ » (١) .

وكان بداية الكفاح لإقامة الدين الإلهى كانت من هنا أى إطلاع الناس على حقيقة الحياة ، إلا أن أبا لهب لم يفهم هذا كله فقال :

١ : أو : البداية الأولى .

(١) جبهة خطب العرب .

وكان استيلاء الغرب على العالم الإسلامي أول حادث من نوعه في التاريخ كله . وكانت الحملات السابقة قد خلفت قضايا دفاعية فقط للعالم الإسلامي ، أمكن حلها عن طريق نجاح الوسائل الدفاعية ، وحين تعرض العالم الإسلامي للقضية الحالية تم استخدام جميع إمكانيات القوى الدفاعية قياساً على الماضي ، بينما كان الهجوم يختلف تماماً عن الحملات السابقة ، ولهذا كان من الضروري اكتشاف استعدادات أخرى قبل الإجراءات الدفاعية لمواجهة هذه الحملات . إلا أن هذا الفرق لم يمكن فهمه في حينه ، وكانت النتيجة ضياع جميع إمكانيات القوى الدفاعية التي اتخذت في ذلك الوقت . هذا بالإضافة إلى أن الدعوة إلى الإسلام قد نسيت وسط ضوضاء الحرب الدفاعية ، وهي من ناحية الأصول الإسلامية من أولى وأهم الفرائض التي تقع على المسلمين دائماً .

في السنة السادسة للبعثة حين أسلم عمر الفاروق رضي الله عنه ذهب إلى المسجد الحرام وأعلن إسلامه وقام أهل قريش بملاحقته وظلوا يعارضونه لفترة طويلة ، وفي النهاية خاطبهم قائلاً :

« افعلوا ما بدا لكم فوالله لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا » (١) .

وبعد أربع عشرة سنة من البعثة أثبتت غزوة بدر صحة الحديث السابق . كتب عمر رضي الله عنه أثناء خلافته إلى عمرو بن العاص وكان أرسله إلى مصر في ذلك الوقت لفتحها وتأخر الفتح :

« واعلم أن معك اثني عشر ألف رجل ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة » (٢) .

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٢ من ٨٢ .

(٢) كرز العمال ، مجلد ٢ من ١٥١ .

الحركات الإسلامية في العصر الحديث

طبقا للحديث المشهور نفهم أنه سيظهر في الأمة الإسلامية في كل عصر أناس « يجددون للأمة الإسلامية دينها » . وقد ثبت هذا طوال تاريخ الأمة الإسلامية وهذا هو الذي جعل بقاء الدين مكفولا في هذه الأمة .

ونحن نواجه الآن سؤالاً مؤداه هو : لماذا لم تظهر في زماننا الحاضر نتائج محاولات التجديد التي ظهرت في الماضي ؟ لقد حقق المجددون الذين ظهروا في الماضي نجاحا وتوفيقا في محاولاتهم لدرجة أن الإسلام انتشر على وجه البسيطة لمدة تزيد على الألف سنة في مساحة امتدت من حدود الصين إلى السواحل الغربية لأفريقيا بمثلة رقعة العالم الإسلامي ، وغلبت الأفكار الإسلامية وانتشر المنهج الإسلامي بين الناس سواء من الناحية الفكرية أو من ناحية أسلوب الحياة أو أصول المعاملات ، وأصبح الفكر الإسلامي هو معيار الحق والباطل أي أصبح معيار كل الأمور في الحياة ، حتى طبع الإسلام جميع نشاطات الحياة وصبغها بصبغته ، وكانت كلمة المحدث أو الفقيه أهم من أوامر ملك ذلك الزمان . . . وفي زماننا الحديث نشاهد العكس تماما ، ظهر العديد من المصلحين ، وقادوا محاولات تجديد على نطاق واسع ، وهم من ناحية الكم زادوا كثيرا على عدد جميع المجددين السابقين في مجموعهم ، إلا أن الأمر المحير أنهم لم يغيروا وضع المسلمين المتدهور ، فلا تزال غلبة الثقافة والحضارة الجاهلية على خريطة الحياة تزيد يوما بعد يوم حتى إنه حين بدأ التجديد قبل مائتي سنة أي في العصر الحديث كان حال الإسلام أحسن مما هو عليه الآن ، فقد تفهقر الإسلام كثيرا اليوم عما كان عليه من قبل .

مكة (أبى سفيان) من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى اعلن أن « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » • وكانت النتيجة قيام أبى سفيان نفسه بتوجيه نداء للناس فقال « أيها الناس ، أطيعوا محمداً ، لا طاقة لأحد منا بمواجهته • وقد اثبتت احداث ما بعد الفتح أن هذه الاستعدادات الضخمة لم يكن المقصود منها إراقة الدماء فى مكة بل كان القصد منها ارهاب أهل مكة حتى يسيطر المسلمون على مكة بدون إراقة دماء ، وقد وصل قائد جيش المسلمين سعد بن عبادة بالقرب من مكة وصاح : « اليوم يوم اللحمة » • فقال عليه السلام : « لا اليوم يوم الرحمة » وعزله عن القيادة وسلم الراية لابنه قيس •

ورغم حدوث بعض الغزوات الصغيرة بعد فتح مكة — وقد وصل عددها (صغيرة وكبيرها) إلى ثمانين غزوة — فإن فتح مكة كان بمثابة السيطرة على عاصمة البلاد ، وهكذا اعترف العرب جميعا بقيادة محمد عليه السلام •

أن أبا بكر نفسه لم يكن يعرف ما هدف هذه الاستعدادات • وفى بداية رمضان سنة ٨ هـ حين بدأ الجيش الإسلامى يتوجه إلى مكة بأمر من رسول الله ، عرف الناس هدف هذا السفر الذى تم بصمت حتى وصل الركب إلى « مر الظهران » (ولم تعام به قريش) وقد دعا النبى ﷺ الله قبل التحرك قائلاً :

« اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » •
أعد النبى ترتيبات مذهلة للاستعداد لهذه المهمة فقد أمر بقطع الصلات بين المدينة وخارجها تماماً • فلا يدخلها شخص من الخارج ولا يسمح بخروج شخص من المدينة إلى خارجها ، وتقرر أن يشرف بعض الناس على الطريق بقيادة على بن أبى طالب وقد قبض الناس على (قاصد) هو حاطب بن أبى بلتعته واكتشفوا معه الخطاب المشهور (وفى كل انقبائل عدد وسلاح) (١) •

وخرج المسلمون جميعهم . (لم يتخلف منهم أحد) ورتب ﷺ نظام السير فقسم الجيش الذى وصل قوامه إلى عشرة آلاف إلى مجموعات مختلفة ، وعين لكل مجموعة قائداً يحمل راية ويتقدمهم ، وخلفهم مجموعات من مئات الرجال تمشى فى صفوف ، وقال لعنه العباس : « اجعل أبا سفيان يشاهد منظر الجيوش ، قال ﷺ : « أجلسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها (٢) » •

وظل جيش المسلمين يمر صفا بعد صفا وأبو سفيان يشاهد المنظر متحيراً دهشاً حتى نطق قائلاً : (من له بهؤلاء طاقة ؟! لم أر كاليوم جنوداً قط ولا جماعة) • وهكذا أثر الرسول ﷺ فى قسائد

(١) الطبرانى عن ابن عباس •

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ، مجلد ٢ ص ٦١ •

العرب حرجا أن يدخلوا الإسلام فإن ذلك لا يغيظ قريشا ولا يعتبر تحديا لها (١) .

يروى البخارى عن براء أنه قال للناس فيما بعد إنكم تعدون فتح مكة انتصارا إلا أننا نقول : إن صلح الحديبية هو الانتصار (ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية) .

وطبقا لهذه المعاهدة انتهى الحصار الاقتصادي للمدينة وكانت قوافل تجارة المدينة تمر بحرية من مكة وأبى بصير وأبى الجندل وغيرها وقد اضطروا إلى العودة إلى قريش طبقا للمعاهدة « هربوا ووصلوا إلى « ذو المروة » وهناك تجمعوا مع أمثالهم من المسلمين حتى أنهم كونوا بذلك مركزا ، وأقلقوا القوافل التجارية لقريش حتى قضوا بأنفسهم على هذه المادة من المعاهدة .

إن من أكبر عوامل الضعف البشرى العجلة وحس الظاهر ، فإذا ارتفع الانسان عن هذا فإن الله تبارك وتعالى يهبه فى الدنيا ما يضمن له الوصول إلى التوفيق والنجاح .

أخرج بن عساكر عن الواقدى قال : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول : ما كان فتح أعظم فى الإسلام من فتح الحديبية ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمر وما أراد .

إن « الواقعية » هى أعظم توفيق وأعظم نجاح فى هذه الدنيا وهى ضمان الوصول إلى النجاح والتوفيق .

بعد الفراغ من خير بدأ ﷺ استعداداته لهمة أخرى إلا أنه لم يخبر أحدا أبدا بمقصده أو ضد من كان يعد هذه الاستعدادات حتى

(١) محمد على الله عليه وسلم وبني اسرائيل ١٠١ - ١٠٢ .

وقعت بين القبيلتين في (شعبان سنة ٨ هـ) ، وكان هذا يتعارض مراعاة مع معاهدة الصلح ، وكانت هذه الواقعة بعد صلح الحديبية بسنتين ، وكان من نتيجة الصلح انتشار الإسلام لدرجة أن أتباع الرسول ساعة صلح الحديبية كانوا لا يتعدون ١٥٠٠ رجلاً ، ولكنهم وصلوا الآن إلى عشرة آلاف .

خرج رسول الله في صمت ، وبحكمة تحرك لدرجة أن فتح مكة تم تقريباً بدون إراقة دماء .

« وعدكم الله مفانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم » . (الفتح - ٢٠) .

كان الوضع أثناء عقد المعاهدة في صالح الإسلام إذ انتشر صوت الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية نتيجة لحركة الدعوة الإسلامية الجادة المتواصلة التي استمرت قرابة عشرين سنة ، ووجد في كل قبيلة عدد من الناس تفتحت قلوبهم لصدق الإسلام إلا أن قريشاً التي ملكت قيادة العرب وزعامتهم دأبت على منع الناس من إعلان الإسلام ، فأعلان الإسلام كان يعنى الدخول في حرب مع قريش . وبعد معاهدة الحديبية وحين عرف الناس أن « معاهدة عدم الاعتداء » هذه مستمرة لعشر سنوات بين قريش والمسلمين ، زال عنهم ذلك الخطر ، وبدأوا في دخول الإسلام ، وتدفقوا إلى حظيرته فما أشبههم بمن انطلق حين رأى اخضرار إشارة المرور التي ظلت أمامه حمراء لفترة طويلة .

قال الفقيه بن شهاب الزهري وغيره إن الله فتح على المسلمين بصلح الحديبية أكثر مما فتح الله عليهم به من أي غزو آخر بدليل أن النبي ﷺ رجع إلى مكة عام الفتح بعشرة آلاف ولم تكن عدته من قبل لتزيد على ثلاثة آلاف بحال ، وعلة بأنه لما هادن قريشاً لم يجد

اليهودية إلى الأبد . وكننت الواقعة الأواى فى ذى القعدة سنة ٦ هـ ،
والثانية فى محرم سنة ٧ هـ .

كان لليهود ثمانى قلاع حجرية فى خير ، جمعت فيها معدات
حربية لم تكن متيسرة لدى المسلمين على الإطلاق ، وقد اختاروا
لتعزيد وتقوية هذه القلاع نفس الأسلوب الذى اشتهر به المارشال
دايان المهندس العسكرى الفرنسى فى سنة ١٧٠٠ م . فكيف كان
يمكن فتح هذه القلاع ؟ هذه فى حد ذاتها قصة طويلة ، إن الحكمة
العملية العسكرية النبى اتبعت بهذه المناسبة اقتضت أن يقوم خمسون
رجلا بحمل شجرة ضخمة ثقيلة يجرونها ليضربوا بها بوابة القلعة
بشدة ، وبعد تكرار هذا الضرب المستمر تحطمت بوابة القلعة ،
واقترحها المسلمون ، ووجدوا أنفسهم وسط فيضانات من السهام
بالإضافة إلى استخدام المنجنيق ، وتم للمسلمين السيطرة على أربع
قلاع . وحينئذ هرع أصحاب القلاع الأخرى وفتحوا أبوابهم وسلموا
أنفسهم للجيش الإسلامى .

وهكذا تم إخضاع خير ، وظلت قضية قريش مكة قائمة ،
وأرشدت الهداية الربانية النبى ﷺ إلى أن الطريفة المثلى هى إعطاء
فرصة للعدو ليرتكب خطأ حتى يسمح له بعد ذلك بالتدخل .

كان النبى يعرف أن ما يثير قريش ضد الإسلام ما هو إلا الحسد
والبغض وحب السيطرة . ومن يعارض انطلاقاً من هذه النفسية ،
لا يمكن أن يتورع عن ارتكاب أى عمل غير منطقى وغير أخلاقى ،
وأثبت هذا التقدير صحته تماماً ، فارتكبت قريش خطأ بحمايتها
ومساندتها — بصورة غير مباشرة — لقبيلة (بنى بكر) حليفتهم وذلك
ضد قبيلة (بنى خزاعة) حليفة النبى ﷺ ، وذلك فى الحرب التى

أثوابا من الناس خليقا أن يقرأوا ويدعوك) غضب عندئذ أبو بكر
— وكان حليما — وانطلقت منه هذه العبارة : (امصص بظر اللات !
أنحن نفر عنه وندعه ؟) •

الا أن رسول الله ظل يتحمل هذه الأمور المثيرة كلها ووافق على
جميع مطالب قريش . ووافق على عقد معاهدة عدم اعتداء مع قريش
لمدة عشر سنوات • وهكذا أصبحت قريش ملتزمة بعدم الاشتراك
في أية حرب ضد المسلمين سواء بطريق مباشر أو غير مباشر •

وكانت هذه المعاهدة شديدة الوثق على المسلمين لدرجة أنه بعد
استكمالها وحين طالب النبي من المسلمين نحر أضحياتهم لم يتحرك
أى شخص رغم أنه كرر الطلب ثلاث مرات : وبعدها قاموا والحزن
يسيطر عليهم إلى حد أنه بعد تقديم أضحياتهم (جعل بعضهم يحلق
بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غمًا) • إلا أن هذه المعاهدة التي
تمت بالضغط على المسلمين كانت لها فوائد عظيمة الشأن لا يمكن
أن تحصى •

ففي الظروف التي تم فيها صلح الحديبية كان المسلمون يواجهون
جبهتين : الأولى يهود خيبر ، والثانية قريش مكة . ولم تكن قوة
المسلمين تسمح لهم بمواجهة الجبهتين في وقت واحد لأن الهجوم
على إحداهما يعنى إعطاء فرصة للجبهة الأخرى للقُدوم من الخلف
ودخول المدينة والقضاء على مركز المسلمين • ومن هنا كانت موافقة
النبي على جميع مطالب قريش مكة ورضى بمعاهدة (عدم الاعتداء)
هذه لمدة عشر سنوات ، وهكذا أوقفهم في (بطن مكة) (الفتح : ٢٤) (١) ،
وبعدها عاد إلى المدينة وهجم على خيبر في أول فرصة وحسم القضية

(١) بشرى إلى قوله تعالى : « وهو الذى كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة من

بعد ان انظروكم عليهم » •

لدرجة أنهم يتحركون جميعاً بإشارة من محمد وشاهد أحد رسل قريش النبي ﷺ وهو يتوضأ فيهرع المسلمون يأخذون بأيديهم الماء الذى يتساقط من بين يديه قبل أن يسقط على الأرض ، وهو حين يتكلم تسكت جميع الأصوات ، وهم - من الأدب والاحترام والتعظيم - لا ينظرون حتى إليه ، وعاد هذا الرسول إلى قريش فذكر لهم هذا الوفاء وهذه المحبة التى ملأت قلوب المسلمين ، فخافوا وهلعوا ، وحين وصلت الرسالة المذكورة إلى قريش - وقد حملها بديل بن ورقاء الخزاعي - خطب فيهم رجل يدعى عروة بن مسعود فقال : (أى قوم ، أستم بالوالد ، قالوا : بلى ، قال : أستم بالولد ، قلوا : بلى ، قال : فهل تتهموننى ؟ قالوا : لا ، قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد ، اقبلوها ودعوني آتية) (١) .

أعلن النبي ﷺ أنه سيقبل ما تطلب قريش (والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها) ، وهكذا حين بدأوا يكتبون معاهدة عدم الاعتداء ، بدأت حمية الجاهلية تظهر بجلاء ، فحذفوا من المعاهدة عبارة « محمد رسول الله » واستبدلوا بها عبارة « محمد بن عبد الله » وأصروا على كتابة عبارة « باسمك اللهم » بدلا من « بسم الله الرحمن الرحيم » . وأضيفت هذه المادة : إذا أسلم أحد رجال قريش فيجب الالتزام باعادته إلى قريش ، وعلى العكس من هذا : إذا عاد أى مسلم إلى قريش فلا يعاد مرة أخرى إلى المسلمين ، ولم يسمح بدخول المسلمين إلى مكة فى تلك السنة .

وكانت هذه شروطا صعبة جدا على الضحابة جميعا حتى أنه حين قال عروة بن سعد - فى إحدى المناسبات : - « يا محمد هؤلاء الناس الذين تجمعوا حولك سوف يتركوك ويهربون » (إنى لأرى

(١) البداية والنهاية ج ٤ .

لقد أفادت هذه الرسالة في الحقيقة من الفكر الموجود داخل قريش ذاتها . ففي الدور المكى الاول حين قابل عتبة بن ربيعة (ممثل قريش) النبي ﷺ ، ثم عاد إلى قريش بعد حديثه مع النبي - طبقا لاحدى الروايات - كان من بين ما نقله لقريش :

(خنوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه : فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبا . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بعيركم : وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به) (١) .

هذه الفكرة ذلتها كانت موجودة لدى قريش واستفاد منها النبي ﷺ . وكانت النتيجة أنه وجد من بين أفراد الإعداء من يداغع عن وجهة نظره . وعندما أرسل النبي الرسالة إلى قريش بدأ التأثير عليها بأساليب مختلفة ، خرج رجل من بنى كنانة من مكة ووصل إلى الحديبية حتى يعرف سبب مجيء المسلمين فأخبر الناس النبي بخبره ، فقل النبي إن قبيلة هذا الرجل تعظم التضحية بالجمال ، أيها الناس خذوا جمالكم (إبلكم) ضحيتم واستقبلوه ، فأخذ المسلمون قافلة الجمال وهم يقولون : لبيك اللهم لبيك ، ويمرون أمامه ، فعاد هذا الرجل إلى مكة متأثرا تماما وقال لقريش : إنا على يقين من أن المسلمين جاءوا بهدف زيارة الكعبة فقط فلا تعترضوهم .

وهكذا كان لهذه المظاهرة الايمانية الاسلامية التي يقودها ألف وخمسائة مسلم تأثير شديد على أهل مكة .

أرسلت قريش رسولا وصل إلى الحديبية فوجد المسلمين مصطفين يصلون خلف النبي ﷺ فشاهد هذا الرجل انضباط الصلاة فأصابه النهلوع وعاد إلى قريش وقال لهم : إن اتحاد المسلمين اتحاد قوى

أحدا منهم بمفرده لم كين قادرا على التجرد على النيل من الإسلام .
ومن هنا قام الفريقان معا بحياكة المؤامرات ، للقيام بعمل عسكري
مشترك فيما بينهما ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى لم يكن
المسلمون في وضع يمكنهم من مواجهة الخصمين معا في وقت واحد .

في وسط هذه الظروف قام النبي ﷺ وبتوجيه رباني في ذي القعدة
سنة ٦ هـ بالتوجه إلى مكة مع الف وخمسمائة من صحابته ، وأعلن أنهم
لن يذهبوا لقتال أحد ، بل سيذهبون للعمرة . وحسب معه أيضا قافلة
تضم حيوانات الضحية . حتى أنه أمر أن تعلق قلادة الضحية على
الجمال طبقا للعرف السائد في الجاهلية حتى يعرف أهل مكة جيدا أنه
ورفاقه ذاهبون لزيارة الكعبة وتقديم الضحية . وكان لهذا السفر
أيضا هدف آخر أساسي أراد أن يظهره النبي وهو القضاء على المكانة
الدينية والتجارية للكعبة .

وصل النبي ورفاقه إلى الحديبية على مسافة أحد عشر كيلو مترا
من مكة تقريبا ، وكما هو متوقع ، وصلت قريش وتقدمت لإيقافه ،
وتفادى النبي ﷺ القتال ، وأقام معسكره في ذلك المكان وأرسل رسالة
إلى قريش ليعقد بينه وبينها معاهدة صلح ، وقد جاء فيها :

« إنا لم نجىء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وإن قريشا قد
نهكتهم الحرب وأضررت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين
الناس . فإن أظفر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلاوا
وإلا فقد جموا وإن هم أبوا فوالذي نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى
هذا حتى تنفرد سالفتى ولينفذن أمر الله » (١) .

(١) صحيح البخارى .

انتصار الإسلام

أثارت هزيمة بدر قريشا مرة ثانية ، وخلال فترة بسيطة خاضت عدة معارك نذكر منها على وجه الخصوص أحد (٣ هـ) والأحزاب (٥ هـ) . وفي هذه الغزوات تعرض المسلمون لمصائب عديدة ، وقد ضمت غزوة الخندق ثمانمائة رجلا ، تعرضوا لحالة شديدة من البرد والجوع لدرجة أن النبي ﷺ أراد أن يرسل شخصا للتجسس على العدو ، فظل ينادى ثلاث مرات ، فلا يقوم أحد ، حتى انه ذهب إلى حذيفة رضى الله عنه ودعاه وعينه لهذه المهمة .

ومن ناحية أخرى فقد كان يهود المدينة يمثلون قضية داخلية مستقلة ودائمة ، فقد اتحدوا مع قريش وظلوا يهيكون المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين .

بعد حصار الخندق الذى دام عشرين يوما ، اضطر جيش مكة إلى العودة بعد تعرضه لعاصفة شديدة ، ورأى النبي ﷺ أن يعاقب اليهود عقابا رادعا ويكشف مؤامراتهم وخروجهم عليه ، فأعاد قبائل المدينة (بنو النضير — بنو قينقاع — بنو قريظة) من الخندق وأجرى عليهم كتابهم التوراة، ففضى على مسألتهم إلى الأبد .

كانت هذه مسألة خير ، وفى السنة السادسة للهجرة كان وضع المسلمين هكذا : بين دار الإسلام المدينة وبين قريش بمكة مسافة أربعمائة كيلو مترا . وفى الشمال يهود خير على مسافة مائتى كيلو متر ، ورغم اتفاق كل من قريش واليهود على العداء للإسلام إلا أن

« وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد » (١) .

وكانت هذه الصحيفة بمتابه إجراء سياسي حيث أعلن النبي ﷺ بحكمة من خلالها الحكومة الدستورية الإسلامية على المدينة . وبعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة ازداد غضب قريش بدلا من أن تهدأ . فقد رأوا قريش المسلمين الآن وقد تجمعوا في منطلقه وحدة ودعموا مركزهم . وفي السنة الثانية للهجرة واجه النبي موقفا دافيا وهو جيش قريش . فقد كانت قريش تتحين الفرصة للدخول إلى المدينة وتحطيم حيا المسلمين الذي تأسس هناك . ورغم أن جيش قريش كان حوالي ٩٥٠ مقاتلا في حين كان للأفراد المسلمون القادرون على القتال حوالي ٣١٣ فقط فإن النبي أدرك أن أهل الشرك رغم كثرتهم لا يحملون بين جنبتهم سوى الحقد والنفور ، وعلى العكس من هذا فالمسلمون لديهم الإيمان واليقين وهذه ثروة عظيمة . تفوق ما لدى المشركين من قوة . هذا بالإضافة إلى أن العرب اعتادوا القتال فرادى فرادى لإظهار براعتهم الفردية وهذا نتيجة للنخوة الجاهلية التي سيطرت عليهم . فكل فرد يود إظهار شجاعته هو . أما المسلمون فقد قضوا على هذا التقليد بعد دخولهم الإسلام وقام الرسول ﷺ ولأول مرة في تاريخ العرب بتعليم المسلمين خطط الدفاع . وعلمهم ألا يميلوا إلى إظهار الكمال الفردي بل عليهم أن يحاربوا كجماعة ، وأن يهزموا القوى الفردية لقريش يفتونهم الجماعية (الصف ٤) (٢) ، وهكذا كانت الموقعة العظيمة التي نال فيها المسلمون النصر بقوة الإيمان . وهي الموقعة التي يطلق عليها في تاريخ الإسلام « غزوة بدر » .

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٢٩ .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « أن الله يحب الذين يتقاتلون في سبيله منا كانوا بنيان

وهناك واقعة مشابهة لهذا النوع بعد خلافة أبي بكر تمثلت في تسير جيش أسامة ، فبعد وفاة النبي ﷺ أعلنت جميع القبائل العربية في اطراف المدينة العصيان ما عدا قبيلة طي ، وكان عدد المسلمين قليلا بالمقارنة بعدد المتمردين ، وكانت الضرورة تقتضي آنذاك الحفاظ على الطاقة لإخضاع العدو الداخلي ، ورغم أن عدد أعداء المسلمين كان لا يقارن من حيث كثرتهم بعدد المسلمين القلائل إلا ان الخليفة الأول قرر الاستمرار في تنفيذ قرار النبي وأن يتوجه جيش أسامة الذي كان يضم سبعمائة فرد إلى الشام لمواجهة الروم ، وكان التأثير الذي تركه هذا القرار كبيرا وقد عبر عنه أبو هريرة بقوله :

« فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا لولا أن لجؤنا قوة ما خرج من هؤلاء من عندهم ولكن فدعهم حتى يلقوا الروم فنلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا مسلمين فثبتوا على الاسلام » (١) .

إذا ما صرفنا النظر عن الأقلية التي كانت مشركة بالمدينة حين وصل إليها النبي فإن أكبر جمعيتين بها كانتا جماعة اليهود وجماعة المسلمين . ثم جماعات أخرى صغيرة لا يضمها اي اتفاق ، وكان الناس من الناحية النفسية في انتظار من يأتي ليقيم بينهم الاتحاد والتالف وليوجد بينهم النظام ويقضى على ما يحتاجهم من فوضى . ورأى النبي هذا الحال فأصدر في أهل المدينة صحيفة (ليست معاهدة) ، وفيها تم الاعتراف باليهود والمسلمين كآمتين مستقلتين (إنهم أمة واحدة من دون الناس إن يهود أمة مع المؤمنين — لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) ، وتم الاعتراف بالحقوق والواجبات المتعارف عليها لدى كل من الفريقين دون إثارتها وقبلة بصورة كلية ، وجاء في تلك الصحيفة ما نصه :

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٦ ص ٣٠٥ .

تمكّن نظام المعلومات العسكرية لدى نبي الاسلام — وكان كاملاً محكماً — من معرفة أمر أبي سفيان ومن هنا قرر النبي ﷺ التقدم ونظم جيشه الجريح وعرج ناحية مكة ووصل إلى منطقة حمراء الأسد وتقع على مسافة ثمانية أميال من المدينة وكان سفره هذا معلناً ظاهراً تماماً للعيان ، وبينما كان النبي ﷺ يعدّ العدة للرحيل وصل الخبر إلى أبي سفيان فاعتقد أن رسول الله قد تلقى المزيد من الإمدادات ، فتراجع في قراره واتجه إلى مكة بدلاً من أن يعود إلى المدينة وحين اطمأن الرسول ﷺ إلى رجوع جيش أبي سفيان عاد هو إلى المدينة .

وفي السنة التالية لغزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة ٨ هـ) بدأ قيصر الروم يعدّ العدة للهجوم على حدود الشام وأعلن الغساسنة ومعهم بقية العرب حالة التأهب العسكري ، ورداً على هذا أعد النبي ﷺ جيشاً قوامه ٣٠ ألف جندي وذلك في الغزوة التي عرفت باسم « غزوة تبوك » (رجب ٩ هـ) وكانت هذه الغزوة في الواقع (تدبيراً عسكرياً) يهدف إلى مفاجأة العدو قبل أن يفاجيء المسلمين حتى يخاف العدو وتخور همته ، فحين علم قيصر الروم بوصول المسلمين إلى منطقة تبوك بدأ في سحب عساكره من على الحدود بدلاً من أن يتقدم تجاه جيوش المسلمين ، وهكذا ترك النبي نية الحرب ، ولا شك أن النبي استفاد من الانتصار الأخلاقي الذي تحقق من جراء تراجع القيصر فقد استقر في تبوك عشرين يوماً ، وأقام علاقة مع قبائل الحدود التي كانت خاضعة لتأثير الروم آنذاك ونتج عن هذا قبول أكيدر بن عبد الملك الكندي رئيس نصارى دومة الجندل ويوحنا بن رؤبة النصراني رئيس أيلة وبقية رؤساء متنا وجرباء وأذرح النصاري ، قبلوا جميعاً دفع الجزية والخضوع لحكومة المدينة .

ابنائه عليه السلام ، فبعد ذلك لم يخرج خالد بن الوليد في اية معركة ضد المسلمين ، واسلم بسرعة ، وفي حفل الزواج اقام عليه السلام وليمة لاهل مكة ، إلا أن اهل مكة طالبوه أن يمكث ثلاثة ايام فقط طبقا للمعاهدة وإن هذه الفترة اكتملت ، وكان عليه ان يعود فوراً ، ولهذا لم يتمكن اهل مكة من تناول طعام الوليمة التي كانت في الأصل تحمل أهمية كبيرة في تأليف القلوب ، وقد أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص معا وحين وصلا إلى المدينة رأهما شخص فصاح : « قد أعطت مكة المقادة بعد هذين » (أخرجه البيهقي عن الواقدي) .

أسلمت أم حبيبة بنت أبي سفيان وزوجها عبيد الله بن جحش وهاجرا معا وذهبا إلى الحبشة وهناك تحول زوجها إلى النصرانية ، ثم مات بعدها بفترة بسيطة ، فخطب النبي صلى الله عليه وسلم للزواج من أم حبيبة ، وهكذا أصبح صبورا لأبي سفيان الذي صار من أعظم قادة مكة بعد مقتل أبي جهل في بدر ، ولهذا تزوج منها النبي زواجا غيايبا ، خشية الا يسمح لها أبوها بالزواج منه إذا ما عادت من الحبشة إلى مكة ، وقبلت أم حبيبة هذا للزواج الغيابي على يد نجاشي الحبشة ، وذهبت بعد هذا إلى المدينة مباشرة ، ويذكر المؤرخون أن معارضة أبي سفيان ضعفت بعد ذلك حتى قبل الإسلام ودخل في دين الله قبل فتح مكة بيوم واحد .

ومن جوانب الحكمة العملية للرسول صلى الله عليه وسلم ما عبر عنه القرآن الكريم بسياسة « الإرهاب » فبدلا من استخدام القوة يمكن تحقيق الهدف عن طريق إظهار القوة ذاتها ، وما لم يأخذ أبو سفيان جيثه ويرجع لتعرض المسلمون لهزيمة ساحقة في أحد (٣ هـ) ، وقد شعر أبو سفيان نفسه بخطئه هذا حين وصل إلى منطقة الروحاء ، فأراد أن يعود مرة ثانية بجيثه إلى المدينة إلا أنه من خلال الفوضى هذه

مكة وبعد فتح مكة فر هاربا واختبأ فأعطاء النبي الأمان واستدعاه .
وبعد استسلام هوازن حصل المسلمون على غنائم كثيرة ، وكان صفوان
بن أمية مع النبي آنذاك وكان لا يزال على الكفر ، فوصل إلى هضبة
مليئة بالخراف والجمال ، وأخذ ينظر متحيراً متعجباً فرأى رسول
الله ﷺ حاله وسأله : « يا أبا وهب . هل يعجبك هذا المان الذي يعطى
الهضبة لا » فقال صفوان : نعم . فقال رسول الله « هو لك وما فيه » .
سمع صفوان هذا فقال : لا يمكن أن يكون لرجل مثل هذا الكرم إلا أن
يكون نبيا . أشهد ان لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله (وأسلم
مكانه) (١) .

كان تعدد زوجاته ﷺ أمرا فرعيا . ففي النظام القبلي تحمل
مسألة القرابة أهمية كبيرة . كانت زيجاته المتعددة من أهم جوانب
فترة ما بعد الهجرة ، فعن طريقها ارتبط بعلاقة قرابة مع العديد من
الناس . ورقت قلوبهم له وادعوته . فبالإضافة إلى زواجه الأول من
أرملة عمرها ضعف عمره . فإن الزيجات الأخرى كانت لها في الواقع
ضرورات معينة بل كانت في هدفها الأساسي وسيلة للحصول على فوائد
للدعوة وفوائد سياسية أخرى .

في السنة التالية لمعاهدة الحديبية (٦٢٨ م) ذهب الرسول مع
ألفي مسلم إلى مكة لزيارة الكعبة فتزوج بميمونة بنت الحارث أثناء
إقامته التي استمرت ثلاثة أيام . وكانت ميمونة أرملة ، لها ثمانى
أخوات تزوجن من أشرف مكة ، وبزواجه من ميمونة أقام علاقة قرابة
مع ثمانى عائلات . وكان خالد بن الوليد ابن أخت ميمونة وقد ربتة
كابنها تماما ، وهكذا بعد الزواج منها صار أعظم قادة جيش قريش

(١) كثر العمال ، مجلد ٥ ص ٢٨٤ .

العملية وكانت الأصول التي اعتمد عليها النبي في دور الدعوة تتلخص في عدم إثارة القضايا الاقتصادية أو السياسية أو القبلية أو غيرها من القضايا المتنازع عليها ، وظل بعيدا عنها وانشغل « بالإنذار والتبشير » .

دعا بنى عامر بن صعصعة في سوق عكاظ إلى الإسلام وأكد لهم بثتى الطرق أنه إنما يبلغ رسالة دينية بطريقة سلمية تماما ، وأنه لن يثير بينهم أية منازعات سياسية أو اقتصادية أو قبلية .، فقال رسول الله ما معناه أنه مبلغ عن ربه ، وطلب منهم أن يمنعوه حتى يؤدي الرسالة ، ووعدهم انه لن يكره أحدا منهم على شيء (١) .

ومضت الأمور على ما هي عليه من حيث الهدف الأساسى للبعثة الحمديية إلا أن الإسلام بدأ يواجه شيئا آخر ، وهو القضايا العملية التي نشأت من جراء البيئة ، وفي هذا الشأن وضع النبي ﷺ أصولا أساسية تمثلت في اتباع السبيل التي تجعل قلوب الناس تميل إلى الإسلام ، وأمكن تحقيق الأهداف الإسلامية بدون حرب أو عراك ، وهذا هو ما عبر عنه النبي بقوله : (نصرت بالرعب على مسيرة شهر) .

وكان لهذا الأسلوب العملى جانبان معينان : الحصول على القوة التي تبث الرعب (الأنفال ٦٠) (٢) ، والثانى تأليف القلوب (التوبة ٦٠) (٣) .

قدم النبي ﷺ إلى الناس الكثير من الأموال لتأليف قلوبهم ولا يوجد لعطائه هذا مثال فى التاريخ ، كان سخوان بن أعية من أشرف

(١) أبو نعيم ، دلائل النبوة ص ١٠٠ .

(٢) يشير الى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله ومدوكم » .

(٣) يشير الى قوله تعالى : « انما ارسلناك للفقراء والمساكين والعاملين طلبوا والمؤلفة قلوبهم » .

فرمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يببثون إلا في السلاح
ولا يحبون إلا فيه « (١) » .

أعلنت قريش المقاطعة الاقتصادية لأهل المدينة ، أعلنت هذا
بين العرب جميعاً . وكانت الحالة الاقتصادية لا تكفى ولا تسد حاجة
الزيادة السكانية التي طرأت على المدينة إذ تضاعف عدد السكان
تماماً ، هذا بالإضافة إلى النفقات الحربية المتزايدة ، كل هذه الأسياء
أدت إلى حدوث ضيق اقتصادى رهيب . يقول عمر : لقد رأيت نبى
الاسلام في المدينة ، كان طوال اليوم يتلوى من الجوع ، حتى التمر
لم يكن متوافراً ليملاً به معدته . وسأل شخص عائشة عن « سراج »
فأجابت : لو كان لدينا زيت ننير به السراج لشربنا الزيت !

وكانت حالة الفقر في الغزوات شديدة لدرجة أن أبا موسى يقول:
خرجنا معه في غزوة وكان معنا نحن (ستة رجال) جمل واحد كنا
نركبه بالتوالي وتورمت أقدامنا من المشى المستمر ، وكنا نلف الخرق
والرقع على أقدامنا حتى أن هذه الغزوة أطلق عليها اسم « ذات
الرقاع » . وكان تموين الغذاء في الغزوات قليلاً لدرجة أن للرجال
كانوا يمصون البلح بدلاً من أكله . هذا بالإضافة إلى الأمراض التي
تظهر نتيجة تغيير الطعام المعتاد . فأهل مكة تعودوا اللحم واللبن ،
ثم وجدوا في المدينة للتمر ، يروى الطبرانى أن رسول الله ﷺ حين
وصل إلى المسجد للصلاة في يوم الجمعة صرخ مسلم مكى وقال :

« يا رسول الله أحرق بطوننا التمر » (١) .

وبعد وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة خرج الإسلام إلى مرحلة
الدعوة العلمية وبدأ دور تاريخى جديد ، إذ بدأت مرحلة المواجهة

(١) كثر العمال ، مجلد ١ ص ٢٥٦ .

(٢) الطبرانى .

الدعوة إلى الله

أهمية القيام بالدعوة :

ان أحداثات الزمان مهما كان ثقلها لا يمكن أن تمحو وجود الأمة الإسلامية لأن وجود الأمة الإسلامية هو جزء من الوعد الإلهي بالحفاظ على القرآن الكريم (الحجر - ٩) (١) ، فكما يظل كتاب الله محفوظاً حتى يوم القيامة يبقى حاملو كتاب الله أيضاً إلى ذلك الوقت ، وهذا أمر مؤكد فسوف تخذ الأمة الإسلامية طالما لم تطو صفحة الأرض والسماء ، و طالما لم تأت ساعة ميزان العدل الإلهي •

إلا أن وعد مالك الكائنات إنما يتعلق بالأمة المحمدية في هذه الدنيا لا بنجاتهم في الآخرة ، فالنجاة في الآخرة إنما يتوقف على عمل الإنسان ، وقانون الله فيما يتعلق بهذا الأمر قانون ثابت عادل ، ينطبق على الأمة المحمدية فرداً فرداً بل إنه لا يمكن أن يحابي أو يستثنى من قواعده زوجات النبي أو أولاده •

ما هو المقصود « بالعمل » ؟ • المقصود منه هو أن نستكمل مستلزمات ومقتضيات ما جئنا بسببه إلى هذه الدنيا ، فقد جئنا إلى هذه الدنيا لتعبد الله ، وجئنا لتكون أمة آخر الأنبياء •

ومن الاعتبار الأول يجب على كل المسلمين أن يصبحوا فرداً فرداً وبصفة شخصية « عباداً صالحين » وأن يثبتوا بذاتهم عبوديتهم لله ، إلا أننا من حيث كوننا أمة آخر الأنبياء والرسل علينا فريضة

(١) يشير إلى قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لعافظون » •

أخرى ضرورية . وهي أن تقوم بما كان يقوم به الرسول ﷺ من تبليغ الرسالة لأهل الدنيا :

« فرضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل » .
(وهب بن منبه) .

فمحمد ﷺ أرسل إلى الناس أجمعين والمؤمنون به نظرا لاتباعهم له مبعوثوه لهذه الأمم التي تظهر بينهم : فبعثته إلى أهل الدنيا قاطبة تتم — بعد وفاته — بواسطة أمته . يروى عن مسعود بن مخزومة أن النبي ﷺ قدم على أصحابه فقال :

(إن الله بعثني رحمة للناس كافة فادعوا عني) (١) .

سأل رستم « ربيع بن عامر » رضى الله عنه : « أينما الناس لماذا جئتم إلى بلادنا ؟ » فأجاب :

« إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله : ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » (٢) .
إن إبلاغ الرسالة على درجة كبيرة من الأهمية وفي سبيل ذلك تتوون التضحية بأي شيء . في السنة السادسة للهجرة (٦٢٨ م) . عقد ﷺ مع أهل مكة معاهدة الحديبية : وكان شرطا أن يسمح لأهل مكة بالمرور بالمدينة إلى مصر والشام والعراق بقصد التجارة وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم (٣) : فكان النبي ﷺ بإقرار هذا الشرط قد سمح علانية لأعداء الإسلام بممارسة النشاط التجاري

(١) تهذيب سيرة بن هشام ، مجلد ٢ ، ص ١٤١ .

(٢) تاريخ الطبراني ، مجلد ٣ ، ص ٢٢ .

(٣) رواء البخاري ومسلم .

داخل حدود المنطقة الإسلامية • هذه المادة وغيرها من المواد الأخرى المتشابهة معها انما وضعت بغرض منح هؤلاء الناس تسهيلات اقتصادية وسياسية حتى يصفو بذلك ميدان الدعوة للرسول ويتمهد الطريق إليها •

فإذا لم تبلغ الناس الذين يعيشون حولنا بيوم القيامة : فإننا كأمة سوف نكون كنبى ارسل إلى قوم برسالة من الله ثم لم يبلغهم إياها • فهو ان ترك قومه على شركهم وكفرهم فلن يتقبل الله منه صلواته ولا صومه • فكيف إذن يكون علمنا الذاتى وحده كافيا لنجاتنا وتبولنا عند رب العالمين ومن حولنا ملايين الناس لم يبلغوا ولم يخبروا بحقيقة الحياة : وما يجب عليهم أن يفعلوه من أجل فلاحهم الحقيقى •

والنبى إذا لم يؤد رسالته فى الدنيا : فمن المحتمل أن يتعرض لخطر البقاء فى قبضة الدهر •

(إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) (١) •

والسبب هو أن النبى يتحمل مسئوليتين فى وقت واحد : الأولى أن يكون بنفسه مؤمنا ومسلما : (يونس — ٧٢) (٢) ؛ والثانية أن يبلغ أهل الدنيا (العالمين) برسالة الله (المائدة — ٦٧) (٣) ، وبعد ختم النبوة أصبح للأمة الإسلامية مقام النبوة . ومن هنا فعلينا أيضا — أمام الله — مسئوليتان : الأولى باعتبار الإيمان والثانية باعتبار الاجتباء (الحج — ٧٨) (٤) ، ومعنى الاجتباء هو « الاختيار » ، فقد اختار الله الأمة المحمدية لهذا العمل وهو إبلاغ رسالة الله إلى العالمين : ومن مسئولياتها الآن أن تتبع حياة الإيمان بطريقة كاملة ، ومع هذه المسئولية

(١) الاسراء ٧٥ •

(٢) بشير الى قوله تعالى : « وأمرت أن أكون من المسلمين » •

(٣) بشير الى قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وان لم تفعل

فما بلغت رسالته » •

(٤) بشير الى قوله : « وحاهدوا رب الله على جهادك أو الجهادك » •

عليها مسئولية أخرى وهي ان تكون شاهدة للحق بين الناس ، وكما كانت الدعوة إلى الحق مسئولية على النبي ﷺ فهي أيضا مسئولية على أتباعه (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) (١) .
وجاء في الحديث (أنتم شهداء الله في الأرض) .

والإنسان — كما هو معروف — لا ينتهي بالموت ، بل يصل إلى حياة أخرى أطول . حيث النعيم الدائم أو الجحيم الدائم ، وهذه حالة صعبة وثيقة لأن الإنسان إذا لم يعرف السبيل إلى مرضاة الله فهذا يعني أنه بعد الموت سيتعرض فجأة لعذاب لا حدود له ، ولا سبيل للنجاة منه ومهما حمل هذا الأمر من أهمية كبرى عند أهل الدنيا عامة ، فإن أهم شيء عند الله تعالى هو ألا يغفل عنه الإنسان كعبد لله ومن هنا أرسل الله إليه بعد أن خلق سلسلة من الأنبياء حتى ينجيه من خطر الضلال : أرسل الله إلى كل « قرية » وإلى كل « أمة » عدداً من المرسلين ليبلغوا رسالة الله إلى الناس .

ولما كان هدف إرسال الرسل ألا يكون للناس على الله من حجة (النساء — ١٦٥) (٢) فإنه لا يكفي أن يقوم الرسل بإطاعة أوامر الله وتطبيق الأحكام الإلهية في حياتهم الشخصية فقط بل يجب عليهم أيضا ان يطلعوا عباد الله — بأقصى ما في وسعهم — على رسالة الله — قام يونس عليه السلام بإبلاغ رسالة الله إلى مائة ألف من سكان نينوا (العراق) ولكنه ترك القوم قبل أن يكمل تبليغ الرسالة إلى آخر مداها ، فغضب الله عليه وابتلعه الحوت ولم ينجه الله إلا حين شعر بأن عليه أن يعود إلى القوم مرة ثانية .

١٠ يوسف ١٠٨ .

٢٠ يشير إلى قوله تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة

بعد الرسل » .

والحقيقة أن إبلاغ الرسالة لا يتم إلا إذا جاء بطريقة كاملة (بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) (١) .

وهكذا فأمة الرسول تكون حقا أمته حين تؤدي نفس مسئولية الرسول وتقوم بإبلاغ الرسالة الإلهية إلى العالمين ، تلك الرسالة التي وصلتها من جانب الله ، وليس من شك أن مسئولية النبي هي بذاتها مسئولية أمة هذا النبي أيضا ، والفرق هو أن المسئولية تقع على النبي كفرد بينما تقع على الأمة كجماعة ؛ فالنبي يضطلع بمسئولية الدعوة بصورة ذاتية بينما هذا ليس بالضرورة فرضا على كل فرد في الأمة فإذا قامت من بين الأمة جماعة وأدت فريضة الدعوة إلى الحق فإن المسئولية تسقط عن بقية الأفراد .

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » (٢) .

وقد ورد النص صريحا بخصوص الشهادة أمام العالمين ، وذلك فيما يتعلق بالتبعية للنبي :

« وكذلك جهلناكم أمة وسطا ل تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٣) .

ويوم القيامة حين يقف جميع الخلق أمام المحكمة الإلهية ، فسوف يشهد عليهم أولئك الناس الذين بلغوهم رسالة الله في الدنيا ، ورد في الكتاب المقدس ما يابى :

« سيجمع الناس كلهم ، وتجمع جميع الأمم ، سيكون هناك من بينهم من سيقول لهم : ألم نخبركم قبلا ، وسوف يأتون بشهادتهم

(١) المائدة ٦٧ .

(٢) التوبة ١٢٢ .

(٣) البقرة ١٤٢ . وانظر أيضا سورة الحج . آية ٧٨ .

ليشهدوا على صدقهم وسيسمع الناس ويقولون : هذا حق ، يقول الله :
أنتم شهدائي وأنتم عبادي لقد اخترته حتى تعلموا وتؤمنوا بي وبأنبي
هو ، اننى أنا يهودا (الله) وليس هناك من منقذ غيرى وأنتم شهدائي» .
(يشوع ب ٤٣ - آية ١ - ١٢) (يسعيا ب ٤٣ - آية ١ - ١٢) .
انهمك النبي ﷺ في أداء مسؤلية الشهادة حتى أن الله خاطبه
بقوله : « لطفك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » (١) .

وهكذا فإذا شعر المسلمون أنهم وضعوا على مقام الرسالة الصحيح
بعد إبلاغها لهم ، ذلك المقام الذى وقف عليه النبي في حياته ، فإن
النوم سيغير من أعينهم وستحرم الراحة عليهم ، لأن هذا يعنى أحد
شيئين بالنسبة لهم : إما أن يكونوا شهداء الحق أمام العالمين فيبثروا
ذمتهم ؛ وإما أن يرتكبوا جرماً في حق الله فلا يبلغوا الناس بما سيفعله
الله معهم في الحياة الآخرة .

وإذا لم يبلغ المسلمون هذا الحق الذى أرسل اليهم من أجل خير
وفلاح عباد الله فإنه يخشى أن يصدق عليهم حكم القرآن على أهل
الكتاب السابقين :

« إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البيئات والهدى من بعد ما بيناه
للناس في الكتاب أو أنك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا
وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » (٢) .

فإذا كان هناك شيء آخر ذكر في القرآن الكريم غير مرصاة الله
فهو بالتأكيد إمام المسلمين بأنهم إن لم يبلغوا دين الله إلى غير المسلمين
فلن يكونوا بمؤمن من عذاب الله سواء على المستوى الفردى أو على

١. الشورى ، ٣ .

٢. البقرة ١٥٩ - ١٦٠ .

مستوى بلدهم وعلى مستوى أهل الأرض جميعاً ، وذلك حتى لو حلوا
لله ليل نهار . فإذا اعتقدنا أن الطريق إلى الجنة يمر بمشوار روحاني ،
فيجب أن نشعر جيداً أن أبواب الجنة لا يمكن أن تفتح أمامنا إذا لم
نحاول أن نغلق أبواب جحيم أمام ملايين البشر من غير المسلمين ممن
يعيشون حولنا ، وهما واجبتنا أثناء محاولتنا من متاعب نتعرض لها
لا نريد مواجهتها أساساً .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم
مستهم البأساء والضراء وزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا
معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » (١) .

وقد جاء على لسان النبي ﷺ في القرآن الكريم : « وأوحى إلى
هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » (٢) .

ومن يبلغ الأمم حقيقة يوم القيامة في الحياة الدنيا سيكون
شهيداً عليها أمام الله يوم القيامة « يوم يقوم الأشهاد » (٣) .

والسؤال الآن : من اليوم سيكون شهيداً على أمم الدنيا أمام
العدالة الإلهية - كتابع للنبي ﷺ - يعلن أنه بلغ تلك الأمم حقيقة
الحياة ؟ ! هل نأخذ جماعة من جماعات العالم الإسلامي تقوم بهذه
الشهادة أمام العالم كله ؟ ! إذا لم يكن الأمر كذلك ، وهو بلا شك
كذلك ، فهل نعوذ بالله - انتهى زمان رسالة رسول آخر الزمان ، ألن
تأتي القيامة ؟ ! هل يدل الله تعالى هذه السنة للأمم التالية إذ قرر بأنه

١١ البقرة ٢١٤ .

١٢ الأنعام ١٩ .

١٣ مائدة ٥١ .

سيكون من بينهم شهداء عليهم ، وأن مستقبل هذه الأمم بتقرر بنساء على شهادتهم ؟ !

يعتقد بعض الناس أن انطلاق الأذان من فوق مآذن المساجد إنما يكفي لإتمام الحجة ، وليس هذا سوء فهم فاضح فقط ، بل هو وزر يدعو إلى الاطمئنان إلى مثل هذا النوع من الإجابات ، فإله يرثدنا إلى أن من يأتي شهيداً على أمة ما إنما يأتي شهيداً عليها بلسانها « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (١) وهو يقدم لها رسالته بوضوح حتى يعان أفراد هذه الأمة : نشهد بأنك بلغت « وليقولوا درست » (٢) : ونحن نجلس ونظن أن انطلاق الأذان في الخفاء ، مهما كانت لغته يجعلنا بريئى الذمة أمام الله !

مضمون الدعوة

ما هي تلك الرسالة التي نبلغها للناس ؟ الإجابة على هذا السؤال تكمن في كلمة واحدة هي : التوحيد أى الإيمان بالله ، وأن يكون ذلك مستقراً في قلوبنا حتى يصبح هو مركز ومحور حياتنا ، يذكر في بعض الروايات أنه حين فتحت مكة بدأ الناس يبائعون الرسول ﷺ ، وقدم الكبار والصغار ، الرجال والنساء ، وأخذ منهم الرسول ﷺ البيعة على شيئين اثنين : الإسلام والشهادة . (فجاءه الناس الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعوه على الإسلام والشهادة - البيهقي) .
وأخرج أحمد عن عبد الله بن عثمان بن خيثم أن محمد بن الأسود ابن خلف أخبره أن أباه الأسود رضى الله عنه رأى رسول الله ﷺ يبائع الناس يوم الفتح - قال : فبايع الناس على الإسلام والشهادة . قلت وما الشهادة . قال : أخبرنى

(١) إبراهيم ٤ .

(٢) الأنعام ١٠٥ .

محمد بن الأسود بن خلف أنه بايعهم على الإيمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

إن عقيدة التوحيد ليست مجرد قضية فلسفية بل هي ورقة امتحان إنسانى ، ومن هذه الناحية تصبح الآخرة أيضاً جزءاً لازماً لدعوة التوحيد : فالداعية حين يبلغ الناس حقيقة التوحيد ، فهو يحذرهم أيضاً من الآخرة : فبعد الموت سنقف بين يدي الله ويحاسبنا على أعمالنا ، وعليهم أن يطلعوا الناس على القضية القادمة وهي أنه بعد الموت ينتقل الناس إما إلى الجنة وإما إلى جهنم ، وأولئك الناس الذين استعانوا فى الدنيا بغير الله ، لن يروا الله ، ومن تمسك بميثاق الله فإنه هو الذى سينال هذا المقام فى الآخرة .

وهذا الأمر لا يمكن أن يخضع لعملية القياس العقلى بل يناله الإنسان عن طريق علم الوحي ، العلم الناضج الكامل ، ولهذا فالداعية يجب أن يضم إلى دعوته بالضرورة عقيدة الرسالة ويطلع الناس على حقيقة وجوب معرفتهم بالصراط الحق حتى يحققوا النجاح وينالوا الفوز فى حياتهم ، وذلك ليتمكنوا من معرفة ربهم ، كما يجب عليهم أيضاً أن يتخذوا من الرسالة هادياً لهم ، وإلا ضلوا وضاعوا وسط الظلمات ولن يهتدوا إلى الصراط المستقيم أبداً .

هذا هو أساس دعوة الحق المتين ، إلا أن الإنسان ليس شيئاً جامداً منزوياً كقطع الحجارة الصغيرة ، بل هو كائن نقى واجتماعى ، وبعبارة أخرى إن اقناع إنسان بأمر ما ليس كوضع لون خاص على قطعة من حجر ، فأعمال الإنسان كلها تصدر بناءً على فكره الداخلى ، وهذا الفكر الداخلى يمضى بوجوده الشخصى على نهج خاص ، ثم حين يلتقى هذا النوع من الناس فهم يكونون مجموعة يطلق عليها المجتمع ، فتشكل عقيدتهم الداخلية شكل هيكل معين على مستوى المجتمع كله ،

وهكذا نغيبون الإنسان لعقيدة ما يصبح كمن يلقي بحجر في الماء فالقاء الحجر يشكل في البداية دائرة صغيرة تبدأ في الاتساع لتشمل حوض الماء كله . وهكذا فعقيدة التوحيد تتخذ مكانها أولاً في قلب الإنسان . ثم تبتز وتتحرك بعد ذلك داخل تكوينه النفسى . وبعدها تصطبغ حياة الإنسان الخارجية بصبغتها . ويتطور الأمر بعد ذلك فتضم الأسرة والسوق والبرلمان والعلاقات الدولية أى تجعل جميع نواحي الحياة الاجتماعية وجميع المعاملات الإنسانية تتخذ شكلاً خاصاً . ورسالة الداعية إذا قامت أولاً وبصورة أساسية على التوحيد فهي فى نتائجها النهائية تصل إلى حل قضايا الأمم المتحدة » .

وهذه « الكلية » التى يراها البعض فى الإسلام تجعلهم يفضلون إطلاق كلمة « نظام جامع » على الإسلام . وهذا التعبير رغم أنه فى الظاهر تعبير صحيح فإنه يحمل بداخله خطأ ما ؛ إذ أن اعتبار الحقيقة الأساسية فيه ومتعلقاتها شئيين متماثلين وربطهما معاً هكذا هو كإعطاء أجزاء الجسم هذه الدرجة التى تكون للروح فى أى شخصية . فإن فهم الأمر عن طريق هذا المثال إنما هو بيان كحكاية « حب » فى كتاب ما ؛ نقرأ فيه فقرة تقول : « إن زيدا يحب بكرة » ثم يكتب : « حين التقيا معاً ذات يوم فى محطة القطار عانق زيد بكرة » ثم يكتب : « قدم بكر ذات مرة إلى قرية زيد ؛ فدعاه زيد إلى بيته » . إذا ما رتبنا العبارات الثلاثة السابقة فإن الإنسان يقول إن الحب اسم لهذا العمل الجامع للأمور الثلاثة : العناق والدعوة ؛ والحب بالقلب ؛ ومن الممكن أن نشاهد لمحة جامعة لهذا التعريف المتعلق بحب شخص ما ؛ إلا أن الحقيقة أن خطأ عظيماً حدث فى إعطاء حقيقة المحبة ومتعلقاتها درجة متساوية والتعبير عنها هكذا ؛ وكأن الأمور الثلاثة حين تجتمع كلها داخل شخص واحد تجعلنا نقرر أن محبته هذه محبة كاملة ؛ بينما يمكن أن تتحقق المحبة الكاملة حين يوجد الجزء الأول (المحبة بالقلب)

ولا يوجد الجزآن الآخران حتى إذا لم تتم محاولة الحصول عليهما
بصفة مستمرة .

وغنيما يتعلق بالدعوة الإسلامية فتجب مراعاة دقة ترابط أجزائها
بعضها مع بعض . وإلا إن نتمكن من أداء حق الدعوة .

والدعوة إلى الإسلام بطريقة مباشرة هي في الحالات العامة
تخالف الحكمة ، ولهذا فإن من يريدون العمل في هذا الميدان ، ينحرف
ذهنهم أحيانا عن هذه القضية بنواحيها المختلفة ويواجهون مشكلة
أسلوب الخطابة في الدعوة ، ويرى البعض أن الحل هو وضع الإسلام
أمام الناس كنظام « اجتماعي » أو كأحسن نظام اجتماعي ، ويرى
البعض الآخر أن يقدم الإسلام للناس كدين يحمل راية الحقيقة العالمية،
تلك الحقيقة التي توجد في جميع الأديان ، ويحاول بعض الناس إعطاءه
رداء فلسفيا ، ويقولون إن الدين يعد أساس الشعور الأخلاقي للإنسان
لضرورة إثبات الشريعة الإلهية وغير ذلك ، ولكن جميع هذه الطارق تحمل
قاسما مشتركا وهو أن واحدة منها لا تبرىء ذمتنا من العمل الأساسي
وهو شهادة الحق لأن الجانب الأساسي في عملية الشهادة هي إطلاع
الناس على يوم القيامة .

وقضية أسلوب المخاطبة الذي تتعدد فيه الاتجاهات إنما تظهر
لنا لأننا نستقي الإجابة على هذا الاستفسار من التاريخ ، ولا نبحث
عن الإجابة من خلال سيرة النبي ﷺ ، فنحن وارثون لتاريخ ما بعد
الإسلام ، وذلك بصورة نفسية وطريقة المخاطبة التي جاءت في التاريخ
التالي هي هذه : يا أيها الناس آمنوا ، ومن هنا فحين نذكر كلمة الدعوة
يأتى هذا الأمر في ذهننا فوراً ، ولكن سيرة النبي ﷺ وحياته في الدعوة
كانت قائمة على التدرج في هذا الأمر ، والدعوة باسم الإسلام بدأت
في فترة حياته المدنية (بالمدينة) أما الفترة السابقة ، وهي الفترة المكية

فكنت دعوته من هذا النوع : « أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .
 وخطب النبي ﷺ في الدور المكي هي كلها بهذا الأسلوب . أما أسلوب « أسلم تسلم » فكان أسلوب الدور المدني .

في الفترة الأولى للدور المكي حين قدم النبي دعوته إلى أبي بكر الصديق كان كل ما قاله : « إني رسول الله أدعوك إلى الله » ولكن بعد فتح مكة قدم النبي ﷺ دعوته إلى والد أبي بكر « أبي قحافة » فقال : « يا أبا قحافة « أسلم تسلم » ، ويمكن أن نقول بعبارة أخرى إن الدعوة لدخول الدين بصورة منظمة بدأت في الدور المدني حين تمت معرفة الحق على نطاق واسع وتحقق النصر للإسلام فعلا على أساس ثابت . وقبل ذلك كان التركيز في دعوة النبي ﷺ على حقيقة الدين بدلا من الدعوة إلى البناء التنظيمي في الدين .

وفيما يتعلق بأسلوب المخاطبة فإنه كان يركز على وضع هذه الحكمة الأساسية وبهذا تنادي جميع المشكلات دون إقحام المدعو في أية تعقيدات نفسية ، فقد جعل أسلوب الدعوة قائما على حكمة الدعوة الأساسية أي إطلاع الناس على اليوم الآخر ، وهو ما عبر عنه القرآن بيوم الجمع (الشورى - ٧) (١) ويوم التلاق (غافر - ١٥) (٢) ويوم الأزفة (غافر - ١٨) (٣) حين يحاسب الإنسان حسابا دقيقا ولا يخفى من نفسه شيئا وحين تبلغ القلوب الحناجر من شدة الهول (غافر - ١٨) (٤) ، هذه هي القضية التي سادت السور المكية في القرآن : أي في الفترة الأولى للدعوة .

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه » .
 (٢) يشير إلى قوله تعالى : « رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره من من يشاء من عباده لتنذر يوم التلاق » .
 (٣) و (٤) . يشير إلى قوله تعالى : « وأندرجهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كالمطين » .

ونحن هنا ننقل بعض الأمثلة التي يتضح منها هدف الدعوة إلى حقيقة الدين بدلا من الدعوة إلى دخول الدين المنظم .

١ - ورد في سورة التكاثر المكية قوله تعالى :

« الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

وقد تأثر أحد الألمان أول ما تأثر بهذه السورة ؛ ويدعى محمد أسد ، فأسلم .

٢ - حين صدر الحكم للنبي ﷺ بإعلان الدعوة العامة ذهب إلى هضبة الصفا طبقا للتقاليد العربية وخطب في الناس بعد أن تجمعوا ، وطبقا لرواية ابن عباس قال النبي ﷺ :

« والله لتموتن ثم لتبعثن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسييء النار وأنا أقول لكم بحق وإنكم لأول من أنذرتهم » (ابن عساکر عن معاوية) .

٣ - قال عمر الفاروق رضى الله عنه مرة :

ويل لديان من فى الأرض من ديان من فى السماء يوم يلقونه إلا من أمر بالعدل وقضى بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة ولا على رغب ولا على رهب وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه .

ومن حسن الحظ أنه فى عصرنا الحديث نالت هذه المسألة أهمية جديدة ؛ فقد تم تأسيس قسم مستقل خاص أطلق عليه اسم « علم الموت » Thanatology يبحث أمر الموت من وجهة نظر علمية ، وإن يمر وقت طويل حتى تبدأ معظم الأبحاث المتعلقة بالموت فى التركيز

على موضوعات الكتب الدينية بحسب خاصة • والموت المفاجيء هو أهم الموضوعات التي تلقى رواجاً وقبولاً لدى العلم الحديث : حتى إنه أصبح تخصصاً علمياً ، وتفخر جامعة مينسوتا الأمريكية بأنها أقامت مركزاً لدراسة الموت ، وقد أنشأ U.C.L.A. معملاً له هدف دراسة ظروف إصابة الحياة بالأضرار •

وفي المجالس الاجتماعية بدأ موضوع الموت يدرس مثله مثل موضوعات الجنس والسياسة ، وذكرت جريدة (أتلانتيك) الأمريكية في تحليل لها أن بعض الكتب الجديدة بدأت في الظهور ، ويمكن أن نطلق عليها اسم « كتب علم الموت » ، ولا يمكن للدعوة الدينية أن تجد أطيب من هذه الظروف التي تنبه الإنسان إلى جوانب الموت والحياة •

واعتبار التذكير بالآخرة هو المحور الأساسي للدعوة ، جاء نتيجة لأن هذه أعظم قضية تواجه الإنسان ، وهي أساس القضية التي تقرر نهاية الإنسان الأبدية طبقاً لأعماله بعد الموت •

لقد اعتبر الموت ، واعتبرت الحياة بعد الموت من أهم القضايا التي يجب أن يواجه الإنسان إليها قدراً كبيراً من اهتماماته ، كتب دكتور (بيلي جراهام) (١٩١٨ -) « أن شخصاً دعاني إلى بيته وكان واحداً من أغنياء هذا العالم ، وغيته من دعوته لي ضرورة وصولي إليه في أقرب فرصة ، وفور الانتهاء من تناول الطعام أخذني إلى غرفة منفردة وقال :

«بينما أنا الآن في صحة جيدة فإن عمري يخبرني بأنني لن أعيش طويلاً ، أنا لم افكر كثيراً في الموت من قبل ، ولكنني الآن أجد

عقلى مشغولا تماما بهذا الأمر ، وهذه الفكرة تخيفنى ، أنا أحتاج إلى مساعدة « (١) •

هذه قضية تعد ذاتية لكل إنسان ، لأن كل إنسان سيواجه الموت حتما . وتجربة آلاف السنين أثبتت أنه لا استثناء فى هذا : ثم إن الموت هو أكبر قضايا الإنسان العاجلة ، لأنه لا يوجد موعد لحلوله ، وهذه الحقيقة الواقعة فأى شخص مهما حقق من فلاح فى الدنيا حين تداعبه فكرة الموت يرتعد ويرتعش لأنه يعلم أنه لا يمكن أن يؤجل الموت ولا يمكن أن يسرى فلاحه ونجاحه فى الحياة القادمة ، وهذا الجانب من الفطرة الانسانية يحتل مقاما عاليا حين نبدأ فى زرع دعوة الحق فى قلب إنسان ما ، وهذا هو الباب الذى لا يوجد عليه أى حارس أو رقيب ، فحين تفرع باب قلب إنسان ما ستجدته مفتوحا امامك لأنه الباب الوحيد الذى لا يعلق أبداً فى وجه أحد •

من ضرورات الدعوة : مركز إسلامى عالمى

من أكبر المسئوليات الملقاة على عاتق مسلمى العالم اليوم أن يكونوا شهداء حق على أمم العالم ، ولا يمكن أن يخلصهم من هذه المسئولية أى عمل آخر ، وهذا هو العمل الذى اشترى به الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم (التوبة - ١١١) (٢) •

كيف يبدأ هذا العمل ؟ الإجابة على هذا السؤال موجودة فى القرآن الكريم • يفهم من القرآن الكريم أن الله تعالى يريد أن يكون للمسلمين مركز ينظم عملية الدعوة والتربية ، يتلى فيه كلام الله أمام

(١) مجلة ريدرز ايجيت ، ديسمبر ١٩٧٢ •

(٢) يشير الى قوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن

غير المسلمين (التوبة - ٦) (١) * ومن ناحية أخرى يعد تنظيمنا للمسلمين حيث يفدون من بلادهم إلى هذا المركز ليقضوا به فترة تربية في سبيل الدعوة والتبليغ ، ثم يعودون بعد ذلك إلى بلادهم فيطلبوا أممهم وأهليهم على ما تعلموه (التوبة - ١٢٢) (٢) *

وإنشاء مثل هذا المركز إنما هو من أكبر مسؤوليات المسلمين اليوم ، ويجب أن يكون هذا المركز على المستوى الذي يتناسب مع عالمنا اليوم . لقد أنشأ المبشرون النصارى مراكز لتبليغ دينهم يضم كل مركز منها مساحة عدة أميال ، يمتلكون محطة للإذاعة ، ومجموعة من الطائرات ، يمتلكون الجامعات * وما دمنا لا نؤسس مركزاً على هذا المستوى ، وبأحسن من هذا المستوى فلا يمكن أن نجد عذراً نقدمه أمام الله عن تقصيرنا في تقديم وتبليغ دعوة الحق . يجب أن نقيم مؤسسة كاملة على أرض واسعة ، تجهز بأعظم الوسائل والسبل اللازمة للنشر والطبع ، تمتلك جاهتها الخاصة بها ، ومكتبتها الكاملة . وتمتلك هيئة كاملة تختص بالبحث والتأليف ، وتمتلك داراً للنشر بكل اللغات ، ويجب أن تتوفر لها محطة للإذاعة وعدد من الطائرات ، أي يمكن أن تستفيد من جميع ما هو على أرض الله ، وما يمكن الاستفادة منه في سبيل نشر الدين * هذا مجرد حلم ، إلا أن الكنز الذي فتحه الله على المسلمين جعل من السهل عليهم إنشاء مثل هذا المركز ، إذ أن قليلاً من الوسائل المتوفرة حالياً يكفي تماماً لإقامة هذا المركز على أحدث النظم وبأعلى مستوى *

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وان أحد من المشركين استجارك فاجر . حتى يسع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

ان الله تعالى يريد أن تبلغ رسالته إلى عباده بطريقة كاملة تامة ، وكانت هذه هي الحكمة التي من أجلها وهب الله تعالى المسلمين قوة السيف في عصر السيف ومنح على يدهم جميع البلاد المعروفة في وقتهم ، وانتشر صوت الإسلام في كل مكان .

أما اليوم - وفي مجال استخدام الآلة - فقد وهبهم الله قوة البترول بطريقة مدهشة . جاء في تقرير البنك العالمي رقم ٤٧٧ (سنة ١٩٧٤) أن الدول المنتجة للبترول OPEC تمتلك بين يديها ٨٥٪ من حصة التجارة العالمية ومن هنا فهي تمتلك اليوم مفتاح القوود الاقتصادية في العالم الحديث . وهذه الفرص لم تعط لهم بلا هدف أو بلا غرض بل أعطيت لهم حتى تتفق على العمل الأساسي ألا وهو هدف جميع المسلمين المحدد .

بدأ استخراج البترول من باطن الأرض في التاريخ الحديث سنة ١٨٥٩ حين نجح ايدون ايل دريك (أميركا) في استنباطه من عمق سبعين قدما في بنسلفانيا ، واكتشف البترول في الشرق الأوسط لأول مرة سنة ١٩٠٨ م في « مسجد سليمان » وفي ذلك الوقت كان الأتراك يحكمون العرب ، وقد قدمت الشركات الغربية تسهيلات للإمبراطورية العثمانية لاستخراج البترول من هذه المنطقة .

إن سر القوة الصناعية في العالم وسر تطورها ورقبها يكمن في البترول ، وهو يماثل الآن الماء بالنسبة للزراعة ، والدماء بالنسبة لجسم الإنسان ومن الحير أن جزءاً كبيراً من هذه الثروة الطبيعية مدفون تحت الأرض في المنطقة التي يطلق عليها « الشرق الأوسط » أو « الخليج العربي » . وقد ظلت هذه الثروة منذ بداية القرن الحالي وحتى الآن في قبضة الأمم الغربية الصناعية وبخاصة أميركا ، ويكمن

سر تقدم هذه الأمم في ذلك الوقود الرخيص الذي تحصل عليه هذه الأمم بسهولة كبيرة من بلدان الشرق الأوسط • والمسلمون في العالم هم الذين يمتلكون قوة البترول ورغم ذلك فهم الآن ضعفاء العالم في عصر قامت فيه حركات عديدة ، وظهر فيه العديد من القادة ، إلا أن احداً منهم لم يعرف هذا السر ، ولم تحاول أية أمة أن تنهض في هذا الاتجاه • واستخدام البترول في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم يكن بطريقة شعورية بل كان في معظم الأمر كعصا رجل كسيح يتوكأ عليها ، وكانت هذه هي التجربة الأولى التي عرف الناس من خلالها أن البترول قوة وطاقة كبيرة . إذا ما استخدمت حتى بطريقة جزئية أمكن ان تبرز الصناعة الدولية كلها •

وقد وصلت قيمة البترول المستخرج من منطقة الشرق الأوسط في منتصف سنة ١٩٧٤ ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار في اليوم ، وقد أحدث هذا الفيضان من الثروة انقلاباً مفاجئاً في دول الخليج العربي حتى أن أهل البلاد أصبحوا عاجزين عن إيجاد مجالات لإنفاق هذه الثروة ، وطبقاً لتقديرات البنك العالمي سيكون لدى دول البترول حتى سنة ١٩٨٥ فائض مالي يقدر بمليون مليون دولار وذلك بعد خصم النفقات العديدة بكل أنواعها وبعد الإسراف الشديد جداً ، وهنا يجب أن نتذكر أن النبي ﷺ تنبأ بظهور هذه الثروة في الوقت الذي كانت فيه الرمال تتطاير على الجزيرة العربية ولم يكن يرى فيها غير الجبال ، وهذه النبوءة جاءت في الأحاديث بألفاظ مختلفة وطبقاً لما ورد في رواية البخاري ومسلم :

« يوشك أن يحسر الفرات عن كنز من ذهب فمن حضرة فلا يأخذ منه شيئاً » متفق عليه •

وما قاله ﷺ حين أشار إلى هذا الكنز (فلا يأخذ منه شيئاً)

جدير بالاهتمام ؛ فمعناه أن الثروة الطبيعية أى الذهب المسائل Liquefied Gold لا يجب أن يكون من أجل التمتع الذاتى . بل إن الثروة التى وهبها الله ؛ يجب أن تكون فى سبيل الله ؛ فالبتروول الذى ظهر فى هذه الدول إنما هو لها فتنة كبيرة ؛ والشكل الوحيد للنجاة من هذه الفتنة هو أن ترصد هذه الثروة من أجل الكفاح والجهاد لإحياء الدعوة الإسلامية ونشر الإسلام بالاضافة إلى النفقات الضرورية الأخرى ؛ فإذا لم تفعل هذه الدول ذلك فإن هذا الكنز سيكون يوم القيامة وبالاً عليها ؛ وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا فى سورة التوبة (٣٤) (١) . والواجب أن ترصد الدول المنتجة للبتروول ميزانية خاصة فيما بينها تشارك فيها كل دولة بهبات خاصة تكون فى النهاية ميزانية يتم بها إنشاء مركز إسلامى عظيم على مستوى حديث ؛ فأية مؤسسة عادية لا يمكنها أن تؤدى واجب شهادة الحق فى دنيا اليوم ؛ فعصرنا هذا هو عصر المستوى Standardization وفى دنيا اليوم لا يمكن لشيء أن يؤثر إذا لم يكن على المستوى الذى من أجله جعل هذا الشيء .

ومعرفة سنة الله تعالى من خلال سلسلة الرسل تفهيمنا أن إعلان الدعوة يتم على مستوى الإعجاز الإلهى على الدوام . وإعطاء الأنبياء المعجزات هو الأمر الذى يحمل أهمية فى الأذهان البشرية العامة فى أى زمان ؛ وذلك حتى يمكن للإنسان نفسه أن يشاهد سمو الله فى خضوع المعايير المعروفة لدى الإنسان ذاته . ونبى آخر الزمان محمد بن عبد الله لم يعط هذا النوع من المعجزات السابقة . وحين طالب

١٠- يشير إلى قوله تعالى : « والذين يكفون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل

الله فيشركم بعذاب اليم » .

معارضو الإسلام بهذا . قيل إن هذا القرآن الذي أنزل عليه هو معجزته
مُنَزَّلَةٌ (العنكبوت - ٥١) (١) .

كانت تلك هي الخاصية التي ميزت الزمان التالي : فبعد نبي
آخر الزمان دخل العصر الإنساني دور العصر العلمي والتقني ؛ إذ لم
يكن هذا العصر عصر « معجزات » بالمعنى السابق له ؛ بل هو عصر
يحمل أهمية الإثبات العقلي والاستدلال المنطقي ؛ وليذا اختار الله
تعالى في ذلك العصر « القلم وسيلة للاعجاز (العلق - ٤) (٢) .
وأنزل كتاباً هو القرآن لا يمكن أن يأتي بمثله إنس ولا جان
(الإسراء - ٨٨) (٣) .

وفي العصر الحاضر تمثل الخطأ الأكبر في عدم وصول المستوى
الفكري الحالي للمستوى الفكري الممثل في القرآن الكريم ؛ وجميع
الأخطاء التي تقع فيها في عصرنا هذا إنما تكمن جذورها في تقصير
معين وليذا غاؤل عمل يخطئ به المركز الإسلامي المقترح هو أن
يستعمل أعظم سبل البحث لإثبات التعاليم الإسلامية على مستوى
علمي رفيع ؛ ويجب أن يكون هذا الهدف هو أول ما يقوم به وأن يكون
الهدف الرئيسي لجميع أقسامه .

وللعمل العلمي جانبان معينان يمكن استخلاصهما من الآية
الكريمة التالية :

- ١: بشرى الله قوله تعالى : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب بللى عليهم » .
- ٢: بشرى الله قوله تعالى : « اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم » .
- ٣: بشرى الله قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن لئن لم ينته
هذا القرآن لا ينتون بهتة ولو كان بعضهم ليمس ظهوراً » .

« قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » (١) .

يفهم من الآية الكريمة أن للاستدلال أسلوبين رئيسيين : الكتاب السماوى المعتمد ؛ والعلم المسلم به لدى علماء الزمان . هذان هما الأسلوبان اللذان يدعمان دعوة الحق ، فمن ناحية التعليمات القرآنية يجب إيضاح الشئ كما هو ، ومن الناحية الأخرى يجب التدليل على الإسلام طبعا للمستوى العلمى الشائع ، وعنوان الشئ الأول هو . إثبات الدين وعنوان الشئ الثانى هو : علم الكلام ، وتوجد كتابات كثيرة لا تعد ولا تحصى لإثبات التعليمات الدينية إلا أنها كلها تتم بأسلوب تقليدى . ولا تزال هناك ضرورة لإعادة صياغتها طبقا للمقتضيات والمستلزمات الفكرية الحديثة .

والاهتمام الأول هنا يجب أن يوجه إلى القرآن الكريم ، فالحقيقة أن القرآن هو أكثر الأمور المؤثرة فى مجال الدعوة الإسلامية ، وأى كلام أو خطاب لا يمكن أن يبدل أو يغير هذا الكلام الربانى ، إلا أن القرآن الكريم يكون مؤثرا بالنسبة لأولئك الأشخاص الذين يعرفون لغة القرآن ، وكان داعية الإسلام الأول يعرف هذا السر جيدا ، ومن هنا فحين تخطى الإسلام نطاق الجزيرة العربية حاول أن يبذل كل جهد حتى تتعلم الأمم الأخرى اللغة العربية ، وكانت الأمم التى تسكن خارج الجزيرة العربية تتكلم آنذاك لغات مختلفة ، كانت اللغة الآرامية تروج فى العراق والشام ، واللغة القبطية فى مصر واللغة البربرية فى بلاد المغرب (إفريقية) ، وبجهود العرب انتهت هذه اللغات خلال قرن من الزمان وأصبحت المنطقة كلها تتكلم اللغة العربية وفى الفترة التالية،

(١) الاحقاف : ٤ .

وحيث طرأ الجمود على الأمم المسلمة مات الهدف الأعلى ، ولا شك أن أبحاث جافة عقيمة عن مثل هذه القضايا بدأت تفرض نفسها وعلى سبيل المثال ، هل تجوز ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى أم لا ؟ ! هل تجوز الصلاة بلغة أخرى غير العربية أم لا ؟ ! هل يمكن إلقاء خطبة الجمعة ، بلغة أخرى غير العربية أم لا ؟ ! وغيرها من أبحاث عقيمة .
ومن حسن الحظ أن تنال اللغة العربية حظاً من الاهتمام في زماننا الحالي لعدة أسباب . كما أن السياسة النفطية أصبحت ذات تأثير قوى لدرجة جعلت اللغة العربية هي اللغة الخاضعة المعترف بها في الأمم المتحدة . كما أن الاتجاه لفهم التاريخ القديم أصوله وفكره ، ودراسة الأديان كلها من البداية ، جعل الناس يتجهون للغة العربية ، وقد تم الاعتراف بأهمية اللغة العربية التي يتكلم بها أكثر من مائة مليون والتي تعد اللغة الرسمية لأكثر من عشرين بلداً ، ووصل الاهتمام بها إلى مجال السياسة الخارجية لبلدان العالم فقد أنبتت الثروة العربية لدى جميع الأمم جاذبية جديدة للغة العربية .

وعلىنا أن نستفيد من هذه الفرص الجديدة بكل قوة وذلك من أجل إثراء اللغة العربية . والأساليب الحديثة سوف تكون أكثر عوناً لنا ! فقد ظهرت أساليب جديدة لتعليم اللغات تمكن الإنسان من معرفة أية لغة بسرعة بالقدر الذي يحتاجه في عدة أسابيع فقط ، وعلىنا أن نأخذ بهذه الأساليب لنشر اللغة العربية ، وعلىنا أن نترك تماماً الطرق الدقيانوسية القديمة .

وهناك ضرورة أخرى تتمثل في إعداد كتاب بمختلف اللغات عن التعاليم القرآنية وسيرة الرسول ﷺ وأحوال الصحابة والتاريخ الإسلامى ويكتب بطريقة مبسطة لا تتضمن سرداً إنشائياً أو حشوياً إضافياً ، بالإضافة إلى تجنب الأسلوب الأدبي المصطنع . واللغة التي

تظهر التعصب العقدي ، ويمكن فقط أن يقوم بهذه المهمة أولئك الناس الذين درسوا أسلوب البحث المعاصر ولهم قدرة وتمكن بأسلوب الكتابة الجديد .

والأمر الثانى الواجب القيام به هو إظهار الإسلام بطريقة علمية، وليس معنى هذا تأليف الكتب ونشرها ، إن الإظهار العلمى للإسلام يحل حقيقة فى عصرنا هذا محل المعجزة النبوية ولهذا فهو أمر مفيد حين يتم على مستوى « الإعجاز » ، والعمل الذى يتم بدرجة أقل من هذا المستوى لا يمكن أن يسد ضرورة نشر وتبليغ دين الحق ، لا بطريقة علمية ولا بأية طريقة أخرى .

يفهم من القرآن الكريم أن كل من أرسلهم الله من أنبياء ورسول ، أرسلوا بلسان تلك الأمم التى وجهوا إليها (إبراهيم - ٤) (١) وليس المقصود بلسان القوم اللغة فقط بل الأسلوب أيضاً .

ومعنى هذا أن الدعوة الإسلامية حين قدمت إلى تلك الأمة ، قدمت بمستوى الوقت الذى ظهرت فيه فجاءت على مستوى الأمة من الناحية اللغوية والبيانية ، وكانت تتطابق مع ذوقهم العلمى ، ومع طريقتهم الاستدلالية ، وطريقتهم فى التعبير ومعيارهم الفكرى ، وعلى سبيل المثال فزماننا هذا هو زمان الاستدلال التحليلى فاذا ما قام شخص بإلقاء خطبة حماسية ، وقدم استدلالاته بالشعر وبأسلوب تمثيلى فإن هذا يمثل مفارقة غير مقبولة بمفهوم العصر Anachronism ولا يمكن أن يقوم الاستدلال هكذا على المستوى البيانى للقرآن .

والأصول الضرورية الأخرى تستمد من سنة الله تبارك وتعالى التى وضعها فى سلسلة « المعجزات » ، فالهدف الأساسى للمعجزة سلب

(١) بشرى الى قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قوميه ليبين لهم » .

ما يرتكز عليه الباطل من ركائز يعتمد عليها في ذلك الزمان • ومثال ذلك حين ألقى السحرة بحبالهم وعصيهم في مصر ، في يوم الزينة فأخذت تتلوى كالثعبان ، كان هذا في الحقيقة إعلانا لكبرياء الجماعة المعارضة لموسى عليه السلام ، وقامت عصا موسى عليه السلام بالقضاء على « إفكهم » حين مرت فوق حبالهم بعد أن أصبحت حين تسعى فقضت على حركتها وشكلها الثعباني :

« فإذا هي تأنف ما يأنفون • فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون » (١) •

وهكذا في زماننا الحاضر رفعت دعوى ضد الدين على أساس علمي وعلى أساس تحقيقي وعلى علماء الدين ورافعي رأيتهم القيام بدعم وتعزيد دين الحق عن طريق ردود علمية تقوم على أساس البحث والتحقيق ، وعليهم أن يبرهنوا على ضعف استدلالات الفريق الثاني حتى يهدموا حائطهم العلمي وحتى يثبتوا صدق دين الحق •

وأهم هدف للمركز الإسلامي هو إعداد أشخاص على أساس مقتضيات ومستلزمات العصر الحديث ولا يمكن أن يتحقق هذا عن طريق معسكرات التربية المعروفة حاليا ، بل يستلزم الأمر جامعة على أحدث أسلوب وطراز ، وأن تشرف على أبحاث عظيمة يمكن أن تواجه الأفكار الحديثة التي تتعارض مع الإسلام ، ومن هنا يمكن تخريج رجال يواجهون هذه الأفكار ، وتتم تربيتهم في ظل أعظم الأبحاث أيضاً •

ويذكر القرآن الكريم فيما يتعلق بموسى عليه السلام أنه مر بمراحل مختلفة وبتجارب عديدة ابتداء من حياته داخل قصر فرعون وحتى وصوله للحياة الصحراوية • وحين وصل إلى مرحلة النضج

وإلى الدرجة المقررة حينئذ أسندت إليه مسئولية النبوة طبقاً للسنة الإلهية فاستطاع أن يؤديها على خير وجه «ثم جئت على قدر يا موسى» (١) هذه هي الطريقة التي اختارها الله لجميع أنبيائه .

ويلزم للدعاة والمبلغين في الفترة التالية أيضاً أن يعدوا أنفسهم طبقاً لهذه الأصول . فعليهم أن يتعلموا لغة تلك البلاد التي يقومون بدعوة أهلها .

كان زيد بن ثابت الأنصاري يعرف ست لغات : العربية والفارسية والرومية والقبطية والحبشية والسريانية ، وكان من واجبه دراسة الأديان دراسة مقارنة حتى إنه كان حين يعرض الإسلام أمام أهل الديانات الأخرى - كان يعرف كيف يوضحه لهم بأسلوب رائع وبحجة دامغة .

وعلى الداعية أيضاً أن يكون على معرفة بالعلوم التي تتعلق بالدين سواء بطريقة إيجابية أو سلبية حتى يمكن أن ينتبه إلى الخلفية الذهنية للمخاطب أثناء خطابه معه .

هذه هي الأمور اللازمة التي تصل بالداعية إلى المقام الذي يجعله كفواً لعمله حين يدعو الناس إلى دين الحق .

لقد قامت الإرساليات المسيحية بوضع جميع الإمكانيات المذهلة من أجل تربية دعائها ، وعلى سبيل المثال إطلاعهم بطريقة كاملة على أحوال المسيحيين في الاتحاد السوفيتي ، فقد أقامت هذه الإرساليات في أمريكا في منطقتة نائية مدينة ، كانت نموذجاً كاملاً لمدينة روسية ، وفي المدينة المصطنعة كانت اللغة الروسية هي لغة التخاطب ، كما كان

(١) طه ٤٠ .

انطعام والشراب والحياة وكل شيء على الطريقة الروسية ، وهكذا تم تدريب وتربية عدد من القساوسة تربيته عملية حتى أصبحوا من ناحية الشكل والصورة ، ومن ناحية اللغة والعادات والتقاليد ومن كل ناحية - يبدون وكأنهم من أهل روسيا نفسها ، ثم تم تدريبهم على قياد الطائرات والسقوط بالمظلات ، وبعد أن تدربوا على كل هذا ونجحوا فيه ، تم إسقاطهم في صمت كامل من الطائرات في المنطقة الروسية حيث عاشوا هناك لفترة محددة في المدينة الروسية وداخل هذا « الستار الحديدي » درسوا حالة المسيحيين ، وللقيام بمثل هذا العمل الفدائي تم أيضا تدريبهم على جغرافية الاتحاد السوفيتي ، وبعد استكمال هؤلاء القساوسة لبرنامجهم ، تم إنزال الطائرات مرة ثانية في منطقة روسية بعيدة ، وحسب الاتفاق ركبوا الطائرة وعادوا إلى مرتزهم مرة ثانية .

وفي داخل غابات بيرو الشسيحة توجد عدة قبائل لا تزال تعيش حالة من البربرية ، تقوم بقتل أي إنسان متحضر إذا ما اقترب منهم . وضع النصارى برنامجا لتبليغهم رسالة المسيح ، فأقاموا لهذا هيئة وبدأوا في تربية الناس ، ووصل هؤلاء الناس إلى هذه المناطق ، وتم إسقاطهم بالمظلات ، وفي البداية قامت هذه القبائل بقتل العديد من المبشرين المسيحيين ، إلا أنهم استمروا في محاولاتهم ، تعلموا لغتهم ، ووضعوا لها قواعد وترجموا إليها الإنجيل وأقاموا في هذه الغابات مطارا وإذاعة ومستشفى وكلية ومطبعة، أقاموا عالما جديدا وفي النهاية تحولت هذه القبائل إلى قبائل متحضرة ودخلت المسيحية .

ذلك هو مستوى التربية الذي وصل إليه دعاة الأديان الأخرى ، فطالما لا نقيم نظاما لتربية أفرادنا على مستوى طيب كهذا المستوى أو أطيب منه فلن يمكن للحركة الإسلامية أن تنجح في الوقت الحالي ، ولا يمكن لمحاولة أقل من ذلك أن تبريء ذمتنا أمام الله .

ومع الاستعدادات السابقة فإن تعاون عامة المسلمين فى إطار المركز الإسلامى هو ضرورة واجبة من عدة جوانب نستخلصها فى ضوء القرآن والسنة .

١ - العمل الأول هو إحياء الإحساس داخل عامة المسلمين وهو الإحساس بأن المسلم ليس كأى إنسان عادى بل هو إنسان ينتمى إلى الأمة المحمدية ، وهذا الانتماء يفرض عليه مسئوليتين فى وقت واحد : الأولى أن يتبع فى حياته الخاصة سبيل الإيمان والإسلام ، والثانية أن يقضى حياته فى ظل هذا الإحساس أى يكون شاهد حق فى هذه الدنيا :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » (١) .

فالشخص الذى يعتقد الإسلام عليه مسئولية المضى على طريق « القسط » فى جميع معاملاته . وهو القسط الذى قرره الله للناس ، ولكن حين يصادفه رجل لم يتبع الإسلام بعد فإن هذه المسئولية تتخذ شكلاً أكثر دقة ، فلعله يقبل الإسلام ، وتزيد المسئولية أكثر فأكثر إذ يجب أن يتعامل فى ظل الإحساس بأنه نائب وممثل لله فى هذه الدنيا . وذلك لأن الناس سوف يطلعون من خلال عمله ومن خلال كلامه على ما يرضى الله وعلى السلوك الذى يسلكه الإنسان ليرضى ربه تماماً مثلاً يجب أن تكون الإشارات المعلقة على الطريق Sign Posts صحيحة تماماً لأنها تدل على الجهات التى يمضى إليها المسافر ، فإن لم نعمل كذلك فإن هيئة الطرق لا تكون لها قيمة . ومن هنا فيجب على مسلمى العالم أن يكونوا ممثلين للحق فى هذه الدنيا ، وفى الحالات العامة يمكن أن يكون تقصير المسامحة شيئاً يقبل الغفران . ولكن حين يكون الأهر متعلق بمواجهة غير المسلم فيجب على المسلمين بل من الضرورى أن يراعوا جميع الجوانب بمنتهى الحيطة والدقة حتى لا يعطوا صورة خاطئة لدين

الله أمام غير المسلم ، ففي الحياة العامة يمكن أن يغفر ذلك للمسلم « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » (١) • ولكن حين يتعلق الأمر بغير المسلم فإن الانحراف عن الحق إنما هو تماما ككسبادة الزور (الشرطان - ٧٢) (٢) وكسبادة الزور هي في نظر الله من أعظم الآثام •

٢ - اعتاد العرب أن يقيموا كل سنة وفي أماكن متفرقة مهرجانات واحتفالات قومية تجتمع فيها القبائل من كل ناحية ، فتعقد برامج للتسلية ولتجارة ، كما هو الحال في بعض المهرجانات اليوم . وفي كتب السيرة يرد ذكر مهرجانات (أسواق) عكاظ وذى المجاز ومنى وغيرها ، وكان من بين الطرق التي اتبعتها نبي الإسلام في دعوته الذهاب إلى هذه المهرجانات ودعوة الناس إلى الدين الحق • ويقول أحد الصحابة في الفترة الأولى ، رأيت النبي ﷺ في سوق ذى المجاز وكان يمر في السوق مرتديا عباءة حمراء ويقول : « أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » •

ويمكن اتباع هذه الطريقة في زماننا الحالي ، وذلك بوضع مقاصف في أماكن الاجتماعات والمعارض والمهرجانات المختلفة ، توضع عليها مختلف الكتب الإسلامية بمختلف اللغات ، توزع مجاناً ، ويمكن إسماع الناس الرسائل المبسطة بأسلوب طيب شيق عن طريق مكبرات الصوت . كما يمكن إنشاء زوايا مكتبية ، ويمكن استحداث أساليب جديدة في أماكن تجمع الناس لتحقيق هذا الهدف الذي كان يحققه النبي من خلال أسواق العرب ومهرجاناتهم القديمة •

(١) النجم ٢٢ •

(٢) بشر إلى قوله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً » .

٣ - يذكر في التاريخ أن النبي ﷺ أرسل خالدًا إلى قبيلة بني حارث - ولم تكن على الإسلام - حتى يبلغها رسالة الإسلام • ووصل خالد ورفاقه إلى نجران موطن قبيلة بني حارث • وكانوا ركوباً • فآخذوا يطوفون بارجاء نجران جميعها ويتولون بصوت عال : « أيها الناس أسلموا تسلموا » (١) • وكان يطلق على مثل هذا الوفد مصطلح « سرية » • وبعد الهجرة أرسلت مثل هذه السرايا إلى السكان غير المسلمين ، وكانوا يذهبون في شكل جماعات يدعون الناس إلى الإسلام بأسلوب بسيط • ويمكن اتباع هذه الطريقة بما يتوافق مع الظروف الحالية وتستعمل في تعريف الناس بالإسلام •

وعلى سبيل المثال يمكن اختيار مدينة أو حي غير مسلم • ويمكن دراسة الظروف هناك وطبقاً لهذه الظروف تتم تربية جماعة مسلمة • يعين لها أمير • يكون عليه مهمة الكلام ويبقى بقية الناس صامتين يدعون له • تصل هذه القافلة إلى المدينة المقررة فتصلى قبل كل شيء ركعتين ويدعو الجميع أن يعينهم الله على تحقيق مهمتهم • وتخرج القافلة - بعد ذلك - تحمل إعلاناً طيباً عن اجتماع في مكان معين في وقت محدد • ويدعى إلى الاجتماع الرجال والنساء جميعاً • وتكتب على البطاقات التي توزع على المجتمعين عبارة بسيطة مناسبة مثل :

« والله يدعوا إلى دار السلام » (٢)

(and God calls to the home of peace)

يقدم أمير الجماعة البطاقة إلى رب الأسرة ويتحدث معه حديثاً مختصراً • ثم يدعو للاشتراك في الاجتماع في المكان والزمان المحدد • وتصل الدعوة إلى كل بيت في المنطقة ويجتمع ممثلوا الوفد يؤدون

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٥ ص ٩٨ •

(٢) بونس ٢٥ •

الصلاة هناك ، ويذكرون الله ويدعونه ، يتلون القرآن : ولا يكون الأمر كما يجرى عادة حين يجتمع الناس وينشغل كل منهم في حديث خاص مع الآخر بل بعم الذكر والعبادة والدعاء والتلاوة المكان ، فيفيض على المكان نور رباني وجو من تسخير الباطن . وتتضح من كلام المتحدثين خصوصية الصدق حتى يكون كلامهم مصداقاً لقوله تعالى : « **وقل لهم في أنفسهم قولا بليفاً** » (١) . ثم يقوم الخطيب بإلقاء خطابه في النهاية بهذه المناسبة ويكون فيه نموذجاً لكل داعية مسلم .

٤ - وكما يوجد في زماننا الحاضر حالات أو حدائق للاجتماعات . كان هناك أيضا لدى العرب القدامى جبل الصفا ، وهو في الحقيقة هضبة يقف عليها الإنسان ، وينادي فيجتمع الناس فيلقى فيهم خطابه .

أخرج أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لما أنزل الله (**وأندر عشيرتك الأقربين**) أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى : « يا صباحاه » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيئ إليه وبين رجل يبعث رسوله : فقال رسول الله ﷺ يا بني عبد المطلب ! يا بني فهر ! يا بني كعب ! أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتهموني ؟ قالوا : نعم . قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

وهكذا يمكن أن نستخدم الأماكن الحالية كما كان يستخدم « الصفا » لإبلاغ دعوة الحق ، ويمكن أن تعقد مثل هذه الاجتماعات التي تعطى فيها الفرصة لأهل جميع الديانات الأخرى حتى يقدموا تعريفاً بأديانهم ويوضحوا أصولهم ، ثم يقف ممثل الإسلام في النهاية ليعبر عن رأيه بطريقة علمية سليمة ، يشرح ما هو الإسلام ، وماذا

(١) النساء ، ٦٢ .

يجب أن يفعل المسلم . وهذا الأسلوب له فائدة خاصة . لأن الخطاب فيه خطاب غير شخصي . وهكذا يمكن للإنسان أن يقدم الدعوة إلى الإسلام بطريقة مباشرة . ولكن في الحديث الشخصي يشعر الداعية بصورة عامة بقدر من التكلف في دعوته للإسلام مباشرة ، وفي البلاد التي يسيطر فيها المسلمون على الوسائل الاجتماعية يمكن الاستفادة على نطاق واسع منها سواء باستخدام الإذاعة الإسلامية مثلما أنشأت الإرساليات المسيحية إذاعة باسم « صوت الإنجيل » في إفريقيا لتؤدي فريضة التبشير بالمسيحية .

٥ - وفي المركز الإسلامي يقام متحف إسلامي تجمع فيه الآثار التاريخية الإسلامية وذلك في صورة وقائع وأحداث تاريخية ، ومن المعروف أن المسيح عليه السلام ومن سبقه من الأنبياء لا يوجد لهم أي تسجيل تاريخي معاصر ، ولهذا اعتبر هؤلاء الأنبياء شخصيات أسطورية ، وليست شخصيات تاريخية . أما خاتم الأنبياء ﷺ فجميع الوثائق التاريخية وأحداث زمانه وحياته لاتزال باقية وثابتة حتى الآن . وتجمع في هذا المتحف كتب المؤرخين المعاصرين له . تلك التي كتبت باللغة الآرامية واللغات الأخرى والتي تذكر صراحة « النبي الإسماعيلي » وكذلك ما أرسله النبي من رسائل إلى ملوك زمانه . ويمكن الحصول على صور لهذه الرسائل ، كما أن أول نسخة من نسخ القرآن محفوظة في مكتبة طشقند وهي النسخة التي رتبت تحت إشراف عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويمكن الحصول على صورتها ، وهناك أشياء أخرى من آثار النبي لاتزال موجودة ، حتى تسعره وملابسه والأشياء التي كان يستعملها ، وهكذا توجد آثار تاريخية بحالتها الأصلية أو بصورتها ، فإذا أنشئ هذا المتحف على مستوى يليق فسوف يكون مركزاً يقدم شهادة تاريخية ، يفد عليه الناس من جميع بقاع الأرض ، فالوثائق المتعلقة بالتاريخ الديني تحمل قيمة أهم

وأعظم من النوادر الأثرية التي جمعت في روما والتي يفد لرؤيتها
الناس من جميع أنحاء العالم .

٦ - إذا ما أنشئ مثل هذا المركز وتضمن جميع الأقسام السابقة
الذكر حيث تقام فيه الصلاة ويقام فيه ذكر الله والابتهاال إليه ، ويتضمن
مكتبة ومتحفاً إسلامياً ، وجميع النشاطات الإسلامية الأخرى من كل
نوع ، فإنه يمكن أن تتحقق من خلالها أهم الفوائد ، وعلى سبيل المثال
يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله
ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » (١) .

يفهم من هذه الآية أن الله تبارك وتعالى يريد أن يكون « للإسلام
مأمن » في مقابل « مأمن الشرك » حيث يأتي الناس ليشاهدوا الإسلام
ومظاهرة ويستمعوا إلى رسالة الله ، وسيقوم المركز الإسلامي بجميع
شعبه بأداء هذه الخدمة ، حتى إنه إذا وجدت الوسائل والسبل حمل
الناس إليه حملاً وبعد أن يشاركوا في برنامج يعادون إلى « مأمنهم » .

٧ - في القرن الأول كانت فطرة العرب بمثابة أرض خصبة
للإسلام . وهذه الفطرة استبدل بها المجتمع العلمي في العصر الحاضر .
وحادثة « ووترجيت » المشهورة في أمريكا (١٩٧٣) ، وبعدها محاسبة
رئيس أكبر دولة « ريتشارد نيكسون » وهو على كرسى الحكم بأشد
صورة ، ثم استقالته في النهاية في أغسطس سنة ١٩٧٤ ، مثل هذه
الحادثة إما أن نجدها في المجتمع الإسلامي أو في المجتمع العلمي ؛
فالحقيقة أن المجتمع العلمي يصل إلى هذه الدرجة من الكفاءة التي
نطلق عليها من غير قصد « الفطرة » ومثل هذا المجتمع يتكون وينمو

(١) التوبة ٦ .

فى تلك البلاد نتيجة للتعلم والتربية العلمية • فى تلك البلاد إذا ما قدمت الدعوة إلى دين الحق مع مراعاة مزاج أهل البلاد • فإنه من المؤكد أن يجد هذا الدين صدى فى قلوب الغالبية العظمى منهم • فالدقة مع الواقعية تحتل درجة هامة فى العلوم • ولهذا يكون تأثيرها على العاملين فى مجال العلوم أكثر وأعمق فيصل إلى داخلهم • إذ يظهر لديهم تلقائياً مزاج الفكر الدقيق • وكان يطلق على الفلسفة قديماً « ملكة العلوم » إلا أنه فى العصر الحديث لم تعد الفلسفة تتمتع بهذه الأهمية لأن عصرنا هذا هو عصر الدقة الفنية • وأسلوب الفلسفة لا يمكن بحال من الأحوال أن يصل إلى مستوى الكفاءة الفنية • وكان من نتيجة تأثير أسلوب التفكير العلمى انتهاء الاستشراق العربى الذى ظهر قديماً • إن هذا المزاج من الفكر الواقعى يتناسب تماماً مع تبليغ دين الحق •

إن المجتمع العلمى يقدم أرضاً خصبة تتفق مع الدعوة إلى الإسلام • ولا ننسى أنه فى هذا المجتمع أيضاً تواجهنا مشكلة • فالعمل العلمى يتم عادة عن طريق التجارب الخارجية • ومن هنا فلا يكفى للتأثير فى المجتمع تقديم الاستدلال الفكرى والنظرى • فأهل هذا المجتمع يحتاجون — مع سماعهم للدرس الروحى — إلى تجربة روحانية يمكن أن يفهموا من خلالها بصورة عملية ما هى الروحانية • وكيف يمكن تنميتها • ويرى بعض الناس أن حل هذا الأمر يكون بالتصوف والأذكار • إلا أن هذه كلها طرق غير مشروعة ولا يمكن إحياء السنة عن طريق البدعة •

وقد ورد إلى خاطرى هذا السؤال وأنا أعد هذا الكتاب بين يومى ١٣ و ١٤ يولية سنة ١٩٧٤ وقد رأيت حينئذ • وكنت فى « دلهى » رأيت أننى مع بعض الناس من غير المسلمين • وأننى أسرح لهم عن الإسلام • وكانوا مثقفين ثقافة عالية • ولهذا كانوا يحتاجون إلى التمكن من معرفة

صدق الإسلام بالتجربة ، فأجبتهم بكل ثقة أن هذا أمر ممكن . وله شكل واحد ، وهو أن يجربوا الصلاة : وهي أهم ركن من أركان الإسلام العملية . وكان الحديث باللغة الإنجليزية ونهضت من نومي وتذكرت هذه الفقرة :

Without being a muslim you can experience Namaz

« يمكن أن تجرب الصلاة بدون أن تكون مسلماً » . وبعدها طلبت من رفاقي الوضوء وقلت لهم إنني سأقوم بالصلاة على أن يققوا ويرددوا معي ما أقول .

بعد هذا الحلم فكرت كثيراً فعرفت أن الصلاة لم تكن لها فائدة نظرية فقط بل كانت لها فائدتها العلمية أيضاً عبر التاريخ وخلال مرات كثيرة . فيروي أن إسلام « هند جكرخوار » كان سببه الأول الصلاة . ويكتب أحد علماء التاريخ الأفريقي : « لقد انتشر الإسلام في وسط أفريقيا عن طريق السياح والتجار العرب . وكانت الصلاة هي أكبر معجزة تسببت في نشر الإسلام في أفريقيا حيث يقف الناس جميعاً خلف إمام واحد يبدو على وجوههم الخوف من الله والرهبة منه فكان الناس يتحIRON ويندمون على عبادتهم للأصنام . ومن ناحية أخرى فالعبادة الإسلامية كانت تجذب إليها الناس . وكانت النتيجة أن الصلاة فقط كانت سبباً في جذب معظم سكان أفريقيا الوسطى إلى كنف الإسلام » (١) .

ويكتب محمد حسنين هيكل (رئيس تحرير جريدة الأهرام سابقاً) أن جمال عبد الناصر ذهب لأول مرة إلى روسيا وفي لقاءاته بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٥٨ أظهر رئيس وزراء روسيا خروتشوف شوقاً واهتماماً بالصلاة :

« كان لدى خروتشوف شغف كبير بمشاهدة منظر صلاة المسلمين .
وبعد تناول طعام الغداء فى بيت خروتشوف شرع ناصر فى الذهاب إلى
مسجد موسكو للصلاة ، فأخذ خروتشوف يسأله العديد من الأسئلة .
وكان ناصر مشغولاً بالوضوء بينما كان خروتشوف يقف وهو يمسك له
المنشفة ، لقد أظهر احتراماً وتقديساً كبيراً (١) .

لقد اشترى بلد عربى جزيرة بجوار الساحل الأمريكى وجعلها
مقراً للهو . ولبت هناك بلداً إسلامياً اهتم بالأمر فحصل على قطعة
كبيرة من الأرض فى العالم الغربى فأقام عليها مركزاً إسلامياً على
مستوى رفيع يضم مسجداً بالإضافة إلى بقية الأقسام الأخرى التى
سبق ذكرها . وتعطى الفرصة لغير المسلمين أيضاً ليقوموا بأداء الصلاة
مع المسلمين بدون عاطفة أو تعاطف يصلون عدة ركعات على
سبيل التجربة ، وهناك أمل كبير أن تثبت هذه التجربة فائدتها
ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وهذا القول ربما
لا يجانبه الصواب وهو أن فتح العالم الغربى - الذى يبحث عنه
قادتنا منذ قرن - إنما يكمن فى « الصلاة » كأعظم وسيلة للتأثير فيه .

الإسكانيات التجريدية

قال بريدلى (١٨٤٦ - ١٩٢٤) إن العالم فى حاجة إلى دين جديد . نحن فى حاجة إلى عقيدة تحدد المصالح الإنسانية كلها ، وتقيمها على أساس تشريعى وتناسب ضرورى . وتقدم للانسان شعوراً واحساساً يمكن أن يعتمد عليه بكل ثقة « (١) » .

ولم يكف الفيلسوف الإنجليزى يعان عن حاجة العالم إلى الدين الجديد فى الربع الأول من القرن الحالى حتى أعلن العالم الفرنسى دانييل دوناواى (١٨٨٣ - ١٩٤٧) بدءاً بقليل عن توبته عن الإنحداد ، وعودته إلى الدين . ونشر كتابه الشهير Humandistiny فكان ذلك علامة على عودة الإنسان إلى حظيرة الدين ، والآن وفى نهاية القرن العشرين ظهر هذا الأمر أكثر وضوحاً ، وزاد هذا الإحساس بعد التجارب المادية . إن فشل محاولات الإصلاح الاجتماعى من خلال القوانين الوضعية والتدابير الدنيوية قد أجبر العقول التى ظلت تنأجم الدين أن تلين أكثر ، حتى إننا اليوم نشهد حركة رد فعل مضادة تهدف إلى العودة إلى الدين . وقد ظهرت هذه الحركة فى العالم كله .

وهذا جيل امريكا الجديد . الذى آمن آباءؤه وآمن اجداده بنظريات داروين وفرويد، يبحث الآن عن راحته وهدوئه فى حركة « ثورة المسيح Jeta's Revolution وحركة « صحوة كرشنا » Krishna Consciousness والشباب اليابانى وصل إلى قمة الرقى ، ويشعر بالفراغ نظراً لعدم وجود قيم روحية ، ويقولون إن ثقافتهم ثقافة تجارية لا تقدم لهم سوى القيم التجارية Merchant values فقط .

وقد وصل الأمر إلى أن الجين الجديد في روسيا ، وهو الذى نشأ وتربى في أحضان المجتمع الملحد ، بدأ الاتجاه ناحية الدين • وفى اجتماع عقد لضباط هيئة معارضة الأديان في موسكو بالاتحاد السوفيتى قال أحد الضباط وهو يذكر ببطء الإجراءات التى تتخذ ضد الدين : « إن عملنا فى مواجهة الدين يتحرك ببطء المحرك البخارى » •

وسمعه ضابط آخر فقال :

« محرك بخارى ! إنه الآن لم يكشف حتى العجلة » •

إن جميع النظريات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر فى مواجهة الدين والنيل منه قد أثبتت الحقائق المكتشفة عدم صحتها بطريقة تدعو إلى الدهشة ؛ فنظرية الارتقاء التى فهمت على أنها بديل عن الخالق هى اليوم بلا دليل ، وعلى سبيل المثال اكتشفت أساليب وطرق يمكن عن طريقها معرفة عمر الأرض بدقة ، إلا أن العمر الذى ذكرته هذه النظريات ضئيل جداً ، ولا يمكن قياسه بالنسبة لعملية الارتقاء للنماذج الموجودة فى الحياة الآن كما تقترح نظرية الارتقاء •

وقد قام عالمان ممتازان من علماء البيولوجيا بتقديم نظرية جديدة ، وهما فرانسيس كريك Francis Crick وزميلة لزللى أورجل Leslie Orgel اللذان فازا بجائزة نوبل عن أبحاثهما المشتركة التى أثبتا فيها أنه لا يمكن تحديد أو تقرير أن مادة الأرض قد خضعت لنظرية الارتقاء ؛ فمن بين الأشياء المكونة للأرض مادة الموليبيدينم Molybdenum ولها دور فى النظام البيولوجى • والنظام الإنزيمى يعتمد فى عمله على هذا المعدن ، وهذا المعدن - رغم أهميته الكبيرة غير العادية - يوجد بنسبة « اثنين فى الألف » من كل المعادن ، ومن ناحية أخرى فلا تحل المعادن الأخرى من مثل الكرومىم والنيكل ، وهى تشبه فى

١٦ - واقمنا ومستقبلنا

حصائصها « الموليبيدينم » وتصل نسبتها بين معادن الأرض إلى اثنين في المائة .

لا تصل هذه المعادن إلى أهمية المعدن المذكور وذلك بالنسبة للنظام البيولوجي ، ويقول كريك وأورجل إن التركيب الكيميائي للأرض كان يجب أن ينعكس على تكوين الحيوانات التي تكونت على الأرض . ولما كان هذا أمراً لم يمض على إطلاقه ، فمن هنا يفترض العالمان أن هناك في الفضاء الأعلى للحياة أماكن معمرة أرسلت إلى الأرض من لادن حضارة أخرى راقية ، وكانت هذه القراءات هي الأساس العلمي الذي بنى عليه الكيميائي السويدي أرينيس نظرية *Pan-permia* (١) .

مثل هذه الأشياء التي لا حصر لها ، وجدت في زماننا الحالي ، وقربت تماماً بين العلم أو بين الفكر الجديد وبين الدين ، وقد تم اكتشاف أمور أخرى عديدة في جميع أفرع العلم في العصر الحديث تثبت صدق المعتقدات الإسلامية بطريقة حيرت العقول ، وهزت الذهن الإنساني .

لقد آذى العرب القدماء المعارضون لكلمة التوحيد ، آذوا الناطقين بهذه الكلمة إيذاء جعلهم لا يتمكنون حتى من الجلوس ، وأجبروهم على ترديد كلمات « اللات والعزى إلهان من دون الله » . وقد أثبت تطور العلم اليوم أن هذه الأمور - أي الشرك بالله - لا أساس لها من الصحة ، ففي العلم الحديث أصبح الإيمان بربوبية أي كائن من الكائنات أمراً لا معنى له ، فلا وجود للشرك في دنيا العاوم ، فإذا وجد عقل شجاع قادر على الاختيار وإذا وجد معه علم عميق حديث .

(١) تعنى هذه النظرية أن الحياة جاءت من خارج الكرة الأرضية .

فإن إثبات الدين اليوم إنما يتم على مستوى عال ويكتسح جميع النظم
الفكرية الحديثة .

١ - ان أهم الاكتشافات العلمية الحديثة من وجهة النظر
الإسلامية هي : الأسلوب المنهجي الحديث ؛ فحتى بداية القرن
العشرين كان من الضروري لإثبات صحة أى استدلال أن تكون هناك
علاقة قرابة أو علاقة مشتركة بين الدعوى والشئ الذى يدعى فى
حقه ، تماماً كالعلاقة بين مفتاح الكهرباء وبين المصباح الكهربائى المتصل
به . وبعبارة أخرى يلزم لإثبات واقعية نظرية ما أن تكون قابلة للعرض
والإعادة ؛ لكن هذا التصور انتهى الآن ؛ فالموقف العلمى اليوم هو
أنه إذا وجدت الحقائق أمكن عن طريقها أن يستنبط العالم نظريته ؛
ويمكن الاعتراف بهذه النظرية المستنبطة بطريقة علمية كواقع ، وطبقاً
لهذا المعيار الاستدلالى الحديث تمت دعوى نظرية الارتقاء لأنه مهما
كانت غير مشاهدة إلا أن علماء الأحياء اكتشفوا حقائق تثبت الارتقاء
كاستنباط علمى .

وانطلاقاً من هذا المعيار الاستدلالى فإن الاكتشافات العلمية
الجديدة تصل بالإنسان إلى أمر هام جداً من وجهة النظر الإسلامية ؛
فحتى قبل خمسين سنة لم يكن من الممكن لنا أن نثبت المعتقدات الدينية
على مستوى (الاستدلال العلمى) لأن العلم فى ذلك الوقت كان يعترف
فقط بالحقائق المشاهدة . ولم يكن هناك أى مكان داخل المجال العلمى
للحقائق المستنبطة ؛ ولكن الاستدلالات التى يقدمها القرآن الكريم
للتعبير عن حقائق العالم اللامحسوسة ؛ عن طريق واقعات العالم
المحسوسة هى على الأقل استدالات علمية خالصة وقائمة على أصول
ثابتة . ولم يكن من الممكن - قبل نصف قرن - أن يقوم أحد بالاعتراف
بهذا الأمر كاستدلال علمى ، وهذا مجال واسع واستغلاله يمكن أن
يكون بمثابة قوة كبيرة تعضد الإسلام فى ساحات النقاش وعلم الكلام .

٢ - والمسائل العقلية التي راجت في زمان ابن رشد (١١٣٠ - ١١٩٨) كان إطارها قائما على المنطق القياسي لأرسطو ، وقد شاهد ابن رشد الكائنات من خلال إطار هذه المسائل العقلية القياسية ، فلم يتقبلها عقله ، فكيف ينكر قدم المادة ؟ ! لقد آمن بأن المادة قديمة وعلى أساس هذا الإيمان وضع أساس فلسفته الإلهية ، ولكن الحقيقة أنه بعد الإيمان بقدم المادة لا يمكن أن يبقى هناك أساس حقيقي للالوهيات؛ فنظرية قدم المادة تنكر تماماً خالق الخلق ومبدعه ، وبعدها ، لن يبقى هناك مجال لله من حيث كونه « المحرك الأول » . والحقائق المكتشفة في زماننا الحالي وعلى سبيل المثال « القانون الثاني للحرارة الديناميكية » Second law of Thermodynamics قد أنهى تماماً وإلى الأبد حكاية قدم المادة . وهكذا فهناك حقائق عديدة تعطينا الفرصة للتمكن من وضع الأدلة الدامغة للعقائد الإسلامية على أسس بالغة الإحكام .

٣ - هناك قضية كبيرة أوجعت دماغ الإنسان آلاف السنين دون أن تجد حلاً ، وهي أن العلماء والحكماء الذين راهوا يحاولون حل لغز الكائنات عن طريق العقل ، وصلوا إلى أقصى حدود السمو العقلي ثم فشلوا في حل هذا اللغز ، وهذا هو السبب في أن الفلسفة حتى الآن ظلت تعمل على التشكيك فقط ، ولم تتمكن من الوصول بالإنسان إلى العقيدة الثابتة . وقد أوضح القرآن الكريم أن الإنسان أعطى علماً قليلاً (الإسراء - ٨٥) (١) ، والإنسان عن طريق بحثه العقلي يمكن أن يصل إلى حد معين من الحقيقة ، ولا يمكن أن يصل إلى نهاية الحقيقة ، ومحاولة الوصول إلى نهاية الحقيقة لن تنتهي إلا بالفشل ؛ ولهذا فالأمر الواقع هو أن يعتمد الإنسان بعد الوصول إلى هذا الحد

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وببأذنك عن الروح مثل الروح من أمر ربنا وما أوتيتم

من العلم الا قليلا » .

المعين على أسلوب الإلهام ، وكانت هاتان الوجهتان موضوع الأبحاث القياسية في الماضي . وفي الوقت الحاضر أعطى العلم قراره إلى جانب القرآن بطريقة مذهشة .

لقد اكتشف العلم أن الإنسان يمكن أن يصل بالأسلوب العقلي إلى العلم الجزئي فقط ، حتى أن نظرية « الجحور السوداء » Black Holes تدل على أن المادة لا يشاهد الإنسان منها إلا ثلاثة بالمائة فقط و ٩٧٪ من المادة لا يمكن أن يشاهده الإنسان ، وهذا الاكتشاف العلمي الجديد أعطانا الفرصة لنتمكن من إثبات موقف القرآن بأحدث الطرق العلمية وأن ندلل على معقولية الحقائق الإلهامية على مستوى علمي جديد . وما يثبت العلم الجديد من أمور يتطلب دائرة معارف ، ونحن هنا سنشير إلى بعضها على سبيل المثال :

✽ إن النتائج التي توصلت إليها العلوم أثناء البحث في عالم الفطرة أثبتت بطريقة محيرة أن هناك عقلا ما وراء هذه الكائنات ، هذا العقل هو الذي قام بخلقها وهو مدبرها ، والكائنات التي اكتشفها العلم كائنات لا تعمل في فراغ كما أنها منظمة تماما وبدقة مذهلة ، حتى أن الأمر يكون هراء إذا لم نسلم ونعترف بأن وراءها خالقا ومالكا .

✽ أهم نقاط الخلاف بين الإسلام والأديان الأخرى تتمثل في قضية الشرك ، التوحيد ، فيصعب على الناس تقبل فكرة أن هذه الدنيا التي تضم مختلف الأشكال والأنواع يمكن أن تكون لإله واحد لا شريك له . إلا أن الاكتشافات العلمية قد أكدت تماما قرارات العلم الأخيرة المتعلقة بهذه القضية جنبا إلى جنب مع نظرية التوحيد الإسلامية ، وهذه القرارات تعنى ان الكائنات ليست فقط واحدة من ناحية خضوعها كلها لقانون كلي واحد ، بل إن تحليل مادتها إلى

النهاية يثبت أنها من هذه الناحية واحدة أيضا أي الذرة أو الموجات الكهربائية غير المرئية .

* وصل العلم إلى آخر مراحلها فأثبت بما لا يدع مجالا للشك أن وسائلنا العلمية قد قدمت لنا فقط علما جزئيا من عالم الواقع فهو لا يمكن أن يحيط بكل شيء ، وهذا الأمر ليس صحيحا من ناحية وسائل المشاهدة الحالية فقط بل إن نوعية الحقائق هي من النوع الذي لا يمكن مشاهدته أبداً بما لدينا من كفاءات طبيعية محدودة . ويفهم من هذا أن الإنسان يحتاج إلى وسيلة أخرى لفهم عالم الحقائق بالإضافة إلى ما يمتلك من علوم حسية .

* اكتشف العلم ان الحقيقة في شكلها الأخير غير قابلة للمشاهدة ويمكن أن نستتبط مظاهرها فقط ، ولا يمكن أن نراها بطريقة مباشرة وهذا يؤكد تماما موقف الإسلام الذي يوضح أن الإنسان لا يمكن أن يشاهد الله أو عالم الآخرة في الحياة الدنيا ، ولا شك أن البحث في مظاهر الكون يمكن أن يؤدي إلى اكتشاف الحقيقة الإلهية .

* لقد أثبت العلم أن القانون الإلهي يفوق القانون الوضعي فيما يخص العلاقات الإنسانية وعلى سبيل المثال جعل الإسلام الرجال قوامين على النساء (النساء - ٣٤) (١) بينما أكد القانون الوضعي عكس هذا الأمر : المساواة بين الرجل والمرأة . إلا أنه ثبت بطريقة علمية خالصة أن المرأة أضعف من حيث الخلقة وأن الرجل هو الجنس الأقوى بالنسبة للمرأة .

كان أهم أساس وضع عليه فلاسفة العصر القديم معارضتهم للدين هو « مسألة القدم » أي أن الكائنات موجودة منذ الأزل ، فإذا

(١) بشرى الى تولى تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بينهم على بشرى وبما انفقوا من اموالهم » .

كانت موجودة منذ الأزل فما هي ضرورة الإيمان بالخالق ؟ ! إلا أن العلم الحديث قد أثبت أن عمر العالم محدود ، وهكذا تم القضاء على هذه النظرية تماماً . وبعدها بدأ الإنسان يعتمد على نظرية الارتقاء ، إلا أنه ثبت هنا أيضاً أن العمر المحدود للأرض لا يمكن أن يكون كافياً لخلق الإنسان الحالي طبقاً لنظرية الارتقاء في الخلق .

وقد أثبت العلم أن الحقائق الموجودة في الكائنات لا يمكن أن نقيم على أي منها الاستدلال المباشر أيضاً ، وما يمكن أن نفعله هو أن نصل إلى قرائن استنباطية عن طريق بعض المشاهدات الظاهرية ، ومن هنا نصل إلى وجود الحقيقة ، وهكذا فقد أثبت العلم صحة الاستدلال علمياً عن طريق الواسطة ، وهذا هو الأساس الذي قام عليه الاستدلال على الدين .

تقدم الإسلام نظرية خلافة الشورى في السياسة . وقد سيطرت قديماً فكرة الملكية الوراثية على العقول ، وكانت هذه النظرية غير مقبولة . إلا أن الثورة الجمهورية الجديدة قد جعلت نظام خلافة الشورى الإسلامية من الأمور المفهومة لدى إنسان اليوم .

أعلن الإسلام أن للضعفاء حقاً في كسب الإنسان القوى ، ولهذا صدر قانون الزكاة ، إلا أن هذا النوع من النظام الاقتصادي لم يكن مفهوماً لدى الإنسان قديماً . وبعد وفاة الرسول ﷺ حدثت مسألة الردة .

وفي زماننا الحالي جعلت الثورة الاشتراكية هذا الأمر مقبولاً ، أي وجوب وجود حق للآخرين في كسب شخص ما ، مع أن الاشتراكية قد أخطأت في فكرة أن يكون للآخرين حق في ملكية الشخص مع أن الصحيح هو أن يكون للآخرين حق في « الدخل » فقط .

وهناك أمر لم يفهم جيداً حتى الآن ، وهو أن عصر العلم هو حقيقة عصر الإسلام وما حدث صدفة وعلى سبيل الخطأ هو وجود صراع بين العلم والمسيحية حتى وصل إلى قضية الإلحاد . ما هو العلم ؟ هو ملاحظة الفطرة ، والفطرة ودين الفطرة هما وجهان لحقيقة واحدة . وهذا هو السبب في أن القرآن أوضح أن عصر العلم ليس أبداً خطراً على الإسلام بأي حال من الأحوال بل العلم وسيلة لتبيان الحق :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (١) .

وعصر العلم لم يبدأ في أوروبا بل بدأ في الأندلس وصقلية في القرن التاسع والعاشر والحادي عشر الميلادي ، وتؤكد حقائق التاريخ أنه لم يوجد صدام من أي نوع في ذلك الوقت بين العلم والدين . والعلم كان يتطور في ذلك الزمان ليقدم الدين ، ولكن حين قام الأتراك بإخراج العلماء البيزنطيين من الأستانة ومن القسطنطينية في القرن الخامس عشر ، فهاجزوا بعد ذلك ووصلوا إلى إيطاليا - حينئذ انتقلت أبحاث علوم الطبيعة من العالم الإسلامي إلى أوروبا وهنا اتخذ تاريخ العلم وجهاً جديداً تماماً .

وواجه العلم دنيا تسيطر عليها المسيحية فالواقع أن التعاليم الحقيقية لموسى وعيسى عليهما السلام هي نفسها تعاليم محمد ﷺ ، إلا أن الشيء الذي نقول به المسيحية هو شيء يعبر عن مذهب معتل ، يضم أموراً إنسانية خلطت مع التعليمات الإلهية ، وهي بشكلها الحالي لا تمثل الدين تمثيلاً صحيحاً ، وهذا هو السبب الذي لم يجعل العلم يضطدم بأي شكل مع الدين في بغداد وقرطبة ، بينما اعتبروا العلم في

كل من إيطاليا وفرنسا عدواً للدين . وقد توصل علماء الفلك المسلمون إلى مقياس يجعل من الإمكان أن تكون الأرض هي التي تدور حول الشمس ، وذلك على عكس الغرض الذي افترضه أرسطو . وعندئذ لم يعتبر أى مسلم هذا الأمر معارضاً للدين ، وبعدها حين قال نيكلسون كوبرنيكس (١٤٧٣ - ١٥٣٣) بهذا الأمر اعتبرته المحكمة المسيحية مجرماً لأنه يحقر من شأن ابن الله فيجعل حياته تابعة للأجرام السماوية الأخرى ، وقد أكد ابن مسكويه (- ١٠٣٠) أفكار الفلاسفة اليونانيين ودافع عن نظرية الارتقاء في الأحياء ، فلم يتعرض الدين لأى خطر ، ولكن حين قدم تشارلز دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) هذه النظرية شاع الهرج والمرج في الدوائر المسيحية الأوروبية .

يشير القرآن والكتاب المقدس إلى أن الأرض خلقت في « ستة أيام » وإدراك العلم لهذا الأمر لم يعتبر تصادماً أبداً مع القرآن ، وقد قال العالم إن خلق الأرض مر بأدوار أكثر من هذا البعد الزمني لأنه ورد في القرآن صراحة أن المراد بـ « ستة أيام » ، ليس ستة أيام مما يعدها الإنسان . بل هي ستة أيام من أيام الله ، وعلى العكس من هذا فإن ما جاء في الكتاب المقدس نتيجة لإضافة الكلام البشرى وخلطه جعل المتصور بالأيام ، أيامنا نحن التي تعنى الليل والنهار وما يعده الإنسان طبقاً لإدراكه لتتابع الليل والنهار ، ولهذا اعتبر كافراً كل من يؤمن بالاكشافات العلمية في نظر المسيحية . وتوجد أحداث كثيرة من هذا النوع تثبت أن الصراع الذي حدث بين الدين والعلم إنما هو في الحقيقة صراع بين العلم والمسيحية ولو أن تطور العلم - كما كان في بداية ظهوره - قد تم في العالم الإسلامي لتغير وجه التاريخ الآن عما هو عليه .

فالقرآن والكائنات كلاهما وجهان لحقيقة واحدة ؛ فالقرآن مظهر

لتدريّف الكائنات . والكائنات تمضى بتدبير الأمر « يدبر الأمر يفصل الآيات » (١) ، والعلم ليس سوى مشاهدة « تدبير أمر » الله ، هذا بالإضافة إلى أن علاقة هذا التدبير بقوانين الفطرة موجودة لأن كليهما يعملان دائماً في حالة متشابهة متماثلة ، ولهذا فيلزم معرفتها ولاستخدامها أن يوجد هناك انضباط فكري لنوع حسابي على مستوى الدقة . وهذا هو السبب في أن البلاغة المتناهية على مستوى الأدب والخطابة يقابلها صحة الفكر ودقته في مجال العلم . ومن هنا فالعلم يخدم الإسلام من ناحيتين : الأولى أنه يساعد الإنسان على أن يشاهد (الآء ربه) ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله في هذا العالم ؛ والثانية أن الفكر الذي يقرم على الأسلوب العلمي هو — بالتحديد — ما يريد القرآن من الإنسان .

والحقيقة أن حدوث صدام بين الدين والعلم كان مجرد حادثة عابرة ، فلم تمض فترة بسيطة — أقل من قرن — حتى قوى المنطق الأساسي للعلم وبدأ العلم يعود لحالته الأصلية .

بعد الحروب الصليبية (١٠٩٩ — ١٢٧٠) تحول العلم — من وجهة النظر الإسلامية — إلى صورة استشراق . ظهر الاستشراق في أوروبا وقام بتصميم جميع الآداب الغربية بأفكار مضادة للإسلام ، وكان هذا في الحقيقة استخداماً جديداً للطريقة القديمة للأمم المسيحية ، طريقة الخديعة المقدسة Pious Fraud . فقد كان البديل عن فشل الحروب الصليبية قيامهم بمحاربة أهل الإسلام . فاستخدموا أسلوبهم هذا في العمل ضد الدين . وكانت أوروبا كلها تحت سيطرتهم ، ونجحوا في هذا الأمر لدرجة أنهم ملأوا — ليس فقط كتب التاريخ والكتب

الدينية بالأفكار المضادة للإسلام - بل أيضا كتب المعاجم والأدب . ولم تنج من هذا الأمر أيضا مسرحيات شكسبير أو أشعار ملتن . ولما كانت هذه الكتب التي طبعت في أوروبا هي الوسيلة الوحيدة لقراءة الموضوعات العلمية في العصر الجديد ، فإن الاستشراق الغربي ترك تأثيره الشديد ليس فقط على العقلية الأوروبية بل على العالم المثقف كله .

ووصل القرن التاسع عشر إلى نهايته وظهر تفسير قوله تعالى : « والله غالب على أمره » (١) . وظهر طوفان من الأفكار الموضوعية سيطر على العلم . وسيطر على الدنيا كلها ، وكان تأثيره على الاستشراق واضحا في كتاب « الأبطال والبطولات » لتوماس كارلايل (١٧٩٥ - ١٨٨١) وبعدها استمر هذا العمل وفي النهاية وصل الأمر إلى أنه كما قام فيضان الجمهورية بجعل الملكية الوراثية بلا معنى من وجهة نظر علم السياسة . لم يعد لهذه العقلية أي ظل علمي في الدنيا . وهي عقلية التشكيك والتشوية في تعاليم وتاريخ دين ما للإساءة إلى هذا الدين ، وهكذا تعرض الاستشراق القديم للموت المفاجيء .

ومثال آخر على هذا التحول . ألا وهو الحركة العقلية الجديدة التي أطلق عليها خطأ Antiscenice (حركة مضادة للعلم) بينما هي أصلا مضادة للمادة Anti material لا مضادة للعلم ، وعلى العكس من الأمثلة المذكورة سابقا فإن هذه الحركة لم تتخذ لنفسها حتى الآن اتجاها واضحا وهي في معظم الأمر حركة رد فعل ، وليست حركة مستقلة ، فقد كان من نتيجة الحضارة الصناعية وحرية المرأة . تفكك الأسرة ، وخلو علاقة الرجل بزوجته من القدسية الدينية ، وأصبحت مجرد علاقة جنسية ، ونتج عن هذا الأمر زيادة حالات الطلاق وحرمان

الأطفال من تربية الوالدين وإضافة عدد آخر إلى عدد انجرمين المتزايد حيث تشهد البيوت يومياً حالات الطلاق المتكررة . وبينما يخرج الزوج والزوجة كل إلى عمله ، يوضع الطفل في دار حضانة أو مركز للرعاية ، وهكذا يحرم من حضن الفطرة . ويبسلم إلى حضن الآلة ، وجاء في تقرير أمريكي ان هذا الأمر أدى إلى نتيجة غريبة وخطيرة فقد ظهر مرض انتشر بين الأطفال أطلق عليه (أوترزم) وفيه يكون الطفل سليماً صحيحاً جسمانياً وخالياً من كل الأمراض في الظاهر بينما هو ذو عقل معتل مليء بخلل عجيب . وهناك العديد من المشاكل من هذا النوع مما جعل الناس يملون الحضارة الصناعية . ويهربون منها . ويرفعون شعارات العودة إلى الفطرة . وقد قام فريق من علماء علم الاجتماع البريطانيين بإجراء تحاليل وأبحاث أثبتوا من خلالها أن مجتمع الإباحية *Permissive Society* قد وصل إلى نهايته في بريطانيا ، وبدأت العودة إلى العهد الفيكتوري الذي كان يعتقد أنه انتهى تماماً وإلى الأبد في القرن التاسع عشر . وقد نشر كتاب لأحد المؤلفين الفرنسيين في أمريكا ويدعى (جين فرانكوانس ديويل) عام ١٩٦١ م واسمه *Without Marx or Jesus* ؛ ويتضمن الكتاب ٢٧٥ صفحة يشرح فيها المؤلف وجود ثورة في هذا العالم ، إلا أنها ثورة لا تقوم على الإلحاد أو الدين بل تقوم على قيم جديدة في الحياة سيكون من أكبر مظاهرها قيام حكومة عالمية وهذا هو الهدف الممكن والوحيد لأية ثورة .

(ص ٨٣) •

وتوجد أمور أخرى مشابهة لا حصر لها تحدث في العالم العربي اليوم ، وهي ليست دليلاً على فكر مستقل بل هي دليل على أن الإنسان محاسب بالاضطراب نتيجة للحضارة المادية . ومن هنا راح يبحث عن حضارة أفضل . وحتى بعد الحرب العالمية الثانية أعلن الألمان أنه لا مشكلة لديهم طالما ظل دخان المصانع يتصاعد من المداخن ، ثم ظهرت

اليوم قضية شائكة تمثلت فى تلوث البيئة بدخان المصانع ، وهذه قضية تحتل مكانة ثابتة بعد الحرب الذرية المتوقعة ، وقد حذر د • اينى دوبوز أحد أساتذة جامعة روكفلر (بنيويورك) العالم من أن التلوث الصناعى سوف يسلب الإنسان العديد من خصائصه ، حتى أن هناك خطورة تتمثل فى تحول الإنسان إلى درجة دنيا من الإنسانية (١) • وهذا النوع من نتائج الحضارة المادية قد سلب الإنسان الحديث هدوءه وراحته ، رغم ما وصل إليه من تطور ورقى ، ففى العالم الغربى اليوم كتبت المؤلفات الكثيرة التى أسهبت فى الاعتراف بهذه الحقيقة ، وعلى سبيل المثال كتاب Walter kerr المسمى بـ (Decline of pleasure) 1962 — يقول المؤلف الأمريكى فى كتابه الذى يتضمن ٣٢٥ صفحة ، ان « أهل أمريكا ليسوا سعداء اليوم ، فعلى الرغم من أن الجيل الأمريكى يمر اليوم بفرص عديدة سواء من ناحية سبل الراحة أو ما يملك من امكانيات ، أو عمر طويل — فلهذه كل ما كان يحلم به الأجداد — إلا أنه جيل يشعر بالتعاسة رغم كل هذا » •

كتبت جريدة التايم (١٨ يناير ١٩٧١) فى مقال لها بعنوان :

Avoyage to utopia

« فى سنة ١٨٤٠ م كان كل أمريكى يحمل فى جيبيه خطماً جميلة للمستقبل ، تماماً كما يحمل منديله فى جيبيه ، لكننا نجد اليوم جيوب الأمريكين وقد خلت من هذا النوع من الرغبة ، فقد يئس الناس من الظروف الاجتماعية تماماً وانتهت تصورات بناء المجتمع الراقى السامى ، وبدلاً من فكرة بناء جنة على الأرض أصبح الجميع يميلون إلى البحث عن الجنة فى داخل ذاتهم ، إن دمار اليوم قد جعل عدداً كبيراً من مفكرى العالم يضعون آمالهم وعقائدهم على أرواحهم كآخر ملجأ للمثالية ، وبدأوا يحثون على الاتجاه للروحانيات بدلاً من الماديات

حتى أن بعض الناس يقول إن عملية السمو هذه إنما تصل بالحضارة إلى أعلى مراحل الشعور وتصل بالإنسان في النهاية إلى أسمى وأعلى حقيقة أي إلى الله » •

واعتقد الأمريكيون بعد العصر الصناعي أنهم سيجدون نجاتهم في التكنولوجيا ، وقام المؤلفون برسم خطط ونماذج عظيمة ورائعة ، إلا أن التكنولوجيا قد اثبتت فشلها في توصيل الإنسان إلى سعادته ؛ فسبل التكنولوجيا ووسائلها بدأت تستخدم بسهولة كبيرة في تدمير الإنسان بدلا من تطويره ، والإنسان حين يصل إلى آخر مراحل الجنة الآلهية فإنه يتعرض لقضايا صعبة مذهلة ، وهذا ليس مجرد مصادفة ، بل هو أمر يمضى على سنة الله ، فهو يخلق ظروفنا داخل حياة الناس الغافلين تضع أمامهم دائما علامة استفهام •

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » (١) •

لقد أرشد الله الناس إلى خيرهم ، وعلى ورثة نبي آخر الزمان الآن أن يعملوا على الاستفادة من هذه الأرض ، فيحاولوا إيضاح دين الحق حتى يقبله الإنسان الجديد • لكننا - للأسف - لم نشاهد مصلحينا يقومون بهذا العمل ، وعلى العكس من هذا انضموا معاً في قتال وصراع سياسى مع الأمم التي يدعونها إلى الدين وهو صراع لا نتيجة له ، وناتج عن جهل كبير بأسلوب الدعوة إلى الدين •

وفي العصر الحديث حين استولت الأمم الغربية على البلاد الإسلامية ظهر سؤال أمام جميع البلاد الإسلامية وهو : ما العمل لمواجهة هذه الأمم ؟ • كان أساس العمل في ذلك الوقت هو وضع

خطة مستقلة في ضوء التعليمات الدينية ، وفي ضوء سنة رسول الله ﷺ ،
ثم الاجتهاد من أجل تطبيق هذه التعليمات وتنفيذها . وعلى العكس
من هذا مضت قافلة مجاهديننا على طرق ردود فعل سلبية •

وقد كان لردود الفعل هذه اتجاهان اثنان : أولهما ظهر نتيجة
للدفاع النفسى ، فقد حاول هؤلاء الناس أن ينفثوا روح الدين في
المسلمين طبقا للأساليب التقليدية الرائجة ، وعلى سبيل المثال إنشاء
مدارس للتعليم الدينى . عقد اجتماعات دينية لتعليم عامة الناس
العقائد الإسلامية وتعليمهم العبادات والاجتهاد . والعمل من أجل
الحفاظ على مصالح المسلمين الخاصة وغير ذلك •

والاتجاه الثانى كان اتجاها في معظم الأمر تتزعمه طبقة ثورية
تقدم مقترحات جريئة •

وقد أشعلت كتابات هؤلاء المفكرين الثوريين وخطبهم النار في
العالم الإسلامى كله •

وكان هدف جميع هذه الحركات الاستقلال بدولة إسلامية . ونال
كل منهم شهرة غير عادية : إلا أنها جميعا فشلت في تحقيق هدفها ،
والسبب الوحيد هو أن هذه الحركات جميعها جعلت من السياسة
(وحدها) ميداناً لعملها . وهذا أدى بنا إلى الخروج عن الطريق المستقيم
للإسلام بحسرة نظرية فلم تتمكن من استحقاق النصر الإلهى •

كان الجانب العقلى والنظرى يقتضى أن يجعل هؤلاء من الدعوة
الإسلامية الشاملة مجالا لعملهم . فهذا هو المجال الذى يتفوقون فيه
على معارضيتهم بطريقة واضحة وحريجة . إلا أنهم لم يستطيعوا أن
يرتفعوا الى مستوى الظروف • وظهرت من ناحية حركات تهدف إلى
تجريح الإسلام من جانب الاستعمار الغربى ، ومن ناحية أخرى قامت

حركات تدعو إلى الجمهورية الاشتراكية وحولت مزاج العالم كله إلى التفكير في أسلوب سياسي معين ، هذه العوامل جعلت الحركة الإسلامية تأخذ في تفكيرهم نوعا من الحركة السياسية فأخذوا يدفعونها للسير وفقا لمخططات وقتية بدلا من أن يدفعوها إلى الحراط المستقيم الأزلى الخالد .

وقد وصل السيد جمال الدين الأفغانى إلى هذه الحقيقة قبل ثمن من الآن ، وهى أنه فى مجال الدعوة توجد فرص عظيمة لنجاح الإسلام ، فقال فى هذا الصدد :

« إن أهل أوروبا مستعدون لقبول الإسلام إذا أحسنت الدعوة إليه ، فقد قارنوا بين الدين الإسلامى وبين غيره فوجدوا البون شاسعا من حيث يسر العقائد وقرب تناولها ، وأقرب من أهل أوروبا إلى الإسلام أهل أمريكا لأنه لا توجد بينهم وبين الأمم الإسلامية عداوات موروثة فلا أضغان مدفونة مثلما هو الحال بين المسلمين والأوروبيين » (١) .

كتب المفتى محمد عبده التلميذ المتميز لجمال الدين الأفغانى :

« حين كنت فى باريس (١٨٨٤) عرضت عليه أن نترك السياسة وأن نبتعد عن أنظار الحكومة ونعمل بالتبليغ . وهكذا يمكن أن نؤدى عملا له نتيجة رائعة خلال عشر سنوات . إذ أننا فى مجال السياسة لا تساوى قوتنا مهما ملكنا من قوة أى شىء . فأجاب الأفغانى قائلا :

« إنما أنت مشبط » (صفحة ٥٠) .

فى القرن التاسع عشر ظهرت ثورتان كانتا على درجة كبيرة من الأهمية من وجهة النظر الإسلامية : الأولى تمثلت فى تصحيح

(١) جمال الدين الأفغانى ، كتيف محمود أبو ربة ، ص ٢١٢ . القاهرة ١٩٦٦ .

الاستشراق الذي استمر سبعمائة سنة ، وكأنه كان اعترافاً عملياً من أهل الغرب بصدق الإسلام ؛ والثانية ظهور فن النقد الأعلى Higher criticism وكان بمثابة اعتراف بالقرآن دون كتب الملل الأخرى ككتاب ثابت تاريخياً ، وهكذا وضع القرن التاسع عشر أرضية علمية على مستوى رائع للدعوة الإسلامية بطريقة مدهشة حقاً ، هذا بالإضافة إلى أن هذا كان هو الوقت الذي اشتدت فيه حركة التحرير الفكرية في أوروبا بكل ثقلها وبكل حدتها وقضت على التعصب الديني القديم ، وكان من نتيجة هذا الأمر أن بدا ممكناً لأول مرة في التاريخ قيام حركة الدعوة لدين الحق في جو من الأمن والطمأنينة .

ووسط هذه الظروف أصبح من الممكن ممارسة الدعوة الإسلامية بطريقة مؤثرة إلا أن هذا هو القرن الذي قام فيه معظم مصلحينا بإثارة معارك سياسية مع الأمم الغربية حتى أن شعار القومية (مثلاً نظرية القوميين - أو مصر للمصريين) أصبح بمثابة جدار بين المسلمين وبين الأمم الأخرى . فإذا ما دار بخاطر البعض أن ينهضوا للدعوة إلى الإسلام قاموا فقط بتكوين جبهة مناظرة ضد الأمم الأخرى لا يمكن أن ينتج عنها سوى غرس الكراهية في القلوب وإبعاد الناس عن الإسلام أكثر مما هم بعيديون عنه . وفي هذا العصر ظهرت عدة علامات وظواهر توضح بصورة عملية وجود إمكانيات جديدة لحركة الدعوة الإسلامية . ففي بلاد الغرب أشهر كبار المفكرين إسلامهم (مثلاً محمد أسد وعبد الكريم جرمانوس) . أو اعترف البعض منهم علانية وصراحة بتفوق الإسلام (مثلاً جورج برناردشو ١٨٥٦ - ١٩٥٠) .

وظهر أناس طلبوا أيضاً علانية من المسلمين أن يقوموا بالدعوة إلى الدين ، وأصبح من الإمكان أكثر من أي فترة سبقت أن تعترف
١٧م - واقعنا ومستقبلنا

الدنيا كلها بالإسلام (مثلا لورد لوثين ١٨٨٢ - ١٩٤٠) . إلا أن هذه الوقائع والحقائق لم تجد عيناً بصيرة من المسلمين ؛ فقد اعتبروا أن كمال الإسلام هو تقديم التضحيات والأضحيات للصراع السياسى .

ورغم جهلنا المستمر فلا تزال إمكانيات نشر دين الحق باقية حتى اليوم أيضا وبصورة كاملة ؛ فقد أعلن كُن من بانجو رئيس الجابون سنة ١٩٧٣ ، والرئيس بوكاسا رئيس أفريقيا الوسطى سنة ١٩٧٦ ، وراجه واتوك أمير سراوك سنة ١٩٧٧ إسلامهم . وهناك أمثلة أخرى عديدة تعد شواهد جديدة على الإمكانيات المتوفرة للدعوة الإسلامية فى العصر الحديث وهذه الأحداث توّضح من أين يجب أن نبدأ كفاحنا من أجل أن نكسب من جديد معركتنا الضائعة .

« إن الإمانة الفكرية ينالها من هو على استعداد لدفع قيمتها المادية » ؛ هذه مسلمة تاريخية . وهذا هو السبب فى أن الإمامة الفكرية تمضى دائما فى ظل الإمامة المادية ، ولقد احتفظ المسلمون بالإمامة الفكرية للعالم من القرن الثامن حتى القرن السادس عشر ؛ لأنهم استطاعوا أن يؤدوا قيمتها نتيجة لقوتهم التجارية وتفوقهم السياسى .

فى تلك الفترة كان العلم اسما لعلم المسلمين ولقد شكّا زعيم نصارى قرطبة Alvaro المستعربين النصارى فى أسبانيا Mozarabes لأنهم نسوا لغتهم المسيحية (اللاتينية) فى ذلك الوقت ؛ ومعظم الشباب المسيحى أصحاب الكفاءات العالية ما كانوا ليهتموا إلا باللغة العربية والأدب العربى ، وبعد ذلك وحين اكتشفت أوروبا قوة الآلة ونتاج عن ذلك بالتالى تحقيق التفوق الصناعى والرقى الصناعى — حينئذ أفلتت زمام الإمامة الفكرية من المسلمين وتناولته أيدي الأمم الغربية .

ومنذ القرن السادس عشر وحتى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٤) ظلت هذه الإمامة فى يد الدول الغربية وبخاصة فى يد بريطانيا ، وفى ذلك الوقت كانت هذه الأمم هى منبع العلوم لجميع طلاب الدنيا . وقد سلبت الحرب العالمية الثانية الإمامة المادية من أوروبا وسلمتها إلى أمريكا ، ومنذ ذلك الوقت ظلت أمريكا هى الإمام الفكرى للدنيا كلها ، وكل من يشاهد كتب البحث العلمى اليوم يلاحظ أن معظمها مؤلفين أمريكيين .

لقد أثبتت الأحداث أن سر إمامة الدول الغربية كان يكمن غالباً فى شيئين اثنين ، أولهما : الاستعمار وثانيهما : وقود البترول الرخيص ، ومن المدهش أن دول الشرق كانت هى مصدر حصول الدول الغربية على هذين الشيئين .

بعد الحرب العالمية الثانية ظهرت ظروف قضت على الاستعمار تماماً ، والظروف التى ظهرت فى الربع الثالث من القرن الحالى قد هزت أيضاً أسس الإمامة الأمريكية ، وفى سنة ١٩٧٣ وقعت حادثتان مهمتان : الانسحاب الأمريكى من حرب فيتنام التى استمرت عشر سنوات ، ثم تخفيض قيمة الدولار ، وكان ذلك علامة على أن السيطرة العسكرية والاقتصادية لم تعد الآن قاصرة على أمريكا . ولقد أثبت الحصر الجزئى لتصدير البترول من جانب الدول العربية ثم ارتفاع أسعار البترول أن البترول امبراطور عالم الصناعة . ومن المحير والمدهش أيضاً أن جزءاً كبيراً من مخزون البترول العالمى يكمن داخل المنطقة التى يطلق عليها اسم « الخليج العربى » . هذا بالإضافة إلى أن أمريكا أصيبت بحظ سيئ ، فأكبر مشاكل العصر الحاضر أن إنسان اليوم قد فقد ثقته بالحضارة الصناعية ، وهذه الحضارة لم تستطع أن توفر للإنسان العماد الحقيقى للحياة ، ومن ناحية أخرى ظهرت

عدة مسائل وقضايا معقدة لم تجد حلولاً ؛ فبالإضافة إلى الحروب وإلى التضخم الاقتصادي والتلوث البيئي والجرائم ، والعري والفحش والفساد والنشنت الأسرى وبقية المشاكل التي أفرزتها الحضارة الصناعية ، والتي لا يمكن أن يوجد لها أى حل داخل إطار الحضارة الحالية وجدت ظروف أخرى أصابت الإنسان وابتلته بالشك ، ويقال إن الإنسان فى حاجة إلى نظام جديد يطلعه على هدفه فى الحياة ، ويكون عوناً له يسد حاجاته الحقيقية . ومع أن هذا الأمر لا يخص أمريكا بصفة أساسية فإن أمريكا - وهى قائدة الحضارة الصناعية اليوم - تعتبر أعظم وارث لنتائج تلك الظروف السيئة . ويتضح هذا الأمر من الحكاية التالية :

سافر « سوامى ديويكانذر » (١٨٦٣ - ١٩٠٢) إلى أمريكا فى آخر القرن التاسع عشر فلم يجد مجالاً للعمل هناك ؛ إلا أن الدعاء الهندكة الآن يقوهون بتربية مئات الآلاف من تلاميذهم فى أمريكا ؛ فقد تأذى الإنسان الغربى الجديد ونشر من حضارته ويحدوه الآن شوق جارف للبحث عن أى جديد . وحين لا يجد « دين الحق » فهو يمضى خلف أى شىء يتراءى له لامعاً من بعيد .

يذكر المفكر الفرنسى أندريه مالرو (١٩٠١ - ١٩٧٦) أن التطور الأوروبى بدأ يصل أوجه سنة ١٤٥٠ وظل هذا العصر لمدة خمسمائة سنة . وفى سنة ١٩٤٩ تولى زمام الصين « ماو » فكان هذا إعلاناً لنهاية هذا العصر ، والحضارة الغربية كما بدت بعد نهاية الحضارة الرومانية . فهى هكذا اليوم تفسح المجال لأية حضارة أخرى قادمة (التايم ١٨ أبريل ١٩٧٤) .

وانهدام أمريكا فى المستقبل القريب أمر مؤكد . وبعدها سيتعرض العالم كله لفراغ فكرى لا توجد حينذاك أمة تملؤه . ولا شك أن الصين

وروسيا قوتان جديدتان في العصر الجديد إلا أنهما لا يمكنهما ملء هذا الفراغ ، والسبب الرئيسي لهذا هو وجود حراع داخلي فيهما • فالبلاد التي أفسحت المجال لأديكتاتورية الاشتراكية وضعت سبلها ووسائلها في مجالات معينة وأصبحت أمما قوية . وكان هذا هو المانع الذي حال دون ظهور أى فكر متطور بداخلها ، فيمكن للعلوم التقنية أن تتطور إلا أن تطور العلوم الفكرية يحتاج بالضرورة الى جو ومناخ لا يمكن أن يوجد في ظل النظام الاشتراكي ، وهذا هو السبب في أن تتطور العلمى في الصين وروسيا إنما هو تطور مقصور على التطور في العلوم التقنية ، إذ أن الدولتين لم يخرجتا لنا حتى الآن أى عمل علمى فكرى رائع •

ثم تأتى اليابان . ولا شك أن اليابان حققت معجزة في مجال التطور الصناعى ، إلا أنها بالمقام الأول مجتمع تقنى ، ولا أمل - فى المستقبل البعيد - فى أن تتمكن من الحصول على أية مكانة فكرية . وهذا هو الحال تقريبا بالنسبة لألمانيا الحالية •

إن انهدام الأمم الغربية واليأس من الحضارة الصناعية ، والفراغ الفكرى بصفة عامة ، كل هذا وصل بحاملى دين الحق إلى مقام يجعلهم قادرين - إذا استيقظوا وتنبهوا - على أن يصلوا بالإسلام إلى مكانته الحقيقية الواجبة لينالوا بذلك زمام إمامة الجنس البشرى مرة أخرى •

إن المانع الوحيد الذى يحول بينهم وبين تحقيق هذا الهدف السامى هو تأخرهم من ناحية امتلاك الوسائل والسبل فى هذا العصر الصناعى • وقد أمدهم الله ووضع تحت أقدامهم ذخائر من البترول يمكن أن تعوض تخلفهم هذا بطريقة مذهلة ، وقد وضحت الأهمية العالمية للبترول بعد الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل (أكتوبر

(١٩٧٣) ، وليس هناك من شك في أن الثروة الطبيعية للبترول يمكنها ان تعوض التخلف الصناعى للأمم المسلمة ، وليس هذا فقط بل يمكن أن تصل بهم وسط الظروف الحالية إلى مكانة اذا ما تعلموا معها العمل باتحاد ونظام أمكنهم التحكم في اقتصاديات العالم كله .

والحقيقة أن الوقت الآن هو أنسب الأوقات التى يمكن أن تبدأ فيها مسيرة سفرنا نحو هذا المستقبل الذى ينتظرنا وينتظرنا فقط .

من اللازم لنا أن نمتلك الأسباب المادية لإحياء الإسلام ، ولكن يجب أن نعترف بأن هناك حقيقة واضحة ومرة تقف حجر عثرة في طريقنا ، فمنذ ثلاثمائة سنة مضت حين كانت الدول الغربية منهكة في الكفاح من أجل الرقى المادى ظلت البلاد الإسلامية غافلة عن التغيرات التى تدور ، وبقيت في غفلة مستمرة ، وكانت النتيجة أنها تخلفت كثيراً عن الأمم الأخرى على ركب التطور المادى .

وفي السنوات الحالية بدأت تظهر علامات الكفاح فى العالم الإسلامى . إلا أن الهوة بيننا وبين معارضينا قد زادت ، وزدنا تخلفاً على تخلفنا ، وحين نصل بعد آلاف المراحل من الكفاح إلى تطور الغرب الصناعى فإنه سيكون قد وصل كما يقول ايلون تاملر إلى عصر ما بعد الصناعة Super Industrial age والحقيقة التى يسميها علماء الجغرافيا بالصدفة الجغرافية ، ربما هى تدبير من لدن الله لسد هذا النقص ، فهذه ثروة لا يمكن فقط أن تعوض التخلف الصناعى فى الدول الإسلامية بل يمكن أيضاً أن تؤدى الثمن الذى نحتاجه من أجل الكفاح المؤثر لإحياء الإسلام فى العصر الحديث .

وأختتم هذا الفصل بعبارة لونتجرى وات : « إن الدنيا تتحرك بسرعة كبيرة لتصبح دنيا واحدة ، ويزداد هذا الاتجاه ، حتى

يوجد فيها اتحاد وتماتل ، ونتيجة لهذا الاتجاه سيأتي يوم يكون فيه نأصول الأخلاقية نظام لا يصبح فقط جوازا عالميا بل ستعترف به الدنيا كلها وسيصبح أمراً مقرراً » •

ويدعى المسلمون أن محمداً ﷺ هو نموذج عملى وأخلاقى للجنس البشرى . يقولون هذا ويدعون الناس ليتمكنوا من أن يقيموا على هذا الرأى حياتهم . وحتى الآن أمكن لبعض العالم أن يهتم بهذا الأمر ، ولكن نتيجة لقوة الإسلام سيحقق هذا الأمر أهمية كبيرة . والسؤال الآن هو هل هناك أصول فى حياة محمد ﷺ وفى تعاليمه تستحق أن يتعلمها الناس . ويمكن أن تقدم لعالم المستقبل نظاماً أخلاقياً فريداً ؟

لم يتلق عالم اليوم إجابة نهائية على هذا السؤال • إن ما قاله المسلمون حتى الآن لتدعيم رأيهم فيما يتعلق بمحمد ﷺ هو مجرد بيان أولى ، اطمأن إليه عدد قليل جداً من غير المسلمين • والموضوع لايزال مطروحاً : ما هو رد فعل العالم فيما يتعلق بمحمد ﷺ ؟ إن هذا يتوقف إلى حد ما على ما يفعله مسلمو العصر الحاضر من أجله ، والفرصة أمامهم اليوم متاحة ليعرضوا على بقية بلاد العالم قضيتهم بطريقة أفضل وأسلوب أكمل ، فهل يمكن أن يوضح المسلمون للعالم حياة محمد ﷺ كنموذج إنسانى كامل من أجل إيجاد مثل أخلاقية للعالم المتحد ••• لو استطاع المسلمون أن يعرضوا قضيتهم بطريقة أفضل فلا شك أنهم سيجدون من بين النصارى من يصغى ويستمع إليهم (١) •

خاتمة

خلق الله الإنسان حراً ، إلا أن هذه الحرية ليست حرية مطلقة أو بلا حدود ؛ فحرية الفرد تنتهى بموته ، ومن حيث المجموع فإن حرية الجنس البشرى بأكمله سوف تنتهى بيوم القيامة ، وبعد نهاية هذه الحياة الدنيا تبدأ حياة أخرى ، وهناك يقسم الناس إلى مجموعتين : مجموعة أقامت حرية حياتها الدنيوية على أسس من مرضاة الله ، وهؤلاء سيدخلون الجنة ، والمجموعة الثانية تضم أولئك الناس الذين قضوا أوقات حريتهم بدون خوف من الله ، وهؤلاء سيحشرون فى جهنم ، وهذا تقسيم دائم ، فسوف يظل أهل جهنم يتلظون بنارها ، وسيظل أهل الجنة يرتعون فى نعيمها وروضاتها •

ونتيجة لدقة هذه المسألة فقد وضع الله نظاماً ، وذلك أنه حين خلق الإنسان ارسل إليه الانبياء والمرسلين ، فأخرج من كل بلدة ومن كل نسل أنبياءهم ، أنزل عليهم الوحي ، وأنزل عليهم الكتاب ، حتى يقوموا بإرشاد الناس إلى حقيقة الحياة بوضوح وصراحة ، وهذه السلسلة ظلت تمضى من آدم حتى المسيح حتى قرر رب العباد أن يرسل آخر رسله فأنزل عليه آخر الكتب السماوية وحفظه إلى الأبد ، وهكذا بدأ عهد جديد من تاريخ البشرية مع القرن السابع الميلادى فقد وجد كتاب الله (القرآن الكريم) بحالته الآمنة المصونة لأنه لن يأتى نبي آخر يبلغ الناس دين الحق •

ولكن ماذا أعد الله للإنسان الذى يولد بعد ختم النبوة ثم يموت بعد أن يولد ، ماذا فعل الله حتى يطلعه على الدين الحق ؟

الجواب هو « الأمة المحمدية » ؛ فأخر رسل الله قد أشهد أمته على الدين ، ومن هنا أصبح من مسئولية الأمة المحمدية دائماً أن تكون

شاهدة أمام جميع الخلق الذين يولدون حتى يوم القيامة حين يعرض الناس أمام الميزان وتتف هذه الأمة حينذاك وتقول : لقد بلغنا رسالة الحق إلى هؤلاء الناس ، ورغم هذا فأولئك الذين لم يتبعوا رسالة الحق يتحملون وزرهم وتبعة عملهم •

ذلك هو العمل الذى عبر عنه القرآن بالدعوة إلى الله : ومسئولية الأمة المحمدية النهوض بهذا العمل . ولا يمكن أن تتخلص من تبعة هذه المهمة بأى حال من الأحوال : ولا يمكن أن ينتذها من التقصير فى هذه المسئولية أمام الله أى عذر أو سبب ، فإذا لم تنهض الأمة المحمدية بأداء هذه المهمة ، وإذا لم تحذر أمة العالم من اليوم القادم ، فسوف ينالها العذاب فى الآخرة شأنها فى ذلك شأن الأمم الأخرى ، وإذا كان ذنب الأمم الأخرى هو أنها لم تتبع الحياة القرآنية فإن ذنب الأمة المحمدية سيكون فى إحجامها عن إرشاد أمة العالم إلى اتباع مرضاة الله ، والذنب الثانى لا يقل عن الأول بأى حال من الأحوال •

والذنب الذى تحمل وزره اليهود كان لأنهم حملوا الأمانة الإلهية ثم أخفوها ولم يطلعوا الناس عليها ، فالخطأ الذى ارتكبه حملة التوراة إذا ارتكبه حملة القرآن فلن يعاملهم الله إلا بنفس المعاملة التى عامل بها حملة التوراة ، وسوف يتعرضون لنفس العقوبة التى قررها القانون الإلهى على من سبقوهم ، فليبت هناك علاقة خاصة أو محاباة لأمة من الأمم عند الله ، ولا يجب أن تعتقد جماعة ما أن لها مع الله علاقة خاصة أو علاقة محاباة •

وعلى المسلمين اليوم أن يؤدوا فريضة الدعوة أمام أهل الدنيا ، تلك الفريضة التى أداها الرسل فى زمانهم ، أمام أولئك الناس الذين عاشوا فى عصورهم ، وهذه الفريضة هى إبلاغ رسالة القرآن إلى الناس ، وكما ان المال بدون دفع زكاته يصبح حراماً للمسلم فهكذا

لا يجوز لنا أن يكون لنا من حياتنا أى نصيب بدون أداء هذه الفريضة ولن ننال السرور ولن يكون نعيمنا نعيما ولن نكون عافيتنا عافية مادمنا لا نقوم بالشهادة أمام العالمين أو على الأقل نشغل أنفسنا بما يلي :

* أن نقوم بترجمة القرآن الكريم على أعلى مستوى إلى جميع لغات العالم .

* أن نعد كتباً بأسلوب حديث عن حياة الرسول وأصحابه وأن نضعها أمام جميع أهل الدنيا .

* أن نعد ترجمات لأحاديث الرسول ﷺ ، إلى لغات العالم .

* إعداد مؤلفات عن تاريخ الإسلام (لا عن تاريخ فتوحات الإسلام) ونشرها على مستوى واسع .

* تأييد وتعزير الإسلام بلغة جديدة وبأسلوب عصري .

* اتباع جميع الأساليب العملية وإنشاء هيئات معاونة تكون لازمة لإبلاغ الناس رسالة الحق بطريقة مؤثرة .

وهذا العمل ببساطة ليس مجرد كتابة وخطابة ، بل هو عمل له مغزاه وهو يعنى بعبارة أخرى « النيابة الإلهية » ومن هنا يجب إعطاؤه القدر الكافى من الاهتمام ، ويجب أن يكون على قدر من الاتزان يتساوى مع قدر مبلغى أعظم رسالة ، على أن يتضمن الأمر الرغبة فى الخير وسعة الصدر وما يستلزمها من أمور أخرى متوقعة من حاملى هذه المسئولية الجسيمة ، ويلزم أيضا أن نخاف ونرتعد من جهنم التى نخيف بها الآخرين وأن نحرص على الجنة التى ندعو إليها الآخرين ولا نجعل من الدعوة والتبليغ مسخرة ، إذ يقوم بها من هو غير مؤهل لفهمها .

وهناك قضية هامة فى تاريخنا الحديث ، فخلال القرنين الماضيين تقريبا ظهرت حركات كبرى كثيرة فى العالم الإسلامى ، نالت فرصا عديدة تمكثها من العمل • إلا أن نتائج محاولاتها وصلت حقيقة إلى درجة الصفر إن لم تكن أدنى من ذلك ، وهذا الفشل حدث رغم أنها وضعت لتنفيذ برنامجها أحسن الوسائل ، فقد توفرت لها العلم ، والقدسية والإخلاص ، والشخصية والتضحية والعدة والعتاد ورأس المال ، وجميع السبل بقدر وفير ، إلا أن ملاحظة نتائج محاولاتها — التى كانت كالطوفان — يدلنا على أن هذه الحركات قادت قافلة الأمة الإسلامية إلى الورااء •

وأولئك الناس الذين لا يؤمنون بالله أو الذين لا يؤمنون به حيا فعلا لا يمكنهم أن يحركوا بأنفسهم ويوجهوا أفكارهم هذه ، إلا أن الإيمان بالله يستلزم أن نفهم هذه الحقيقة على أساس سنة الله وأن نتعامل معها معاملة إلهية مباشرة •

وحيث نفكر من هذا المنطلق ، وحيث نجعل القرآن هادينا فى هذا الأمر يثبت لنا بدون شك أن فشل حركاتنا سببه الوحيد هو أن هؤلاء الذين تزعموا هذه الحركات لم يقوموا بالواجب الأساسى الذى وعد الله على أساسه أمته المسلمة بالنصر الاجتماعى ؛ فقد اشترط الله علينا لينصرنا أن ننصره ، أى أن مهتمنا لا يجب أن تقوم على أساس من المطالب والاحتجاجات من أجل تحقيق حقوق دنيوية بل هى مهمة قائمة على « طريق التعريف بالآخرة » وحركتنا هذه إنما هى حركة دعوة إلى الحق لا حركة سياسية ولا حركة اقتصادية •

تلك هى أسس المشكلة التى جعلت من جميع محاولتنا مصداقا لقوله تعالى « حبطت أعمالهم » ، لقد قمنا بحركات تهدف إلى

تحقيق سياسة دنيوية ومن هنا لم نتمكن من الفوز بالنصر السماوى •
فإذا أردنا اليوم أن ننجو من الدمار الذى أصابنا فإن الطريق الأوحى
لهذا هو أن نصبح بحق دعاة للحق أمام أمم العالم الأخرى ، وأن
نترك الصراع السياسى والاقتصادى . وأن نجعل من قضية الجنة
والنار قضيتنا الأساسية وأن نطلع عليها الناس ، فهذا هو السبيل
الوحيد للفوز بنصر الله . وطالما لم نحصل على نصر الله فلن نتمكن من
الحصول على أى نجاح من أى نوع لا فى الدنيا ولا فى الآخرة •

إن عظمة أهل الإسلام وفوزهم إنما هى كما ورد صراحة فى
القرآن الكريم « إنعام إلهى » ، وهذا أمر معروف ، فالإنعام أو الجائزة
إنما تكون مقابل عمل خاص . إذن ما هو العمل الذى أداه أهل الإسلام
ليستحقوا به هذا الإنعام أو هذه الجائزة ؟

إن هذا العمل الذى يجب أن يؤديه أهل الإسلام هو فى الواقع
هدف بعثة الأمة المحمدية . أى الشهادة أمام العالمين وذلك بواسطة
التبليغ ورسم الطريق أمام الناس إلى مرضاة الله حتى لا تكون هناك
حجة فى الآخرة . هذا هو العمل الذى يستحق به المسلمون إنعام
الله ، فإن لم تؤد هذا العمل المطلوب ، فلا يمكن أن نأمل فى استحقاقنا
لهذا الإنعام الإلهى نظير قيامنا بأية حركة أو ثورة ، فأية حركة أو
ثورة لا يكون هذا هدفها إنما تستحق العقاب لا الثواب •

تم بحمد الله وتوفيقه

من

مطبوعات دار الصحوة

- ١ — عصر الإلحاد
تأليف محمد تقى الأمينى
- ٢ — ثقافة المسام
د/ عبد الحليم عويس
- ٣ — الوقت فى حياة المسلم
د/ يوسف القرضاوى
- ٤ — الرسول والعلم
د/ يوسف القرضاوى
- ٥ — صلاح الأمة على هدى السنة
د/ محمد محمد الشريف
- ٦ — مؤشرات حول الحضارة الإسلامية
دكتور / عماد الدين خليل
- ٧ — الدولة والسلطة فى الإسلام
دكتور / محمد معروف الدوليبى

- ٨ — قضية البعث الإسلامى « المنهج والشروط »
تأليف / وحيد الدين خان
- ٩ — أزمة المثقفين تجاه الإسلام
دكتور / محسن عبد الحميد
- ١٠ — المختار فى الرد على النصارى للجاحظ
لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
مع دراسة تحليلية تقويمية
تحقيق ودراسة دكتور / محمد عبدالله الشرقاوى
- ١١ — من معالم الحق
فى كفاحننا الإسلامى الحديث / محمد الغزالى
- ١٢ — الإسلام كما ينبغى أن نؤمن به
د/ عبد الحلیم عویس
- ١٣ — ضوء السارى إلى معرفة رؤية البارى عز وجل
شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن
الشافعى المعروف بأبى شامه رحمه الله
تحقيق دكتور / أحمد عبد الرحمن الشريف
- ١٤ — واقضا ومستقبلنا فى ضوء الإسلام
تأليف / وحيد الدين خان
مراجعة : د/ عبد الحلیم عویس

- ١٥ - الوجيز فى الاقتصاد الإسلامى
دكتور / محمد شوقى الفنجرى
- ١٦ - رسائل الأعلام
إخراج وتقديم :
محمد الرابع الحسنى الندوى
- ١٧ - أمهات المؤمنین
أحمد حسين شرف الدين
- ١٨ - أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين
أبو الحسن الندوى
- ١٩ - نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان
أبو الحسن الندوى
- ٢٠ - العالم الإسلامى اليوم
محمود شاكر
- ٢١ - الأدب الإسلامى وصلته بالحياة
مع نماذج من صدر الإسلام
محمد الرابع الحسنى الندوى
- ٢٢ - شريعة الإسلام فى الجهاد والعلاقات الدولية
أبو الأعلى المؤدودى
- ٢٣ - سر تأخر العرب والمسلمين
محمد الغزالى

رقم الابداع ١٩٨٤/٥٩٣٠
الترقيم الدولي ٧ - ٠١ - ١٤٣٠ - ٩٧٧

دار الصحوة ... وهذا الكتاب

لم تقم دار الصحوة لتكون مجرد دار نشر تجارية ، بل قامت لتحقيق هدفاً إسلامياً بالدرجة الأولى ... وهذا الهدف - بإيجاز - هو الأخذ بيد المسلمين لفهم الإسلام فهماً حقيقياً نابعاً من مصادره الأصلية ... وفهم التحديات التي تواجه المسلمين ...

ولفهم الأسلوب الأمثل والأقوم في مواجهة التحديات .

وأخيراً ... لقد قامت دار الصحوة لترفع من مستوى الإنسان المسلم روحياً وثقافياً ... حتى يكون منسوب المسلم الفكري والأخلاقي أعلى من منسوب الحضارة الحديثة ... وبالتالي يكون المسلم أهلاً لقيادة الحضارة وفق سنة الله الكونية التي لا تمنح قيادة سفينة الحق إلا للراشدين النابهين المخلصين ... ولن تمنحها أبداً لغيرهم ...

وهذا الكتاب ... خطوة من خطوات دار الصحوة ... في هذا الطريق .

دار الصحوة

حدائق حلوان بجوار عمارات المهندسين
شارع جمال عبد الناصر
القاهرة